بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية السودان

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

دائرة العلوم الشرعية

تقريب الأقوال في تفسير آيات السلم وآيات القتال

بحث مقدم لنيل درجة العالمية الأولى (الماجستير)

في تخصص التفسير وعلوم القرآن

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
المكتبة
رقم القيد ٢٢٤ التاريخ ٢٠٠٦/٣/٢٦

إعداد الطالب: معتصم على محمد الماحي

إشراف الدكتور: الجزولي الأمير الجزولي

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

٢٠٠٦/٣/٢٦
٤٠٥
١٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

أهدي هذا البحث لروح والديَّ ولكل طالب علم يسعى وراء الحقيقة ويتوق لمعرفتها. ولكل مجاهد في سبيل الله هجز الأهل والولد ساعياً لمرضاة الله، منهكاً بدنه مغبرة قدماه، جسمه في الأرض وروحه في السماء، يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه، ولروح كل شهيد وجد ما وعد ربه حقاً و بشرى نبيه صدقاً. ولكل أرملـــة فقدت زوجها ولكل أم ثكلى. وليتامى الشهداء وأسرهم وكل ذوي قربـــى. ولكـــل مسلم وراء القضبان جوراً وظلماً. وللصابرين في البأساء والضراء وحين البأس.

كما أهدي هذا البحث (تقريب الأقوال في تفسير آيات السلم وآيات القتـــال) لدعاة الحق والعدل منارات السبيل ومصابيح الدجى. أسأل الله أن يجعله ســـراجاً ينير الطريق لكل مسترشد طالب لطريق الرشد والهدى. وأسأل الله تعالى أن يتقبله مني كما يتقبل من عباده الصالحين.

شكر وعرفان:

الحمد الله سبحانه وتعالى أولاً على توفيقه لي بإتمام هذا البحث وأشكره شكراً يليق بجلاله وكماله ثم أتقدم بالشكر الجزيل لشيخي الجليل الدكتور: الجزولي الأمير الجزولي المشرف على هذه الرسالة على توجيهه وإرشاده وتشجيعه لي. فجزاه الله عني خير الجزاء، وبارك في عمره وعلمه وجعل ما بذله من جهد في ميزان حسناته. كما أشكر كل من أبدى لي رأيا أو أسدى لي نصحاً. وأخص بالذكر الأخ الدكتور: الصادق محمد إبراهيم من الله الذي أرشدني إلى استخدام الحاسوب فخفف عني كثيراً من الجهد والنفقات. والأخوين: المهندس عثمان مصطفي والأستاذ جعفر دفع الله اللذين علماني كيفية الاستفادة منه. أسأل الله أن يهدي مخترعه ومن بذل في صناعته جهداً إلى الإسلام، وأن يوفق المسلمين على استخدامه في كل ما يرضيه تعالى. وأخص بالشكر كلية الدراسات العليا التي عملت على تسهيل إجراءات التسجيل لي وأنا بالخارج وعلى رأسها الأستاذ الدكتور/ عميد الكلية فضيلة عبد المنعم الشيخ عثمان. والشكر إلى جمع المشايخ القائمين على أمر هذه الجامعة. والشكر أيضا للجنة التي ستقوم بمناقشة هذا البحث. والشكر لزوجتي العزيزة التي تحملت غيابي عنها وأنا موجود معها وبعدي عنها وأنا قريب منها.

مقـــــــدمة

الحمد لله رب العلمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وقائد المجاهدين، وسيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله وأصحابه الذين أرسى الله بهم دعائم هذا الدين، وأذل بهم الجبابرة، وهزم بهم القياسرة، وأنار بهم ظلمات الجهل، وهدى بهم العباد إلى ما يحيهم حياة طيبة في الدنيا والآخرة.

لقد ازدادت الحاجة في هذا الزمان إلى الفهم المعتدل القويم للآيـــات التي تدعو إلى القتال، والأخرى التي تدعو إلى السلم والمهادنـــة والحكمـــة والموعظة الحسنة، لتزايد سفك الدماء، وقتل الأبرياء، واضطهاد المسلمين، وإرهابهم، والتشويش عليهم، وتشريدهم في كل وادٍ. ولمَّا آل الأمر إلى ما ذكرت، فكرت في الكتابة في هذا المجال. فاخترت عنوان **(تقريب الأقـــوال في تفسير آيات السلم وآيات القتال)**. وقد دفعتني للكتابة في هذا الموضوع أسباب تختلج في صدري كما تختلج في صدر كل مسلم غيور على دينـــه وأمته.

ومن هذه الأسباب:

١- خروج فئة من الشباب المتحمس من المسلمين داعين إلى القتال، آخذين رؤوس الآيات يدعمون بها آراءهم، ويبررون بها قتل الكفار وأهل الكتاب، ولم يسلم المسلمون من آذاهم. وقد أخذوا يترصدون أهدافهم في كل مكـــان متهورين غير متريسين، مما أوقع الأمة في دوامة عنف مجهولة النهايـــة، وفتحت لأعداء الإسلام أبواباً واسعة للطعن فيه والنيل منه باللسان والسنان. وأعطتهم حججا مقنعة لشعوبهم للتـــضييق علـــى المـــسلمين وحكومـــاتهم واستباحة حرماتهم وديارهم و قتل علمائهم و دعاتهم والزج ببعضهم فـــي غياهب السجون، ويرتكبون في حقهم الأعمال الفظيعة والجرائم الشنيعة.

وساعد هؤلاء الشباب على إصرارهم، وشجعهم على آرائهـــم، مـــا يجدونه من اهتمام عبر وسائل الإعلام المختلفـــة، المـــسموعة والمرئيـــة. فهؤلاء في حاجة إلى أن يوضح لهم مدلول هذه الآيات، وربـــط بعـــضها

ببعض، وعواقب تبتيرها وفهمها فهماً سقيماً على الأمة، والعالم كله. ولاسيما إن كثيراً منهم جعل الأمر فوضى، وجعل آيات القتال مطلقة غير مقيدة بولي أمر يجمع الصفوف، ويوحد الكلمة، أو قوة ترهب العدو، أو مصالح يجب أن تُراعى، أو مفاسد يجب أن تدرأ، فقد جعلوا القتال غاية في حد ذاته، ونسفوا بذلك كل طرق الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، بل جعلوها منسوخة أو معطلة بغير فهم ثابت واتخذوا أئمة جهالاً تلقوا العلم من الكتب والمنشورات والصحف من غير علماء راسخين في العلم، فدحت أخطاؤهم وعظمت أخطارهم فهلكوا وأهلكوا.

٢- ظهور فئة أخرى يرفضون القتال في سبيل الله تعالى، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وحشروا الدين في زوايا المساجد وخلاوى العبادة، وعزلوه عن الحياة العامة، واختزلوه في أبواب ومسائل معينة تبعدهم عن الملاحم وساحات الحروب، وعزلوا الدين عن الحياة، وأفرغوه من محتواه، وسلخوه من روحه فأماتوه، محققين بذلك رغبة أعدائه الخفيين الذين احتضنوهم ودعموهم وقالوا هذا ما يدعوكم إليه الإسلام. وأعدائه الظاهرين الذين يشنون عليه حرباً شعواء في جميع الميادين ويتمنون له ميتة لا ينهض بعدها أبداً.

٣- فئة أخرى متحيرة بين هؤلاء وهؤلاء تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، لا تدري على أيهما تعتمد، تسمع نداءً من جهة يقول لها يا هادي الطريق جُرْت[١] فتتجه نحوه فما تلبث حتى يناديها آخر بالنداء نفسه يا هادي الطريق جُرْت. فهي حائصة بين هؤلاء وهؤلاء.

فرأيت أنه من الأهمية أن يتوصل في هذا الموضوع إلى رأي واضح يتناول الموضوع بنظرة متكاملة، ويأخذ الآيات بطريقة مجتمعة مدعومة بالأحاديث الصحيحة، والوقائع التاريخية، والأحداث الجارية، والأمثلة الواقعية.

---

(١)جارَ عن الطريق: عَدَلَ. والجَوْرُ: المَيْلُ عن القصدِ لسان العرب باب الجيم ج٤: ص:١٥٣

ولا شك أن إهمال هذا الموضوع وعدم تبيينه يعني استمرار الفهم الخاطئ للآيات، أو استفحال الخلاف والفرقة بين المسلمين، فيتمكن العدو منهم، فينال من دينهم وحضارتهم ويحصد أرواحهم. وأرجو أن تكون له فائدة تعمُّ الفئات الثلاثة المتحمسة والضالة والمتحيرة ويكون زاداً للكتَّاب والمفكرين المهتمين بالذود عن حمى هذا الدين.

أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقني إلى الجمع بين الآراء والوصول إلى الرأي السديد.

الدراسات السابقة في هذا الموضوع:

لا أعرف أحداً كتب في هذا الموضوع تحت هذا العنوان ولكن هناك آراء كثيرة للعلماء والباحثين قد وردت متفرقة في بطون الكتب وغيرها. و قد تناولت كثيراً منها واستنرت بها في هذا البحث وأثبت مصادرها وأسندتها لأصحابها.

مشكلات البحث:

- – بيان الحدود التي وضعها الله تعالى للقتال .
- – التجهيزات اللازمة للقتال .
- – مؤهلات المقاتلين .
- – بيان حكم القتال من غير إمام جامع إذا تقاعس الحكام عن الجهاد.
- – المخاطبون بآيات القتال.
- – ما يفعله المسلمون إذا كان عدوهم أقوى منهم.
- – بيان حكم قتل من لا يؤمن بالله.
- – بيان مدلول آيات السلم والدعوة إلى الله بالحكمة .
- – حكم الإكراه من أجل الإيمان.

منهج البحث:

- أسلك في دراسة الموضوع المنهج الاستقرائي التحليلي حيث أجمع الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع واقسمها على فصول البحث ومباحثه ومطالبه حسب ما يقتضيه الحال.
- اقتصر على تفسير آيات القتال والسلم والمهادنة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.
- إيراد آيات السلم وآيات القتال وبيان وجهة كلٍ.
- الوقوف على آراء المفسرين والمحدّثين حول النصوص من الكتاب والسنة ترجيح ما أراه راجحا حسب الدليل.
- وآخذ بأوجه القراءات التي تفيد معنى جديداً أو مغايراً للمعنى الذي تفيده قراءة حفص.
- تخريج الأحاديث النبوية من الكتب المعتمدة للتخريج.
- عزو كل قول إلى قائله وإتيان المصدر الذي نقل عنه في الحاشية مع توثيق المراجع والمصادر و الإشارة بالحرف (م) للمجلد والحرف (ج) للجزء والحرف (ص) للصفحة والحرف (ط) للطبعة.
- أقف على آراء الفقهاء من السلف والخلف في مجال السياسة الشرعية فيما يتصل بأمر القتال والمهادنة وأرجح ما يسانده الدليل.
- -أترجم للأعلام غير المشهورة من الصحابة و التابعين وأهل العلم المقدمين و المحدثين.
- -أجمع الآيات التي ترتبط بكل فصل من غير التزام بترتيبها المصحفي.
- أعزي الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية. أربط بين آيات القتال وآيات السلم وأبين موقع كل آية والحالة التي تنطبق عليها وأسند ذلك بالأحداث والوقائع القديمة والحديثة مستدلاً كذلك بالأحاديث الصحيحة مهملا الأحاديث الضعيفة.
- أناقش اختلافات العلماء وأقرب بينها إن أمكن وأرجح أقواها دليلاً إذا لم يمكن الجمع مبيناً رأيي في المسالة.

- – أرد على الشبهات التي تتعلق بكل مسألة في موضعها.
- – أبين الناسخ والمنسوخ في الآيات والعام والمقيد.
- – أحسم المسألة بالرأي الذي أراه سديداً ولا أتركها مرسلة.
- – استنير بآراء العلماء المعاصرين وما قاموا به من جهد في هذا الموضوع.
- – عند الإحالة إلى مرجع أو مصدر فإني أذكر اسم الكتاب والمؤلف والجزء والصفحة وأترك بقية المعلومات عن الكتاب لفهرس المراجع.
- – أترجم للصحابة عدا الخلفاء الأربعة. ولبقية الأعلام. أرتبهم في الفهرس ترتيباً أبجدياً.
- – أذيل البحث بفهارس وهي على النحو التالي:
- – فهرس الآيات القرآنية.
- – فهرس الأحاديث النبوية.
- – فهرس الأعلام المترجم لهم.
- – فهرس المراجع والمصادر.
- – فهرس الموضوعات.
-

مسلمات البحث:

- – الجهاد ضروري لحياة الأمة وردع الظالمين.
- – القتال في الإسلام ليس غاية في حد ذاته.
- – الإسلام دين الحكمة والسلام.
- – الإسلام دين شامل يتغلغل في كل نواحي الحياة.
- – النصر من عند الله وقد أمرنا الله أن نأخذ بالأسباب.

شرح مفردات العنوان:

تقريب الأقوال:

إن آراء العلماء متباينة في هذا الموضوع قديماً وحديثاً فلابد من الجمع بينها وتوضيحها وإيراد ما اعتمد عليه كل عالم في بناء رأيه والتقريب بينها.

آيات السلم وآيات القتل:

لابد من أخذ هذه الآيات مجتمعة ووضعها في مواضعها الصحيحة.

وقد سرت في الكتابة فيه وفق الخطة التالية :

قسمت الموضوع إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وذيلته بالفهارس.

أما المقدمة فبينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياري له ومشكلة البحث وأهدافه ومسلماته وشرح مفردات العنوان. وأما الفصول الأربعة فكانت على النحو التالي:

الفصل الأول

السلام مظاهره ومقتضياته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى السلام وأهميته.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنى السلام.

المطلب الثاني: الجهاد وأثره في الحفاظ على السلام.

المبحث الثاني: مظاهر السلام

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مظاهر السلام القولية.

المطلب الثاني: مظاهر السلام العملية.

المطلب الثالث: تحية أهل الكتاب.

الفصل الثاني

الاستعداد للجهاد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ما يؤخذ بالحسبان قبل أن يلتقي الجمعان.

فيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: حكم القتال من غير إمام و أرض ينطلق منه.

المطلب الثاني: ما يحرم فيه القتال من المكان و الزمان.

المطلب الثالث: مراعاة العهود والمواثيق.

المطلب الرابع: دعوة الكفار إلى الإسلام.

المطلب الخامس: القوة اللازمة.

المبحث الثاني: ما يؤخذ بالحسبان عندما يلتقي الجمعان.

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: إخلاص النية وعدم التنازع.

المطلب الثاني: الصبر والثبات وكثرة الذكر لله تعالى.

المطلب الثالث: التحريض على القتال.

المطلب الرابع: التحذير من المخالفات والمعاصي وبيان عاقبتها.

المبحث الثالث: أحكام الأسر.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى الأسر والأسير.

المطلب الثاني: حكم الأسر.

المطلب الثالث: أحكام الأسرى.

المطلب الرابع: معاملة الأسرى.

الفصل الثالث

أنواع القتال

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول :قتال من لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: قتال المشركين.

المطلب الثاني: قتال الكافرين.

المطلب الثالث: قتال المنافقين.

المطلب الرابع: قتال أهل الكتاب.

المبحث الثاني: حكم القتال من أجل الإكراه في الدين.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: القتال من أجل اعتقاد الدين.

المطلب الثاني: القتال من أجل الإلزام بالتشريع.

المبحث الثالث: قتال الضرورة.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: قتل المؤمنين إذا اختلطوا بالكافرين.

المطلب الثاني: قتال البغاة.

الفصل الرابع

أسباب النصر

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب المعنوية.

فيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ما ينال به عون الله ومدده.

المطلب الثاني: طاعة الله والبعد عن المعاصي.

المطلب الثالث: استنصار الله والتوكل عليه.

المبحث الثاني: الأسباب المادية.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قوة الأبدان وصلاح العتاد.

المطلب الثاني: كثرة السواد.

المطلب الثالث: وحدة الصف.

الخاتمة (النتائج والتوصيات)

الفهارس العامة

الفصل الأول

السلام ومظاهره ومقتضياته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى السلام.

المبحث الثاني: مظاهر السلام.

المبحث الأول

معنى السلام وأهميته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنى السلام.

المطلب الثاني: الجهاد وأثره في الحفاظ على السلام.

المطلب الأول: معنى السلام:

تحدث علماء اللغة عن معنى السلام في اللغة، وأوردوا له تعريفات كثيرة:

قال صاحب لسان العرب: سلم السَّلامُ والسَّلامَةُ البراءة تَسَلَّمَ منه تَبَرَّأَ. السَّلامَ في لغة العرب أربعة أشياء فمنها سَلَّمْتُ سَلاماً مصدر سَلَّمْتُ ومنها السَّلامُ جمع سَلامة ومنها السَّلامُ اسم من أسماء اللَّه تعالى ومنها السلامُ شَجَرٌ؛ ومعنى السَّلامُ الذي هو مصدر سَلَّمْتُ أنه دعاء للإنسان بأن يَسْلَمَ من الآفات في دينه ونفسه وتأويله التخليص قال وتأويل السَّلام اسم اللَّه أنه ذو السَّلامِ الذي يملك السلام أي يخلص من المكروه[1].

السَلم: الصلح بفتح السين وكسرها يذكر ويؤنث والسلم والمسالم: تقول أنا سلم لمن سالمني[2].

وعرفه صاحب مختار الصحاح فقال: والسلام والسلامة: الاستسلام السلام: الاسم من التسليم السلام: اسم من أسماء الله تعالي والسلام البراءة من العيب[3].

وأما في اصطلاح الفقهاء، فقد عرفه ابن قيم الجوزية[4] بقوله:(وأما السؤال الأول وهو ما حقيقة هذه اللفظة(يعني السلام) فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها فمن ذلك قولك سلمك الله. وسلم فلان من الشر. ومنه دعاء المؤمنين على الصراط؛ رب سلم اللهم سلم.

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور باب السين ج: ١٢ ص:٢٩١.

(٢) المصدر السابق ج: ١٢ ص: ٣٩٣.

(٣) انظر مختار الصحاح للرازي باب: السين ج: ١ ص: ١٣١.

(٤) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، الحنبلي المتوفى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، خلف كثيرا من المؤلفات منها: كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد وأعلام الموقعين عن رب العالمين وأحكام أهل الذمة وغيرها. انظر زاد المعاد ج:١ ص:١٥-٢٤.

ومنه سلم الشيء لفلان. أي خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾[1]. أي خالصا له وحده لا يملكه معه غيره. ومنه السلم ضد الحرب. قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[2]. لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر؛ ولهذا يبنى منه على المسالمة مثل المشاركة)[3]. وهذا المعنى هو المقصود في البحث.

ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل والدغل وحقيقته الذي قد سلم لله تعالى وحده فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخالفات[4].

المطلب الثاني: الجهاد وأثره في الحفاظ على السلام:

إن الجهاد وسيلة إلى السلام، وحرب على الإرهاب. ويتبين ذلك في دوافعه وأهدافه. ومن دوافع القتال في سبيل الله:

أولاً: دفع الظلم: قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[5]. قال ابن عباس[6]:(كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فيقول لهم اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وهي أول آية أنزلت في القتال)[7]. بيّن الله في هذه الآية، أن سبب الإذن للمؤمنين بالقتال؛ هو الظلم الذي وقع عليهم من المشركين، وأنه قادر على نصرهم.

---

(١) سورة الزمر الآية(٢٧).

(٢) سورة الأنفال الآية(٦١).

(٣) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ج: ٢ ص:٣٦١.

(٤) المصدر السابق ج: ٢ ص:٣٦١.

(٥) سورة الحج الآية رقم(٣٩).

(٦) عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِب القُرَشِي الهَاشِمِي، أَبُو العَبَّاسِ المَدَنِي، ابنُ عَمِّ رسول الله. كان يقال له: الحَبْرُ والبَحْرُ، لكثرة علمه، دعا له النبيُّ بالحِكْمَةِ مَرَّتين. وقال عبد الله بن مسعود: نعم تُرجمان القرآن عبد الله بن عباس. تهذيب الكمال ج: ٩ ص: ١٨٥.

(٧) زاد المسير لابن الجوزي ج: ٥ ص: ٤٣٦.

وقد حرض الله المؤمنين على قتال الكافرين؛ لدفع الظلم عن إخوانهم المستضعفين فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾[1]. قال الطبري[2] في جامع البيان:(يعني بذلك جلّ ثناؤه: وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله عن المستضعفين منكم من الرجال والنساء والولدان. فأما من الرجال فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فغلبتهم عشائرهم على أنفسهم بالقهر لهم، وآذوهم ونالوهم بالعذاب والمكاره في أبدانهم؛ ليفتنوهم عن دينهم. فحضّ الله المؤمنين على استنقاذهم من أيدي من قد غلبهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار؛ فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصدّهم عن دينهم[3]).

الدافع الثاني: الدفاع عن النفس. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[4].

للمفسرين قولان في تفسير هذه الآية:

القول الأول: الأمر بقتال من ابتدأ القتال، والكف عن الذين لم يقاتلوا، وأنها منسوخة بآية براءة. قال صاحب تفسير الجلالين:(ولما صُدّ ﷺ عن البيت عام الحديبية؛ وصالح الكفار على أن يعود العام القابل؛ ويُخلوا له مكة ثلاثة أيام، وتجهز لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي قريش ويقاتلوهم وكره

---

(١) سورة النساء الآية(٧٥)

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى الإمام أبو جعفر رأس المفسرين على الإطلاق أحد الأئمة وله التصانيف العظيمة منها تفسير القرآن ومنها تهذيب الآثار. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ ص:٩٥

(٣) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج: ٥ ص: ١٠٦

(٤) سورة البقرة الآية(١٩٠)

المسلمون قتالهم في الحرم والإحرام والشهر الحرام؛ نزل(وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) أي لإعلاء دينه. ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ الكفار. ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ عليهم بالابتداء بالقتال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين ما حدّ لهم. وهذا منسوخ بآية براءة)[1].

القول الثاني: أنها غير منسوخة، بل فيها أمر للمؤمنين بقتال من قاتلهم، والكف عن من لم يقاتلهم من النساء، والصبيان، والشيوخ. قال ابن كثير[2]:(قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع)[3].

وفي اعتقادي أنه لا مسوغ للقول بالنسخ. وأما الذين قالوا إنها منسوخة، فلم يعتمدوا على دليل. ولا يجوز القول بالنسخ وللآية وجهة ممكنة تصرف إليها. فقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، فلا يمكن أن يكون منسوخا. لأن فيه الأمر بقتال المعتدي وفي عدم قتاله هوان وصغار قد نهى الله عنه في أكثر من آية قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4]. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. فلعل صرف معنى الاعتداء إلى الابتداء وحده يحتاج إلى إعادة نظر؛ لأنه يجعل معنى الآية: لا تبدؤوا بالقتال إن الله لا يحب المبتدئين به، ثم يأتي لاحقا فيشرع الابتداء ويأمر بقتال أهل الكتاب والمشركين ابتداءً. قال صاحب لسان

---

(١) تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلى ج:١ ص:٤٠.

(٢) هو: إسماعيل بن عمر بن كثر ، اشتغل بالحديث على طريقة الفقهاء مطالعة في متونه ورجاله وجمع التفسير والتاريخ الذي سماه البداية والنهاية وغير ذلك من التصانيف. توفي سنة ٧٧٤ هـ . انظر الدرر الكامنة لابن حجر ج: ١ ص:٣٧٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج:١ ص: ٣٧٦.

(٤) سورة آل عمران الآية(١٣٩).

العرب: (العَداءُ، بالفتح والمد: الظُّلْم وتَجاوُز الحدّ). ولعل القول الثاني هو الأنسب في بيان هذه الآية.(والله أعلم بما يريد)، لا تتجاوزوا من قاتلكم إلى من لم يقاتلكم، ولا يقوى على قتالكم، فتظلموهم، إن الله لا يحب الظالمين. فتكون بذلك الآية محكمة غير منسوخة. فقتال من يقاتلنا مشروع في كل وقت. وقتل الضعفاء من الأطفال والشيوخ والنساء محرم إذا تميزوا؛ لحديث النبي ﷺ: عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:(كَانَ رَسُولُ الله إِذَا أَمَّرَ أَميراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاه في خَاصَّتِه بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ منَ الْمُسْلمينَ خَيْراً ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغدرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً...)[1]. وحديث البخاري: (عن نافعٍ أن عبدَ الله رضيَ الله عنه أخبرَهُ: أنَّ امرأةً وُجِدَت في بعضِ مَغازي النبيِّ ﷺ مقتولةً، فأنكرَ رسولُ الله ﷺ قتلَ النساءِ والصبيان)[2]. فعدم قتل الصبيان والنساء والشيوخ من أخلاقيات القتال في الإسلام. سواء بدأ العدو بالقتال أو بدأ به المسلمون. هذا ما يعرف اليوم في القوانين الدولية بحماية المدنيين.

ويجوز قتلهم إذا اختلطوا بالمقاتلين ولا يمكن الوصول إلى العدو بدونهم. لحديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نُصِيبُ فِي الْبَيَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ. قَالَ:(هُمْ مِنْهُمْ)[3]. قال النووي[4] في شرح هذا الحديث:(سئل عن حكم صبيان المشركين الذين يبيتون فيصاب من نسائهم وصبيانهم بالقتل، فقال: هم من آبائهم أي لا بأس بذلك لأن أحكام آبائهم جارية عليهم

---

(١) صحيح مسلم ج: ١٢ ص: ٢١ حديث رقم(٤٤٧٦).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم(٢٩٤٧).

(٣) صحيح مسلم ج: ١٢ص: ٤٧ حديث رقم(٤٥٠٤).

(٤) هو: يحي بن شرف الحزامي النووي الشافعي محي الدين أبو زكريا محرر المذهب الشافعي وكبير الفقهاء في زمانه. من مصنفاته: شرح مسلم وشرح المهذب والروضة والمنهاج وتهذيب الأسماء واللغات ورياش الصالحين والأذكار توفي سنة ٦٧٦، انظر طبقات الشافعية للأسنوي ج:٢ ص:٤٧٦، البداية والنهاية ج: ١٣ ص: ٢٩٤.

في الميراث، وفي النكاح، وفي القصاص، والديات، وغير ذلك، والمراد إذا لم يتعمدوا من غير ضرورة. وأما الحديث السابق في النهي عن قتل النساء والصبيان، فالمراد به إذا تميزوا، وهذا الحديث الذي ذكرناه من جواز بياتهم، وقتل النساء والصبيان في البيات هو مذهبنا ومذهب مالك وأبي حنيفة والجمهور)[1].

ثالثاً: القتال من أجل منع الفتنة ولتكون كلمة الله هي العليا: قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2]. يأمر الله المؤمنين في هذه الآية بقتال المشركين حتى لا يفتنوا المؤمنين عن دينهم، وحتى يسلم هؤلاء المشركون؛ ويكون الدين خالصا لله تعالى من غير شرك. والشرك من أعظم أنواع الظلم. قال الألوسي[3]:(وكون الشرك ظلماً؛ لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه. وكونه عظيماً؛ لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له[4]). قال البغوي[5]: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: شرك، يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلاّ الإسلام، فإن أبى قُتل،(وَيَكُونَ ٱلدِّينُ)، أي: الطاعة والعبادة للّه وحده، فلا يُعبد شيءٌ دونه[6].

---

(١) صحيح مسلم شرح النووي ج: ١١ ص: ٤٩.

(٢) سورة البقرة الآية(١٩٣).

(٣) هو: محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي، أبو الثناء مفسر ومحدث وأديب ، من كتبه: روح المعاني في تفسير القرآن . أنظر الأعلام الزركلي ج: ٧ ص:١٧٦ومعجم المؤلفين لكحالة ج: ١٢ ص:١٧٥.

(٤) تفسير الألوسي ج: ٢١ ص:٩٦.

(٥) هو: الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي يعرف بابن الفراء ويلقب بمحيي السنة وركن الدين وله من التصانيف معالم التنزيل في التفسير وهو التفسير المشهور بتفسير البغوي وشرح السنة والمصابيح والجمع بين الصحيحين والتهذيب في الفقه كان إماما في التفسير والحديث والفقه تفقه على القاضي حسين وكانت وفاته في شهر شوال سنة ست عشرة وخمسمائة وقد جاوز الثمانين. أنظر طبقات المفسرين للداودي ج:١ ص:١٥٨.

(٦) تفسير البغوي ج:١ص: ١٦٢.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

رابعاً: القتال من أجل منع الفساد. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2]. قال صاحب الكشاف: (ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها، من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض)[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].(ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البيع والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد)[5].

ومما سبق يتبين أن الإسلام دين سلام، وهل في ذلك شك! ألم يفتح البلدان، ويوطد فيها الأمن، ويرس فيها دعائم العدل، ويسجل فيها الانجازات العظيمة! لم يكن أبدا مفسدا هداما ولا مجرما سفاكا. بل كان مصلحا بناء، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فقد غزت جيوش المسلمين بلاد فارس والروم وغيرها من البلدان، فهل قتلوا الشيوخ ، أو النساء، أو الأطفال، والرهبان؟ بل كانت وصية الرسول ﷺ، ووصية خلفائه من بعده لقادة الجيوش، ألا يقتلوا طفلا، ولا امرأة، ولا شيخا، ولا راهبا، ولا شجرة

---

(١) سورة الأنفال الآية (٣٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥١).

(٣) كتاب الكشاف للزمخشري ج:١ ص:٣٢٤

(٤) سورة الحج الآية (٤٠).

(٥) تفسير البغوي ج: ٣ ص:٢٩٠

مثمرة، وغير ذلك من الوصايا التي تدل على أن الإسلام دين سلام وتعمير، لا دين إرهاب وتخريب.

وقد شرع القتال في الإسلام من أجل أهداف نبيلة، ودوافع عظيمة. وأعظم هذه الدوافع وأجلها، تحقيق العبودية لله تعالى؛ فلا يعبد إلا الله وحده. عنِ ابنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال:(أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللّه، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إِلاّ بِحَقِّ الإِسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه)[1]. وهذا الهدف السامي، المتضمن إعلاء كلمة الله، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وإقامة سلطانه في الأرض؛ فلا حكم إلا لله، ولا هوى إلا تبعا لما جاء به رسول الله ﷺ، وإزالة الطواغيت، التي هي أصل الفساد، وعقبة الإصلاح، وما بقي من الأهداف فهو تابع لهذا الهدف، ومندرج تحت لوائه، فالمظلومون من المؤمنين الذين تجب نصرتهم؛ إنما ظلموا بسبب إيمانهم قال تعالى في شأن أصحاب الأخدود: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[2]. قال صاحب فتح القدير: (أي ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم... إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال)[3] وقتال الكفار للمؤمنين فبسبب إيمانهم أيضا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[4] . (إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم)[5].

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٢٥).

(٢) سورة البروج الآية (٨).

(٣) فتح القدير للشوكاني ج: ٥ ص: ٤١٢

(٤) سورة البقرة: من الآية :(٢١٧)

(٥) تفسير البيضاوي ج:١ ص: ٥٠٢

المبحث الثاني

مظاهر السلام

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مظاهر السلام القولية.
المطلب الثاني: مظاهر السلام العملية.
المطلب الثالث: تحية أهل الكتاب.

المطلب الأول: مظاهر السلام القولية:

من مظاهر السلام في أقوال المسلمين،تحية الإسلام التي يحيي بها بعضهم بعضاً في الدنيا،وتحية أهل الجنة في الجنة. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:(خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورته، طولهُ ستون ذراعاً. فلما خَلَقَهُ قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أُولئكَ نفَرٍ من الملائكةِ جُلوسٍ، فاستمعْ ما يُحيُّونَكَ، فإنها تحيَّتُك وتحية ذرِّيتك. فقال: السلامُ عليكم، فقالوا: السلامُ عليكَ ورَحمةُ اللّه، فزادوه ورحمة اللّه.)[1]

وقد أمر الله المؤمنين بإفشاء السلام في عدد من الآيات. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]. أمر الله المؤمنين في هذه الآية بإفشاء السلام قبل دخول منازل غيرهم، إيناسا لهم، وإشعارا بقدومهم، حتى يتهيؤوا للقائهم.

وأمر الله النبي ﷺ أن يسلم على النفر المستضعفين من أصحابه، وهم سلمان، وصهيب، وبلال، وغيرهم. وقد نالوا هذه الكرامة من الله ورسوله بسبب إيمانهم بالله وآياته قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]. قال صاحب الجامع لأحكام القرآن: (أمره أن يقول لهم هذا القول تطييبا لخواطرهم وإكراما لهم)[4]. عن خباب رضي الله عنه قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا النبي ﷺ قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب، في أناس ضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم، فأتوه فخلوا به فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا؛ تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب ستأتيك فنستحي أن

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء السلام حديث رقم (٦٠٨٤).

(٢) سورة النور الآية (٢٧).

(٣) سورة الأنعام الآية (٥٤).

(٤) تفسير القرطبي ج: ٦ ص:٤٣٣.

ترانا العرب قعودا مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت. قال نعم. قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا. فدعا بالصحيفة، ودعا عليا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ . . ﴾[1] إلى قوله: ﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعا فأتيناه وهو يقول: ﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[2].

وأمر الله المؤمنين أن يسلموا على النبي ﷺ ، اقتداء به وبملائكته قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[3] وأمرهم أن يصلوا على أنفسهم عند دخول البيوت، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾[4] . وقد تباينت آراء المفسرين في معني(بيوتا) فمنهم من قال المساجد ومنهم من قال البيوت المسكونة وغير المسكونة وقال آخرون بيوت الغير وقد روي عن ابن عباس هذه الآراء جميعا. أخرج عبد الرزاق[5] وابن جرير[6] وابن المنذر[7].

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم (٥٢)

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج٣: ص:٢٧٣.

(٣) سورة الأحزاب الآية (٥٦).

(٤) سورة النور الآية (٦١).

(٥)عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر ولد برأس عين سنة ٥٨٩ وسمع من أبي اليمن الكندى والافتخار الهاشمى وجماعة وصنف تفسيرا حسنا يروي فيه بأسانيده وكان إماما محدثا فقيها أديبا شاعرا دينا صالحا. انظرطبقات المفسرين للسيوطي ج:١ص:٦٦.

(٦) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى الإمام أبو جعفر رأس المفسرين على الإطلاق أحد الأئمة وله التصانيف العظيمة منها تفسير القرآن ومنها تهذيب الآثار. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ ص:٩٥.

(٧) محمد بن إبراهيم بن المنذر أبو بكر النيسابوري الإمام المجتهد. صنف كتبا لم يصنف مثلها في الفقه وغيره منها كتاب المبسوط وكتاب الإشراف في إختلاف العلماء وكان مجتهدا لا يقلد وآخرون مات ٣١٨. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ ص:٩١.

وابن أبى حاتم[١] والحاكم[٢] وصححه والبيهقى[٣] في الشعب عن ابن عباس في قوله عز وجل:(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) قال: هو المسجدُ إذا دخلته فقل: السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين)[٤].

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس في قوله:﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[٥]: المراد البيوتُ المسكونة[٦]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله:﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾. يقول: إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أهلها تحية من عند الله وهو السلام لأنه اسم الله وهو تحية أهل الجنة.[٧] و قال ابن العربي[٨]: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ولا دليل على التخصيص.[١]

---

(١)عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر صنف في الفقه واختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار وكان عابدا زاهدا يعد من الأبدال ومن تصانيفه التفسير المسند اثنا عشر مجلدا لخصته في تفسيري وكتاب الجرح والتعديل يدل على سعة حفظه وإمامته وكتاب الرد على الجهمية وكتاب الزهد وكتاب الكنى وغير ذلك. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ ص:٦٢.

(٢) هو : الإمام الحافظ ، محمد بن عبد الله بن حمودية ، ويعرف بابن البيع ، كان من أهل الحفظ والحديث ، صنف الكتب الكبار والصغار منها: المستدرك على الصحيحين ، وعلوم الحديث، والإكليل ، وغيرها ، توفي سنة ٤٠٥ هـ. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج:٣ ص:١٠٣٩-١٠٤٥ والبداية والنهاية ج:١١ ص: ٣٧٩.

(٣) هو: الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الشافعي، صاحب التصانيف منها: الأسماء والصفات ،و السنن الكبرى، ودلائل النبوة وغيرها ، توفي سنة ٤٥٨ هـ. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، ج: ص: ١١٣٢ – ١١٣٤. انظر طبقات الشافعية للأسنوي ج: ص:١٩٨، ودلائل النبوة للبيهقي ج:٥ ص:٤٨٩.

(٤) فتح القدير للشوكاني ج: ٤ ص: ٥٧.

(٥) فتح القدير للشوكاني ج: ٤ ص: ٥٧.

(٦) تفسير الثعالبي ج: ٤ ص: ١٢٨.

(٧) الدر المنثور للسيوطي ج:٦ ص: ٢٢٥.

(٨) محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الحافظ أحد الأعلام ولد في شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة ورحل مع أبيه إلى المشرق وعاد إلى بلده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق وكان من أهل التفنن في العلوم والإستبحار فيها=

وتحرير الخلاف: أن لفظ (بيوتا) جاء نكرة، فهو يشمل كل ما يطلق عليه كلمة بيت، من مساجد، وبيوت مسكونة،وغير مسكونة، كما يرى ابن العربي، وما يفهم من كلام ابن عباس، فإن كان فيها أحد يسلم على من فيها، وإن لم يكن فيها أحد قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقد عظَّم الله شأن هذه التحية، ورفع قدرها، وجعلها شعارا يجب التوقف عنده، والتثبت عند سماعه، قبل إصدار أي حكم، واتخاذ أي قرار. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[٢]. جاء في سبب نزول هذه الآية: (عن بن عباس قال مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنما له، فسلم عليهم، فقالوا لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ إلى آخرها[٣]. فعاتبهم الله على تغافلهم التحية وعدم الاكتراث لها.

قرأ نافع[٤]، وابن عامر[١]، وحمزة[٢]، وأبو جعفر[٣]، وخلف[٤]،(السَّلم) بفتح اللام من غير ألف بعدها من الانقياد فقط، والباقون

=والجمع لها مقدما في المعارف كلها أحد من بلغ رتبة الإجتهاد وأحد من إنفرد بالأندلس بعلو الأسناد. صنف التفسير وأحكام القرآن وشرح الموطأ وشرح الترمذي وغير ذلك وولي القضاء ببلده مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. النظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ ص: ١٠٥.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج:٣ ص:٤٢٦.

(٢) سورة النساء الآية (٩٤).

(٣) كتاب الدر المنثور السيوطي ج: ٢ ص: ٦٣٢.

(٤) نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم الليثي مولاهم أبو رويم المقريء المدني أحد الأعلام هو مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب أو حليف أخيه العباس وقيل يكنى أبا الحسن وقيل أبا عبد الرحمن وقيل أبو عبد الله وقيل أبو نعيم وأشهرها أبو رويم. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ص: ١٠٧.

بالألف. والظاهر أنه التحية، وقيل الانقياد[٥] (السلم) بمعني الدخول والانقياد فيكون المعني لا تقولوا لمن انقاد لكم وتابعكم لست مؤمنا)[٦].

وأمر الله رسوله ﷺ أن يسلم على الرسل الذين اختارهم لتبليغ الرسالات، وهداية العباد، قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٧]. قال البيضاوي[٨]: (أمر رسوله ﷺ بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته، وعظم شأنه، وما خص به رسله من الآيات الكبرى، والانتصار من العدا، بتحميده والسلام على المصطفين من

---

(١) سليم بن عيسى بن سليم ابن عامر بن غالب أبو عيسى ويقال أبو محمد الحنفي مولاهم الكوفي المقرىء صاحب حمزة الزيات وأخص تلامذته به وأحذقهم بالقراءة وأقومهم بالحرف وهو الذي خلف حمزة في الإقراء بالكوفة. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ ص: ١٣٨.

(٢) حمزة بن حبيب ابن عمارة بن إسماعيل الإمام أبو عمارة الكوفي مولى آل عكرمة بن ربعي التيمي الزيات أحد القراء السبعة. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ ص:١١١.

(٣) أبو جعفر القاريء أحد العشرة مدني مشهور رفيع الذكر قرأ القرآن على مولاه عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي. وقال غير واحد قرأ أيضا على أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم عن قراءتهم على أبي بن كعب وصلى بابن عمر وحدث عن أبي هريرة وابن عباس وهو قليل الحديث قرأ عليه نافع بن أبي نعيم وسليمان بن مسلم بن جماز وقد وثقه يحيى بن معين والنسائي قلت قد اختلفوا في تاريخ وفاته فقال محمد بن المثنى العنزي توفي سنة سبع وعشرين ومئة وقال آخر سنة ثمان وعشرين وقال خليفة سنة اثنتين وثلاثين وقيل سنة إحدى وثلاثين وقيل سنة ثلاث وثلاثين عن نيف وتسعين سنة. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ ص:٧٢.

(٤) خلف بن هشام ابن ثعلب وقيل ابن طالب بن غراب أبو محمد البغدادي المقرئ البزار أحد الأعلام وله اختيار أقرأ به وخالف فيه حمزة قرأ على سليم عن حمزة وسمع مالكا وأبا عوانة وحماد بن زيد وأبا شهاب عبد ربه الحناط وأبا الأحوص وشريكا وحماد بن يحيى. توفي في جمادى الآخر سنة تسع وعشرين ومئتين وكان كولده سنة خمسين ومئة. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ ص: ٢٠٨-٢١٠.

(٥) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر الدمياطي ج:١ص: ٢٤٥.

(٦) تفسير السمرقندي ج: ١ ص: ٣٥٥.

(٧) سورة النمل الآية (٥٩).

(٨) عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي أبو الخير القاضي ناصر الدين البيضاوي الشافعي صاحب الوطالع والمصباح في صول الدين ومختصر الكشاف في التفسير المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل وله شرح المصابيح في الحديث كان إماما مبرزا نظارا صالحا متعبدا زاهدا ولي قضاء القضاة بشيراز. انظر طبقات المفسرين للداودي ج:١ ص:٢٥٤.

عبادة؛ شكرا على ما أنعم عليهم؛ أو علمه ما جهل من أحوالهم؛ وعرفانا لفضلهم؛ وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين)[1].

المطلب الثاني:المظاهر العملية:

هناك كثير من المواقف الفعلية التي تدل على أن الدين الإسلامي دين سلام وأمان، وليس دين حرب وإبادة، ومن تلك المواقف: الاستجابة للعدو إذا طلب السلم والمهادنة حتى في حال قوة المسلمين وغلبتهم. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[2]. جنحوا: مالوا للسلم بكسر السين وفتحها الصلح فاجنح لها[3].

والسلم شرعاً: مصالحةُ أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوضٍ أو غيره، سواء فيهم من يقرّ على دينه، ومَنْ لم يقرّ.[4] وللعلماء في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنها منسوخة: قال بن عباس ومجاهد[5] وزيد بن أسلم[6] وعطاء الخراساني وعكرمة[7] والحسن[1] وقتادة[2] إن هذه الآية منسوخة

---

(١) تفسير البيضاوي ج:٤ ص:٢٧٢.

(٢) سورو الأنفال الآية (٦١).

(٣) تفسير الجلالين ج:١ ص:٢٣٧.

(٤) شرح المهذب ج: ٢١ ص: ٢٠٢.

(٥) مجاهد بن جبر الإمام أبو الحجاج مولى السائب بن أبي السائب المخزومي المكي المقريء المفسر أحد الأعلام، توفي سنة ثلاث ومئة وقد نيف على الثمانين. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ ص: ٦٦.

(٦) هو: الإمام أبو عبد الله العمري المدني الفقيه ، روى عن مولاه عبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله وأنس وغيرهم. له تفسير يرويه عنه ولده توفي سنة ١٣٦هـ. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج: ١ ص: ١٣٢-١٣٣.

(٧) عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْل وَاسْمُهُ عَمْرُو بنُ هِشَامِ بنِ المُغِيْرَةِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ بنِ مَخْزُوْم القُرَشِي المَخْزُوْمِي، وكان أبو جَهْل يُكْنَىٰ أبا الحكم، فكَنَّاه رسول الله أبا جَهْل. وكان أبو جَهْل وابنه عِكْرِمة بن أبي جهل من أَشَدِّ النَّاس علىٰ رسول الله ، فقَتَل اللَّهُ أبا جَهْل يوم بَدْر كافراً، ثم هدىٰ الله عِكْرِمة إلىٰ الإسلام، فأسلم بعد الفتح، وحَسُن إسلامه. انظر تهذيب الكمال ج: ١٢ ص: ٢٩٣.

بآية السيف في براءة وهي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٣] وعلق ابن كثير بقوله وفيه نظر لان آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك. أما إذا كان العدو كثيفا فإنه يجوز مهادنتهم)[٤] وروي عن ابن عباس أن الناسخ لها: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[٥][٦].وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه: كانت قبل براءة، وكان النبي ﷺ يوادع الناس إلى أجل، فإما أن يسلموا وإما أن يقاتلهم، ثم نسخ ذلك في براءة فقال: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)[٧][٨].

القول الثاني: أنها غير منسوخة: قال القرطبي: (قال السُّدِّيّ وابن زيد:معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم. ولا نسخ فيها)[٩].

قال ابن العربي[١]: وبهذا يختلف الجواب عنه؛ وقد قال الله عز وجل:﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾[٢] فإذا كان المسلمون على عزّة وقُوّة ومنعَة، وجماعة عديدة، وعدة شديدة فلا صلح [٣].

---

(١) الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد سيد أهل زمانه علما وعملا قرأ القرآن على حطان الرقاشي عن أبي موسى روى القراءة عنه يونس بن عبيد وأبو عمرو بن العلاء وسلام الطويل فيما قيل وغيرهم توفي سنة عشر ومئة. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ص:٦٥.

(٢) قتادة بن ملحان القيسي قال البخاري وابن حبان له صحبة يعد في البصريين. انظر الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم (٧٠٧٩).

(٣) سورة التوبة الآية (٢٩).

(٤) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص٣٢٣ .

(٥) سورة محمد الآية (٣٥).

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج:٢ ص: ٥٤٨.

(٧) سورة التوبة الآية (٥)

(٨) الدر المنثور للسيوطي ج:٤ ص: ٩٩.

(٩) تفسير القرطبي ج:٨ ص: ٤٠.

أما القول بنسخها فلعله مستبعد؛ لأن ما استدل به القائلون بالنسخ لا ينهض حجة. فقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٤). فلا وجه فيها للنسخ، فهي تدعو إلى قتال أهل الكتاب، حتى يخضعوا لحكم الله؛ فيسلموا أو يدفعوا الجزية. فإن طلبوا الصلح على أن يدفعوا الجزية، فعلى المسلمين أن يقبلوا الصلح وأمر الله بقتالهم لا يمنع الصلح؛ لأن الصلح يكون قبل بدء القتال وقد يكون بعد بدء القتال وفي أثنائه (وقد صالح أصحاب رسول الله ﷺ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومَن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العَجَمِ ؛ على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه، وهم قادرون على استئصالهم. وكذلك صالح رسول الله ﷺ كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه من ذلك خيبر).(٥)

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾(٦). فلعل الأمر فيها أوضح، فهي تنهى المسلمين عن الدعوة إلى الصلح ابتداء، وبهم قوة واستعلاء على العدو، فلا تحمل دلالة نسخ، لأن آية المهادنة تدعو إلى قبول الصلح إذا طلب من جهة العدو ابتداء، خضوعا لحكم الله، وقبولا بدفع الجزية، أو من أجل مصلحة تتحقق للمسلمين.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ

---

(١) سبقت ترجمته ص: ٢٩.

(٢) سورة محمد الآية (٣٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج:٢ ص: ٩٦.

(٤) سورة التوبة الآية (٢٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج: ٨ ص: ٤٠.

(٦) سورة محمد الآية (٣٥).

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. فلعلها لا تصلح أن تكون ناسخة لها؛ لأن هذه الآية نزلت في شأن المشركين، وهم العرب الذين كانوا يعبدون الأوثان، فإن الله قد رفع الصلح بينهم وبين المسلمين بنزول هذه الآية؛ فلا يقبل منهم إلا الإسلام. ولعل من الحكمة في ذلك، والله أعلم: أن هؤلاء المشركين خطر على دولة الإسلام التي وضعت نواتها في يثرب، فلا يمكن لها أن تنمو وتتسع وهي محاطة بالمشركين الذين يعملون على تقويضها، ويبذلون ما في وسعهم على وأدها، فهم عقبة خطيرة أمام تقدم الدعوة الإسلامية، وجيوشها المنطلقة لتبليغ الرسالة، وفتح البلدان، والعدو القريب لا يؤمن جانبه؛ لكونه أبصر بالغرة، وأسرع لانتهاز الفرصة، ولأنهم سدنة البيت وسكان الحرم؛ فهم خطر على أداء شعيرة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام، وفي إسلامهم قوة ومنعة للدولة الإسلامية. ولأنهم ليسو أهل دين سماوي كأهل الكتاب.

وهنا مسألة مهمة، وهي أنه لا يجوز لأحد أن يتخذ هذه الآية ذريعة ليعقد صلحا أو مهادنة مع العدو بغير إذن الإمام، أو تفويض منه. قال صاحب المغني: (ولا يجوز عقد الهدنة ولا الذمة إلا من الإمام أو نائبه لأنه عقد مع جملة الكفار وليس ذلك لغيره ولأنه يتعلق بنظر الإمام وما يراه من المصلحة على ما قدمناه ولأن تجويزه من غير الإمام يتضمن تعطيل الجهاد بالكلية أو إلى تلك الناحية وفيه افتيات[2] على الإمام، فإن هادنهم غير الإمام أو نائبه لم يصح)[3]. فإن فعل ذلك خروجا عن طاعة الإمام وعصيانا لأمره فقد أرتكب محرما لقوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[4]. وعلى الأمام أن يؤدبه ويعاقبه. قال

---

(١) سورة التوبة الآية (٥).

(٢) (ويقال لكل من أحْدَثَ شيئاً في أمْرِكَ دونك: فقد فاتَكَ به، وافْتاتَ عليك فيه؛) لسان العرب لابن منظور باب الفاء ج:٢ ص: ٦٩.

(٣) المغني لابن قدامة ج: ٨ ص: ٢٥٨.

(٤) سورة النساء الآية (٥٩).

النووي: (يتولى عقدها الإمام أو لمن فوض إليه الإمام لما فيها من الخطر، إذْ لو جعل ذلك إلى كل واحدٍ، لم يؤمن أن يهادن الرجل أهل إقليم، والمصلحة في قتالهم، فيعظم الضرر، فلم يجز إلا للإمام أو نائبه، لأنهما يتوليان الأمور العظام، وهما أعرف بالمصالح من الآحاد، وأقدر على التدبير منهم)[1].

إن السلام منشود في كتاب الله تعالى، مندوب له المؤمنون ما وجدوا له سبيلا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2]. فقد أمر الله المؤمنين بأن يدخلوا جميعا في الصلح، ولا يتبعوا ما يأمرهم به الشيطان، هذا على أحد أقوال المفسرين ومنهم قتادة في أحد آرائه. قال ابن كثير: (وقال قتادة أيضا الموادعة)[3] . وقد اختلف المفسرون في معنى السلم تبعا لاختلاف القراء. قال الطبري: (وقد اختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء أهل الحجاز: ﴿ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ﴾ بفتح السين. وقرأته عامة قراء الكوفيين بكسر السين. فأما الذين فتحوا السين من «السلم»، فإنهم وجهوا تأويلها إلى المسالمة، بمعنى: ادخلوا في الصلح والمسالمة وترك الحرب وإعطاء الجزية. وأما الذين قرءوا ذلك بالكسر من السين فإنهم مختلفون في تأويله فمنهم من يوجهه إلى الإسلام، بمعنى ادخلوا في الإسلام كافة، ومنهم من يوجهه إلى الصلح، بمعنى: ادخلوا في الصلح)[4]. وقد اختلف أهل التأويل في المخاطبين بالآية، قال صاحب جامع البيان: (قد اختلف في تأويل ذلك، فقال بعضهم: دعي إليه المؤمنون بمحمد ﷺ، وما جاء به. وقال آخرون: قيل: دعي إليه

---

(١) المجموع شرح المهذب ج:٢١ص: ٢٠٢.

(٢) سورة البقرة الآية (٢٠٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج:١ ص:٤٢٢.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج: ٢ ص: ١٨٧.

المؤمنون بـــمن قبل محمد ﷺ من الأنبـــياء المكذبون بمحمد. فـــإن قيـــل: فما وجه دعاء المؤمن بمحمد وبما جاء به إلى الإسلام؟ قيل: وجه دعائـــه إلى ذلك الأمر له بالعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامـــه وحـــدوده، دون تضيـــيع بعضه والعمل ببعضه. وإذا كان ذلك معناه، كان قوله كافّـــةً من صفة السلم، ويكون تأويله: ادخلوا في العمل بجميع معاني الـــسلم، ولا تضيعوا شيئا منه يا أهل الإيمان بمحمد وما جاء به. وبنحو هذا المعنى كان يقول عكرمة في تأويل ذلك. عن ابن جريج، عن عكرمة قوله: ادْخُلُوا فِي السِّلْـــمِ كافَّةً قال: نزلت فـــي ثعلبة وعبد الله بن سلام وابن يامين وأســـد و أسيد ابنـــي كعب وشعبة بن عمرو وقـــيس بن زيد، كلهم من يهود، قالوا: يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسبت فـــيه، وإن التـــوراة كتاب الله، فدعنا فلنقم بها بالليل فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾. وقال آخرون: بل الفريق الذي دعي إلى السلم فقيـــل لهم ادخلوا فيه بهذه الآية هم أهل الكتاب، أمروا بالدخول في الإســـلام)[1].

غير أن ابن كثير ردَ سبب النزول الذي ذكره عكرمة ورجـــح أن يكـــون المخاطب بها هم المؤمنون بمحمد ﷺ فقال: (يقول الله تعالى آمراً عبـــاده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشـــرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك... ثـــم قال: وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبـــد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ فـــي أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة لـــيلاً، فـــأمرهم الله بإقامـــة شـــعائر الإســـلام والاشتغال بها عما عداها، وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظـــر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعـــه وبطلانه والتعويض عنه بأعياد الإسلام)[2].

---

(١) المصدر السابق ج:٢ ص:١٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج:١ص: ٤٢٢.

ولعل الآية تحتمل كل ما ذكر من تأويلات. ولعل الأرجح فيها هو سبب النزول الذي رواه عكرمة رضي الله عنه. ولا يبدو لي في ذكر ابن سلام ما يقدح في صحته، فقد حدثت هنات ممن هو أفضل من ابن سلام، ولم يكن ذلك سببا للقدح في رواياتهم. عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه النبيّ ﷺ فغضب فقال:(أَمُتَهَوِّكُونَ[1] فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّاب، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقَ فَتَكْذِبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتْبَعَنِي)[2].

المطلب الثالث: تحية أهل الكتاب

انقسمت أقوال العلماء في تحية أهل الكتاب إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: النهي: وهو رأي أكثر العلماء ودليلهم حديث النبي ﷺ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه)[3]. وأن هذه التحية خصت بها هذه الأمة دون غيرها، لحديث أنس ابن مالك قال: قال: رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى أعطى أمتي ثلاثا لم تعط أحد قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة)[4]. وكان عليه الصلاة والسلام يكتب في رسائله إلى ملوكهم (والسلام على من اتبع الهدى). ومن هذه الرسائل كتابه إلى هرقل والذي جاء فيه: (بسم اللهِ الرحمن الرَّحيم. من محمدٍ عبد الله ورسوله، إلى هِرقلَ عظيم الرُّوم. السلام على مَنِ اتَّبعَ الهُدى. أما بعدُ..)[5]. وإذا سلم أحدهم يرد عليه(عليكم)، لحديث أنس رضي الله عنه قال: (قال: رسول الله

---

(١) متهوك: متحير لسان العرب لابن منظور ج:١٠ ص:٥٠٨.

(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم: (١٤٨٥٩).

(٣) صحيح مسلم ج: ١٤ ص: ١٢٣.

(٤) الترمذي من تفسير القرطبي ج:١ ص: ١٣٠.

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٦١١٧).

ﷺ: إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم)[1]. وقال عليه السلام: (إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكُمْ. فَقُلْ: عَلَيْكَ)[2].

القول الثاني: الإباحة: ومن قال بذلك ابن عباس، وابن عيينة، وابن مسعود، والأوزاعي. قال الطبري:(وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب، وفعله بن مسعود[3] بدهقان[4] صحبه في طريقه. قال علقمة: فقلت له يا أبا عبد الرحمن، أليس يكره أن يبدءوا بالسلام ؟ قال: نعم، ولكن حق الصحبة. وكان أبو أسامة[5] إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه، فقيل له في ذلك، فقال: أمرنا أن نفشي السلام. وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروى عن الحسن البصري أنه قال إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم)[6].

قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم قال الله تعالى: (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)[7].

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦١١٥).

(٢) المصدر السابق حديث رقم (٦١١٤).

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل الهذلي أبو عبد الرحمن أحد السابقين الأولين أسلم قديما وهاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد بعدها ولازم النبي ﷺ وحدث عن النبي ﷺ بالكثير وعن. توفي سنة ٣٢. نظر الإصابة في تمييز الصحابة رقم (٤٩٥٧).

(٤) الدهقان: والدِّهقان والدُّهقان: التاجر، فارسي معرَّب، وهم الدَّهاقنة والدَّهاقين. انظر لسان العرب لابن منظور باب الخاء ج:١٠ ص: ١٠٧.

(٥) زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بنِ شَرَاحِيلَ الكَلْبِي، أبو اسامَة، حِبّ رَسُولِ اللّهِ ومَولاَه، وَالِدُ اسَامَةَ بنِ زَيْد، وأخُو جَبَلَةَ بنِ حَارِثَة، وَامّهُ سعدى، ويقال: سُعادُ بنت ثَعْلَبَةَ، مِنْ بَنِي مَعْنِ بنِ طَيءِ. شَهِدَ بَدْرا وا حُدا والخَندقَ والحُدَيبِيَةَ وخَيْبَر، وكان مِن الرّماةِ المذكورين مِن الصّحابة. انظر تهذيب الكمال للمري. ج: ٦ ص: ١٠٤.

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج:١١ص: ١١٢.

(٧) المرجع السابق ج: ١١ص: ١١١.

القول الثالث: الجواز لمصلحة راجحة: قال ابن قيم الجوزية[1]: وقالت طائفة يجوز الابتداء لمصلحة راجحة، من حاجة تكون له إليه، أو خوف من أذاه، أو لقرابة بينهما، أو لسبب يقتضي ذلك [2].

ولعل التقريب بين هذه الأقوال: أنه لا يجوز السلام عليهم إن كانوا محاربين، أو مظهرين العداوة للمسلمين، عملاً بالحديث المذكور، ويجوز السلام عليهم إن لم يكونوا كذلك؛ تأليفا لقلوبهم؛ واستمالة لهما لعلهم يسلمون، إذ أن عدم السلام عليهم فيه جفوة تجعلهم ينفرون من الإسلام. لاسيما إذا كثر الاختلاط بهم، وليس من التعامل معهم بد، كما هو في زماننا هذا، حيث أنهم ظاهرون علينا في كثير من مجالات الحياة، وعدم السلام عليهم قد يجر مفسدة. وتحيتهم بلغتهم أو بتحيتهم أسلم لأنه ليس فيها معنى السلام.

ونخلص من ذلك إلى أن تحية الإسلام تحية من عند الله، باركها وأجزل فها الثواب، وعظم فيها الأجر، وحيَّ بها من اصطفى من الرسل، وجعلها شعارا للمسلمين؛ فهي مفتاح للقلوب، وسبب للتحابب والتآلف، قال رسول الله ﷺ: (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُونَ حَتَّى تَحَابُّوا.أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُم ؟(أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ)[3]. وحرم منها الكافرين الجاحدين لنعمه، المعرضين عن هديه، المبارزين بعداوته، وخص بها المهتدين من خلقه، قال تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾[4].

---

(١) سبقت ترجمته ص: ١٧.

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج: ٢ ص: ٤٢٥.

(٣) صحيح مسلم ج:٢ ص:٣٠ ،(أفشوا السلام) أي أظهروه وعموا به الناس ولا تخصوا المعارف، تحفة الأحوزي ج: ٥ ص: ٤٩٧.

(٤) سورة طه الآية (٤٧).

الفصل الثاني

الإعداد للجهاد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ما يؤخذ بالحسبان قبل أن يلتقي الجمعان.

المبحث الثاني: ما يؤخذ بالحسبان عندما يلتقي الجمعان.

المبحث الأول

ما يؤخذ بالحسبان قبل أن يلتقي الجمعان

فيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: حكم القتال من غير إمام وأرض ينطلق منها.

المطلب الثاني: ما يحرم فيه القتال من المكان والزمان.

المطلب الثالث: مراعاة العهود والمواثيق.

المطلب الرابع: دعوة الكفار إلى الإسلام.

المطلب الخامس: القوة اللازمة.

المطلب الأول: حكم القتال من غير إمام وأرض ينطلق منها:

حكا الله لنا في كتابه العزيز عن بني إسرائيل عندما أرادوا الجهاد في سبيل الله، أنهم طلبوا من نبيهم أن يجعل عليهم ملكا لينضووا تحت رايته، فتجتمع به كلمتهم، ويلجؤون إليه عند الحاجة. وقد قص الله لنا من قصصهم، وسرد لنا من أخبارهم، لنأخذ منها العبر، ونستشف منها الدروس. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]. قال صاحب كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل، وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقائل مقال)[2].

ولا يجوز جهاد الابتداء والطلب بدون أرض ينطلق منها، أو إمام، أو من يفوضه الإمام، اقتداء بالنبي ﷺ. قال رسول الله ﷺ: (مَن أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصاني فقد عَصى اللهَ، ومَن يُطعِ الأميرَ فقد أطاعَني، ومَن يَعصِ الأميرَ فقد عصاني، وإنما الإمامُ جُنَّةٌ يُقاتَلُ مِن وَرائه، ويُتَّقى به. فإن أمرَ بتقوَى الله وعَدَلَ فإنَّ لهُ بذلكَ أجراً، وإن قال بغيرِه فإنَّ عليهِ منه)[3]. قال النووي قوله ﷺ: (الإمام جنة) أي كالستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام، ويتقيه الناس ويخافون سطوته. ومعنى يقاتل من ورائه أي يقاتل معه الكفار

---

(١) سورة البقرة الآية(٢٤٦).

(٢) تفسير الكريم الرحمن للسعدي ج: ١ ص: ١٠٧.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٢٨٩٠).

والبغاة والخوارج، وسائر أهل الفساد، والظلم مطلقاً)[1]. قال ابن قدامة[2]: (أمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك)[3]. قال القرطبي[4]: (ولا تخرج السرايا إلا بإذن الإمام؛ ليكون متجسسا لهم عضدا من ورائهم، وربما احتاجوا إلى درئه)[5].

قال ابن قيم الجوزية: (إنه يندب إلى أشياء: منها أن يؤمر عليهم أميراً؛ لأن النبـــي مَا بَعَثَ جَيْشَاً إلاَّ وَأَمَّر عَلَيْهِمْ أَمِيراً؛ لأن الحاجة إلى الأمير ماسة؛ لأنه لا بد من تنفيذ الأحكام، وسياسة الرعية، ولا يقوم ذلك إلا بالأمير؛ لتعذر الرجوع في كل حادثة إلى الإمام.ومنها: أن يكون الذي يؤمر عليهم عالماً بالحلال والحرام، عدلاً، عارفاً بوجوه السياسات، بصيراً بتدابير الحروب وأسبابها)[6].

و أقول: يتحتم وجود إمام؛ لِما في القتال بغير إمام يلم الشمل، ويجمع الكلمة، من مفاسد عظيمة، وعواقب وخيمة، حتى ولو تحقق النصر، والأمثلة في ذلك كثيرة، وأفغانستان خير شاهد: قد كان المجاهدون تحت رايات عدة، وأئمة شتى، فلما تحقق النصر، واندحر العدو، تفرقوا أيدي سبأ، ولوى بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً، راح ضحيته الشباب، والشيوخ، والنساء، والأطفال، والبهائم، وخربت الديار، وعانى من

---

(١) صحيح مسلم شرح النووي: باب الإمام جنة.

(٢) هو موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر شيخ الإسلام ومصنف المغني وإنام بارع ولد في شعبان سنة ٥٤١هـ وتوفي سنة ٦٢٠هـ. انظر البداية والنهاية لإبن كثير ج: ١٣ ص: ٩٩.

(٣) المغني لابن قدامة على مختصر الخرقي ج: ٨ص: ٢٥٣.

(٤) بقى بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي الحافظ أحد الأعلام وصاحب التفسير والمسند. أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ورحل إلى المشرق و لقي الكبار فسمع بالحجاز أبا مصعب الزهري وإبراهيم بن المنذر الحزامي وبمصر يحيى بن بكير وأبا الطاهر بن السرح وبدمشق هشام بن عمار وببغداد أحمد بن حنبل وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحماني وأبا بكر بـــن أبـــي شـــيبة وخلائق. وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثمانون رجلا ولد في رمضان سنة إحدى ومائتين ومات في جمادى الآخرة سنة ست وسبعين. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج: ص:٤٠.

(٥) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج: ٥ ص :٢٧٥.

(٦) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج: ٧ ص:١٤٧.

بقي منهم البرد والجوع، والأمراض، فضعفوا، وأغتنم الفرصة، عدو أشرس، فقضى عليهم في بضع وعشرين يوماً، لم يستطيعوا الصمود أكثر منها، وعكسوا للعالم أبشع صورة عن المسلمين والنظام الإسلامي.

وأما الأرض التي ينطلق منها؛ فلأن النبي ﷺ لم يقاتل وهو في مكة، ولم يؤمر بقتال فيها، حتى هاجر إلى المدينة، فجعل منها قاعدة تنطلق منها السرايا، وتزحف منها الجيوش، ويصل منها المدد، ويأوي إليها الجنود بعد انتهاء المعارك. ومن هنا يتبين أن ما تقوم به القاعدة من هجمات هنا وهناك، عمل همجي غير مشروع، وخروج سافر عن ولاة الأمر، لا يستند على دليل شرعي، ولا مصلحة عامة، بل هو خلخلة للنظم القائمة على علاتها، وفج لصفوفها ليدخل من ثغراتها اليهود أعداء جميع الرسل والديانات، وأشد الناس عداوة للمؤمنين، فالمصلحة تقتضي بقاء هؤلاء الحكام، والعمل على إصلاحهم بالحكمة، ليس ذلك تأييدا لهم، ولكن لدرء مفسدة اليهود، الذين هم أعظم شرا وفسادا، ولتفويت الفرصة عليهم، تقتضي الحكمة التوحد تحت رايات ولاة الأمر، امتثالا لأمر الله ورسوله، و اقتداء بهارون عليه السلام، عندما أبقى على وحدة بني إسرائيل رغم عبادتهم العجل؛ خوفا من التفرقة والاختلاف. وقال لأخيه مبرراً لموقفه (إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)[1]. وألاّ يُبدؤوا بقتال، ولا يُثَاروا بعداوة، ولا يهيِّجوا على الأمة، لأن في ذلك فساد عظيم، وخطر على مستقبل المسلمين جسيم. وكذلك ما تقوم به الجماعات الإسلامية في المملكة العربية السعودية والجزائر وغير ذلك من بلاد المسلمين، من قتل الأبرياء وتدمير المنشآت وترويع الآمنين عمل إجرامي غير مبرر دينيا.

أما جهاد دفع الصائل المعتدي، فلا يشترط فيه وجود إمام، ولا إذن أحد. فإذا داهم العدو بلدا من بدان المسلمين، وجب على أهل ذلك البلد القتال، وتعين على من قدر على نصرهم من المؤمنين نصرتهم. فلما أغار

---

(١) سورة طه الآية (٩٤).

الكفار على لقاح النبي ﷺ تعرض لهم سلمة ابن الأكوع[1]، فقاتلهم بغير إذن النبي قال أبو سلمة[2]: فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللّه: كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ. وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ (قَالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّه سَهْمَيْنِ: سَهْمُ الْفَارِسِ وَسَهْمُ الرَّاجِلِ. فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعاً. ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّه وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ. رَاجِعِينَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ)[3] وقال ابن تيمية[4]: (أما قتال الدفع: فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين. فواجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لاشيء أوجب بعد الإيمان من دفعه. فلا يشترط له شرط. بل يدفع بحسب الإمكان، وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم. فيجب التفريق بين دفع الصائل الظالم الكافر، وبين طلبه في بلاده)[5].

ومثل هذا ما قام به هذا العالم الجليل، العامل بما علم، يوم أن هجم التتار على بلاد المسلمين، وارتكب مجازر ومفاسد تقشعر من ذكرها

---

(١) سلمة بن عمرو بن الأكوع ويقال سلمة بن وهيب بن الأكوع واسمه سنان بن عبد الله بن قشير وقال بن بشير ويقال بن قيس بن بقظة بن خزيمة بن مالك بن سلامان بن اسلم بن أفصى بن حارثة = بن عمرو بن عامر الأسلمي أبو مسلم ويقال أبو إياس ويقال أبو عامر المدني شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة وبايع رسول الله ﷺثلاث مرات في أول الناس وفي اوسطهم وفي آخرهم وبايعه يومئذ على الموت روى عن النبي ﷺ وعن طلحة بن عبيد الله وأبي بكر عبد الله بن أبي قحافة وعثمان بن عفان تم وعمر بن الخطاب وكان يسكن الربذة وكان شجاعا راميا محسنا خيرا ويقال انه كان يسبق الفرس شدا على قدميه وقيل انه شهد غزوة مؤتة قال يحيى بن بكير وغير واحد مات بالمدينة سنة أربع وسبعين وهو بن ثمانين سنة تهذيب الكمال ج: ١١ ص: ٣٠١.

(٢) أبو سَلَمة بن عبد الأسد المَخْزومي، صاحبُ النَّبيّ ، اسمه: عبد الله. روىٰ عن: النَّبيّ. روى عنه: أمُّ سَلَمة زوج النَّبيّ روى له التِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ وابنُ ماجة. وقد تَقَدَّم في الأسماء. تهذيب الكمال للمري ج : ص: ١٦٣.

(٣) أخرجه مسلم مطولا في كتاب الجهاد والسير رقم: ١٨٠٧.

(٤) هو: أحمد بن عبد الحليم أبو القاسم ابن تيمية، الشيخ الإمام الرباني إمام الأئمة ومفتي الأمة. ولد يوم الاثنين العاشرمن ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ بمدينة حران. وتوفي في العشرين من شوال سنة ٧٢٨ هـ. انظر كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث، لدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار. ج:١ ص: ٢٧و البداية النهاية لابن كثير ج: ١١ ص: ١٤١.

(٥) الاختيارات الفقهية ص. ٥٣٢ من كتاب مهمات في الجهاد ص: (٣٢) للشيخين الفوزان والعبيكان.

الأبدان، وتتقطع القلوب. وعندما سئُل: (ما تقول الفقهاء أئمة الدين: في هؤلاء التتار، الذين قدموا سنة تسع وتسعين وستمائة، وفعلوا ما اشتهر من قتل المسلمين، وسبى بعض الذراري، والنهب لمن وجدوه من المسلمين، وهتكوا حرمات الدين من إذلال المسلمين، وإهانة المساجد، لاسيما «بيت المقدس» وأفسدوا فيه، وأخذوا من أموال المسلمين وأموال بيت المال الحمل العظيم، وأسروا من رجال المسلمين الجم الغفير، وأخرجوهم من أوطانهم، وادعوا مع ذلك التمسك بالشهادتين، وادعوا تحريم قتال مقاتليهم، لما زعموا من اتباع أصل الإسلام، ولكونهم عفوا عن استئصال المسلمين. فهل يجوز قتالهم أو يجب، وأيما كان فمن أي الوجوه جوازه أو وجوبه؟ أفتونا مأجورين. فأجاب: الحمد لله. كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم بعد سابقة مناظرة عمر لأبـــي بكر رضي الله عنهما. فاتفق الصحابة رضي الله عنه على القتال على حقوق الإسلام، عملاً بالكتاب والسنة)[1].

وأبلغ مثال معاصر لذلك دخول الأمريكان إلى بلاد العراق، وتخريبهم الديار، وانتهاكهم الأعراض، وسلبهم الأموال، فلو تركوا بغير مقاومة لحصل منهم ضرر أكبر، وفساد أعظم، ولبادروا بدخول بقية الدول الإسلامية، ولأقنعوا العالم بنجاحهم في العراق، وكسبوا تأييده لتدمير العالم الإسلامي، ولكن المقاومة أفسدت عليهم خططهم، وبعثرت أفكارهم وجعلتهم في دوامة أفقدتهم صوابهم. ولا أراه محقاً من يفتي بالاستسلام لهم؛ بحجة أنهم غلبوا وفي قتالهم مفسدة؛ لأن المقاومة أثبتت قدرتها على إرهاق العدو، وتكبيده الخسائر الفادحة، أكثر من الجيوش المنظمة التي تعرف أماكن وجودها، وتجمعاتها؛ فيسهل تدميرها. فقد هزمت جيوش

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج: ٢٨ ص: ٤٦٨.

النظام العراقي في أقل من شهر، ولكن المقاومة لم تنهزم، بل تزداد ضراوة ويزداد معها العدو يأساً في تحقيق مآربه، وحالت بينه وبين ما يشتهي، ولكن تفتقر إلى تنظيم ودقة لتجنب المسلمين والأبرياء، ومن لا شأن لهم في القتال.

المطلب الثاني: ما يحرم فيه القتال من المكان والزمان:

قال الله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[1]. فقد حرم الله القتال في المسجد الحرام وهو مَكَّةُ: بيت الله الحرام قال النسفي[2]: (وإن كان ظاهر قوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم يبيح القتل في الأمكنة كلها، لكن لقوله ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه خص الحرم إلا عند البداءة منهم)[3]. وقال صاحب تفسير روح المعاني: ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾. نفي للحرج عن القتال في الحرم الذي خاف منه المسلمون وكرهوه، أي إن قاتلوكم هناك فلا تبالوا بقتالهم؛ لأنهم الذين هتكوا الحرمة، وأنتم في قتالهم دافعون القتل عن أنفسكم)[4]. وقد ذكر ابن الجوزي[5] اختلاف المفسرين في الآية فقال: (واختلف العلماء في قوله: ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾، هل هو منسوخ أم لا ؟ فذهب

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩١).

(٢) الحافظ عبد العزيز بن محمد بن محمد بن عاصم بن رمضان بن علي بن أفلح أبو محمد بن أبي جعفر بن أبي بكر النسفي النخشبي العاصمي. أحد الأئمة. مات سنة ٥٤٦ . انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج: ٥ ص: ٢٧٦.

(٣) تفسير النسفي ج :١ ص: ٩٤.

(٤) تفسير الألوسي ج : ٢ ص: ٧٥.

(٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله البكري. من ولد الإمام أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه. الإمام أبو الفرج، ابن الجوزي، البغدادي الحنبلى الواعظ. صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم من التفسير والحديث والفقه والوعظ والزهد والتاريخ وغير ذلك. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ ص:٦١.

مجاهد في جماعة من الفقهاء إلى أنه محكم، وأنه لا يقاتل فيه إلا من قاتل، ويدل على ذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، أنه خطب يوم فتح مكة، فقال: يا أيها الناس: إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي. وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم عادت حراما إلى يوم القيامة. فبين ﷺ، أنه خص في تلك الساعة بالإباحة على سبيل التخصيص، لا على وجه النسخ فثبت بذلك خطر القتال في الحرم، إلا أن يقاتلوا فيدفعون دفعا، وهذا أمر مستمر، والحكم غير منسوخ، وقد ذهب قتادة إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1]. فأمر بقتالهم في الحل والحرم وعلى كل حال. وذهب الربيع ابن أنس[2]، وابن زيد[3]، إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وزعم مقاتل أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾. والقول الأول أصح)[4].

ولعلّ القول الأول هو الأصح، ولا يصح القول بالنسخ، فلا يعقل أن ينسخ أول الآية آخرها بل الصحيح أن ينسخ آخرُها أولها إن كان من نسخ، إلا إذا ثبت أن آخرها نزل قبل أولها، وهذا لم يقل به أحد، هذا لمن قال أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾. وأما من قال أنها منسوخة بآية التوبة: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، احتجوا بوقت نزول الآيتين، فقالوا سورة براءة نزلت بعد سورة البقرة بسنتين. وأما الشافعية

---

(١) سورة التوبة الآية (٥).

(٢) الرَبِيْعُ بنُ أنَس البَكْري، ويُقالُ: الحَنَفي، البَصْري ثُمّ الْخراسَاني.روىٰ عن: أنَس بن مالك والحَسَن البَصْريّ، ورُفَيْع أبي العالية الرّياحيّ ، وجَدّيه وَهما زياد وزَيْد، وصَفْوان بن مُحْرِز. انظر تهذيب الكمال ج : ٥ ص:٣٣٢.

(٣) حَمَّادُ بنُ زَيْدِ بنِ درْهَم الأزْدي، الجَهْضَمي، أبُو إسْمَاعِيْلَ البَصْريُّ الأزْرَق مَوْلَى آل جَرِيْرِ بنِ حَازِم وكَانَ جَدُّه درْهَمْ من سَبْي سجِسْتَان.قال أبو حاتم بن حبَّان، وأبو بكْر بن مَنْجويه: كان ضَريراً، وكان يَحْفَظ حديثَه كُلَّه تهذيب الكمال ج:٤ ص: ٣٧٥.

(٤) تفسيرزاد المسير لابن الجوزي ج: ١ص:١٨٠

فيقولون: (إن الخاص سواء كان متقدماً على العام أو متأخراً عنه، مخصص له لكون العام عندهم ظنياً، والظني لا يعارض القطعي)[1]. قال بن العربي[2]: (حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ: هذا عام في كل موضع، وقد قال أبو حنيفة[3]: إنه يخص منها المسجد الحرام بقوله في البقرة: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[4].

يتبين مما سبق أن الخلاف حاد، وحجج الطرفين قوية، إلا أن تحريم القتال في المسجد الحرام أرجح من إباحته، وأن القتال بمكة محرم، ولا يجوز إلا إذا ابتدأ الكفار القتال فيه، لذكره باللفظ الخاص في الآية، وذكره في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، بأنه حرام إلى يوم القيامة. عن ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ عنهما قال: (قال رسولُ اللهِ ﷺ يومَ فتح مكة: لا هجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيَّة، وإذا استُنفرتم فانفِروا. وقال يومَ فَتح مكةَ: إنَّ هذا البلدَ حَرَّمَهُ اللهُ يومَ خلقَ السَّماواتِ والأرض، فهوَ حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يوم القيامة، وإنه لم يَحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قَبلي، ولم يَحلَّ لي إلاّ ساعةً من نهار، فهو حرام بحُرمةِ اللهِ إلى يوم القيامة)[5]. وفي رواية أخرى للبخاري: (فإنْ أحدٌ تَرَخَّصَ لقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ فقولوا له: إنَّ اللهَ أذِنَ لرسولِهِ ﷺ ولم يأذَنْ لكم، وإنَّما أذِنَ لي ساعةً مِن نهارٍ، وقد عادَتْ حُرْمَتُها اليومَ كحُرمتِها بالأمس، ولْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ.)[6]. ولا يخفى على أحد بعض جوانب الحكمة في تحريم القتال بها، حيث أنها مأوى حجاج بيت الله العتيق، وفيهم الضعيف والكبير والعاجز. وجعلُها ميداناً للقتال فيه زعزعة لأمنهم،

---

(١) تفسير الألوسي ج : ٢ ص:١٠٧.

(٢) سبقت ترجمته ص: ٢٧.

(٣) أبو حَنيفة الكُوفي الفقيه، اسمه: النّعمان بن ثابت، مشهور باسمه وكنيته. روىٰ عن: عَطاء بن أبي رَبَاح وغيرِه.روىٰ عنه: عبد الحَميد بن عبد الرّحمٰن الحِمّانيّ وغيرُه.روى له التّرمذي.تهذيب الكمال للكزي ج :٢١ ص:١٠٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ج : ٢ص: ٤٥٦.

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٣١١٦) صحيح مسلم ج: ٩ ص: ١٠٤.

(٦) صحيح البخاري حديث رقم: (١٠٤).

واستقرارهم، وربما أدى ذلك إلى تعطيل شعيرة الحج، التي هي الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن تحريم القتال بها نوع من العبادة كتحريم الصيد على المحرم.

وأما من حيث الزمان، فقد حرم الله عزّ وجل القتال في الأشهر الحرم فقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. والأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب. وقد اختلف العلماء في بقاء هذا الحكم ونسخه:

فقال قوم: (كان كبيرا ثم نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة. كأنه يقول فيهن وفي غيرهن، وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري[2]، وسفيان الثوري[3]، وقالوا إن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين، وثقيفاً بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة)[4]. وعن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال: (أحلت القتال في الأشهر الحرم: براءة من الله ورسوله). وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رياح[5] ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيها وما نسخت)[6]. وقال ابن كثير: (وفي صحيح البخاري عن أبي

---

(١) سورة التوبة الآية (٥).

(٢) هو: محمد بن شهاب الزهري القرشي الفقيه الحافظ. متفق على جلالته وإتقانه، انظر تقريب التهذيب لابن حجر ج:٢ ص:٢٠٧.

(٣) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري . روى عن أبيه و أبي إسحاق وغيرهم. قال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم وغير واحد سفيان أمير المؤمنين في الحديث. انظر تهذيب التهذيب لابن حجر. ص: ٩٩.

(٤) تفسير البغوي ج: ٢ ص:٢٩٠.

(٥) عَطَاءُ بنُ أبي رَبَاح، واسْمُه أسْلَم القُرَشِي الفِهْرِي، أبو مُحَمَّد المَكّي مَوْلَىٰ آل أبي خُثَيْم، عَامِلُ عُمَرَ بن الخَطَّاب على مَكَّة، مَوْلَىٰ بَنِي جُمَح. ولد في خلافة عثمان بن عفان، ويقال: إنَّه من مُوَلَّدي الجَنَد ونشأ بمكة. تهذيب الكمال للمزي ج :١٢ ص:١٩٠.

(٦) الكشاف للزمخشري ج: ٢ ص: ٢٥٧.

بكرة[1] أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، مضر، الذي بين جمادى وشعبان). وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف. وقال علي بن أبي طلحة عن بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ ولاالشهرالحرام﴾. يعني لا تستحلوا القتال فيه. واختاره بن جرير أيضا)[2].

وجاء في تفسير الجلالين: (فإذا انسلخ خرج الأشهر الحرم وهي أخر مدة التأجيل فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم في حل أو حرم وخذوهم بالأسر واحصروهم في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام)[3].

وما يظهر لي في تفسير هذه الآية، والله أعلم، أنها أمرت بقتال المشركين بعد أن تنقضي الأشهر الحرم، صيانة لها من القتل، وأن القتال فيها باق على حرمته. ولا يظهر فيها ما يبيح القتال، ومن قال أن المقصود بالأشهر الأربعة الأشهر التي بقيت من العهد، فإذا انقضت فقد أبيح قتال المشركين في أي مكان وزمان، بما في ذلك الأشهر الحرم، لعل هذا والله أعلم، لا يعني إطلاق القتال في كل أشهر السنة فلابد من التوقف عند الأشهر الحرم، التي جاء فيها تحريم القتال بنص خاص وصريح، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

---

(١) نفيع بن الحارث ويقال بن مسروح وبه جزم بن سعد وأخرج أبو أحمد من طريق أبي عثمان النهدي عن أبي بكر أنه قال أنا مولى رسول الله ﷺ فإن أبى الناس إلا أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسروح وقيل اسمه مسروح وبه جزم بن إسحاق مشهور بكنيته وكان من فضلاء الصحابة وسكن البصرة وأنجب أولادا لهم شهرة وكان تدلى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة فاشتهر بأبي بكرة وروى عن النبي ﷺ روى عنه أولاده.انظر الإصابة في تمييز الصحابة . رقم(٨٧٩٩)

(٢) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٥.

(٣) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٢٤٠.

مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1]. حتى ولو كان هذا التحريم متقدماً في وقت نزوله، كمثل الصحابة الذين أمرهم النبي ﷺ بطاعة أمير أمَّره عليهم، فلم يأخذوا هذا الأمر على إطلاقه، بل توقفوا عندما أمرهم الأمير بإلقاء أنفسهم في النار، فأقرهم النبي ﷺ على عدم طاعتهم أمره المطلق، وعلمهم أن يرجعوا إلى الخاص، وهو عدم الطاعة في المعصية، وهذا الحكم الخاص الذي هو منع الطاعة في المعصية، سابق لأمر النبي ﷺ لهم بطاعة أميرهم. عن علي كرم الله وجهه قال: (بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهمّ القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: (لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف)[2].

المطلب الثالث: مراعاة المواثيق والعهود:

المواثيق والعهود من الأمور التي اهتم بها الإسلام، وأجزل الثواب على الوفاء بها، وجعلها من صفات المتقين، وأعد العقاب على خيانتها وعدها من صفات المنافقين. قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٦).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم: (٦٩٨٧).

الْمُتَّقِينَ﴾[1]. يستنكر الله تعالى أن يكون للمشركين عهد يؤمنهم عند الله وعند رسوله، ويأمر بإتمام العهود التي كانت معهم ما داموا محافظين عليها، ومنهم أولئك الذين عاهدوا الرسول ﷺ عند المسجد الحرام، قال صاحب التفسير الكبير قيل: (إنهم بنو كنانة وبنو ضمرة)[2].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3]. أمر الله نبيه في هذه الآية أن يكمل مدة العهد لمن عاهده من المشركين الذين حافظوا على عهودهم كاملة، ولم ينقصوا من بنودها شيئاً، ولم يتآمروا مع أحد من أعداء المؤمنين، وأن الحفاظ على العهد من التقوى التي يحب الله من اتصف بها.

قال الرازي[4]: {لا يجوز أن ينقض العهد إلا على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يظهر له منهم خيانة مستورة ويخاف ضررهم، فينبذ العهد إليهم حتى يستووا في معرفة نقض العهد لقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[5] وقال أيضا: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[6].

---

(١) سورة التوبة الآية (٧).

(٢) التفسير الكبير للرازي ج :١٥ص: ١٨٣.

(٣) سورة التوبة الآية (٤).

(٤) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي بن الإمام، فخر الدين الرازي القرشي البكري من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الشافعي المفسر المتكلم ، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة واشتغل على والده ، وكان من تلامذة ، محيى السنة البغوي قال ابن خلكان فيه فريد عصره ونسيج وحدة شهرته تغني عن استقصاء فضائله وتصانيفه في علم الكلام والمعقولات سائرة وله التفسير الكبير والمحصول في أصول الفقه وشرح الأسماء الحسنى وشرح المفصل للزمخشري وشرح وجيز الغزالي شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري و وله إعجاز القرآن ومناقب الشافعي وغير ذلك. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج:١ص: ١١٥.

(٥) سورة الأنفال الآية (٥٨).

(٦) سورة الأنفال الآية (٥٦).

والثاني: أن يكون قد شرط لبعضهم في وقت العهد أن يقرهم على العهد فيما ذكر من المدة، إلى أن يأمر الله تعالى بقطعه، فلما أمره الله تعالى بقطع العهد بينهم قطع لأجل الشرط.

الثالث: أن يكون مؤجلا، فتنقضي المدة وينقضي العهد، ويكون الغرض من إظهار هذه البراءة أن يظهر لهم أنه لا يعود إلى العهد، وأنه على عزم المحاربة والمقاتلة، فأما فيما وراء هذه الأحوال الثلاثة فلا يجوز نقض العهد البتة؛ لأنه يجري مجرى الغدر وخلف القول، والله ورسوله منه بريئان، ولهذا المعنى قال الله تعالى: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا﴾ }[1].

المطلب الرابع: دعوة الكفار إلى الإسلام:

إن الهدف من الجهاد هو إعلاء كلمة الله، وإزالة الفتن الصادَّة عن الإيمان به. قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

جاء في التفسير الكبير: (أما قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ﴾ فهذا يدل على حمل الفتنة على الشرك؛ لأنه ليس بين الشرك وبين أن يكون الدين كله لله واسطة. والمراد منه: أن يكون تعالى هو المعبود المطاع دون سائر ما يعبد ويطاع غيره؛ فصار التقدير كأنه تعالى قال وقاتلوهم حتى يزول الكفر ويثبت الإسلام، وحتى يزول ما يؤدي إلى العقاب)[3].

ولما كان الهدف الأسمى من القتال في سبيل الله هو إزالة الشرك والطواغيت، والآلهة الكاذبة المزعومة، وإحلال الإيمان مكانها، وجعل العبادة خالصة لله وحده؛ فيجب تقديم الدعوة عليه. وقد أوصى النبي ﷺ

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج : ١٥ ص: ١٧٤.

(٢) سورة الأنفال الآية (٣٩).

(٣) التفسير الكبير للرازي ج : ٥ ص: ١١٣.

علياً عندما أعطاه الراية لقتال يهود خيبر أن يدعوهم إلى الإسلام أولا. عن سهلِ بن سعد[1] رضيَ الله عنه أنه: (سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ يومَ خَيبرَ: لأعطينَّ الرايةَ رجُلاً يفتَحُ الله على يدَيه، فقاموا يرْجون لِذلك أيّهم يُعطى، فغدَوا وكلُّهم يَرجو أن يُعطى، فقال: أينَ عليٌّ؟ فقيل: يَشتكي عَينَيه، فأمرَ فدُعيَ لهُ فبَصَقَ في عينيه فبَرَأ مكانهُ حتّى كأنهُ لم يكن بهِ شيءٌ، فقال: نُقاتِلهم حتى يكونوا مِثلَنا. فقال: على رِسْلِكَ حتّى تَنزِلَ بساحتهم، ثمَّ ادعُهُم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يَجبُ عليهم، فو الله لأَنْ يُهدَى بكَ رجُلاً واحداً خيرٌ لكَ من حُمُرِ النَّعَم)[2]. وعن عقبة بن نافع[3]عن ربيعة[4] أنه قال: (إن كان عدوّ ولم تبلغه الدعوة ولا أمر النبوة؛ فإنهم يدعون ويعرض عليهم الإسلام، وتسير إليهم الأمثال، وتضرب لهم العِبَر، ويتلى عليهم القرآن، حتى إذا بلغ العذر في دعائهم وأبوا؛ طلبت عورتهم والتمست غفلتهم، وكان الدعاء فيمن أعذر إليهم في ذلك بعد الأعذار تحذيراً لهم. قال: سحنون بن سعيد قلت لعبد الرحمن بن القاسم أكان مالك[5] يأمر بالدعوة قبل القتال؟ قال: نعم كان يقول لا أرى أن يقاتل المشركون حتى يدعوا قلت: ولا يبيتون حتى يدعوا قال نعم قلت: وسواء إن غزوناهم نحن أو أقبلوا هم إلينا غزاة فدخلوا بلادنا لا نقاتلهم في قول مالك حتى ندعوهم)[6].

---

(١) سهل بن سعد بن مالك الساعدي كان اسمه حزن فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلا كنيته أبو العباس مات بالمدينة سنة إحدى وتسعين وقد قيل سنة ثمان وثمانين وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة. انظر مشاهير الأمصار ج :١ ص: ٢٥.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم: (٢٨٧٥).

(٣) عقبة بن نافع بن عبد القيس بن فهر القرشي ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه. قتل هو وأصحابه وذلك سنة ثلاث وستين قتلهم البرابرة بمصر. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر. رقم ٦٢٦٠.

(٤) رَبِيْعَةُ بنُ أبي عَبْدِ الرَّحْمَان، واسْمُهُ فَرّوْخ، القُرَشِي التَّيْمِي أبُو عُثْمَان، ويُقال: أبُو عَبْد الرَّحْمَانِ المَدَنِي المَعْرُوْفُ بـ رَبِيْعَةَ الرَّأي، مَوْلَى آلِ المُنْكَدِر .روىٰ عن: إسماعيل بن عَمْرو بن قَيْس بن سَعْد بن عُبادة، وأنَس بن مالك. انظر تهذيب الكمال ج :٥ ص: ٣٧١.

(٥) مَالِكُ بنُ أَنَسِ بنِ مَالِكِ بنِ أبي عَامِرِ بنِ عَمْرِو بنِ الحَارِثِ إمَامُ دارِ الهِجْرَةِ. انظر تهذيب الكمال ج: ١٧ ص: ٩.

(٦) المدونة الكبرى لسحنون ج :٢ ص: ٣.

المطلب الخامس: القوة اللازمة:

القوة من أسباب تحقيق النصر؛ لذالك أمر الله بإعدادها والاهتمام بها. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1]. قال صاحب التفسير الكبير في تفسير هذه الآية: (اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يشرد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض، أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار. قيل إنه لما اتفق أصحاب النبي ﷺ في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة، أمرهم الله ألاّ يعودوا لمثله، وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة، والمراد بالقوة هاهنا ما يكون سببا لحصول القوة وذكروا فيه وجوها:

الأول: المراد من القوة أنواع الأسلحة.

الثاني: روي أنه ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر وقال: ألا إن القوة الرمي قالها ثلاثا:

الثالث: قال بعضهم: القوة هي الحصون.

الرابع: قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة. وقوله عليه الصلاة والسلام القوة هي الرمي لا ينفي كون غير الرمي معتبرا. كما أن قوله عليه الصلاة والسلام: الحج عرفة، والندم توبة، لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود، فكذا هاهنا. وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة إلا أنه من فروض الكفايات)[2]. ثم قال: (إنه تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وذلك

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٢) التفسير الكبير للرازي ج:١٥ ص: ١٤٨.

أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له، مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم)[1].

ثم قال أيضا: (أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم كونهم أعداء، كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء. ثم فيه وجوه:

القول الأول: وهو الأصح أنهم هم المنافقون. والمعنى أن تكثير أسباب الغزو كما يوجب رهبة الكفار فكذلك يوجب رهبة المنافقين. فإن قيل المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكرتموه الإرهاب؟ قلنا هذا الإرهاب من وجهين:

الوجه الأول: أنهم إذا شاهدوا قوة المسلمين، وكثرة آلاتهم وأدواتهم انقطع عنهم طمعهم من أن يصيروا مغلوبين. وذلك يحملهم على أن يتركوا الكفر في قلوبهم وبواطنهم ويصيروا مخلصين في الإيمان.

الوجه الثاني: أن المنافق من عادته أن يتربص ظهور الآفات، ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق فيما بين المسلمين، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة خافهم وترك هذه الأفعال المذمومة)[2].

القول الثاني في هذا الباب: ما رواه ابن جريج عن سليمان بن موسى قال المراد كفار الجن. روي أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ فقال: إنهم الجن ثم قال: إن الشيطان لا يخبل أحدا في دار فيها فرس عتيق. وقال الحسن: صهيل الفرس يرهب الجن. وهذا القول مشكل لأن تكثير آلات الجهاد لا يعقل تأثيره في إرهاب الجن.

والقول الثالث: أن المسلم كما يعاديه الكافر فكذلك قد يعاديه المسلم أيضا فإذا كان قوي الحال كثير السلاح فكما يخافه أعداؤه من الكفار فكذلك يخافه كل من يعاديه مسلما كان أو كافرا[3].

---

(١) المصدر السابق ج:١٥ ص:١٤٩.

(٢) المصدر السابق ج:١٥ ص:١٤٩.

(٣) التفسير الكبير للرازي ج:١٥ ص:١٤٩.

أقول: ولعلّ ما ذهب إليه الرازي يصحح خطأ كثير من الناس في تفسير هذه الآية، حيث أنهم يعتقدون أن القوة المقصودة فيها هي أي قوة ولو كانت هزيلة أمام قوة عظيمة؛ حتى ولو كانت خناجر وسيوفاً وسكاكين أمام رشاشات ودبابات وصواريخ وطائرات لا ترى حتى بالرادارات؛ وهذا خطأ فادح وإلقاء للنفس في التهلكة، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]. ويفهم من قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، أن القوة التي أمر الله بها لابد أن تكون أعظم من قوة العدو، أو على الأقل تساويها حتى يتحقق بها إرهاب العدو الذي ذكره الله سبباً لإعداد هذه القوة، فلو كانت القوة أضعف من قوة العدو لا يتم إرهابه وإخافته بل يكون في ذلك إغراء للعدو، ودعوة له للفتك بالمسلمين. فالقوة إذاً شرط لازم لتحقيق النصر؛ ولا مجال للضعف في المعارك أمام العدو وهذه حقيقة من المسلمات التي لا تحتاج براهين. والشواهد على ذلك كثيرة في صفحات التاريخ قديماً وحديثاً، و حركة طالبان أبلغ شاهد، فقد أعدوا ما استطاعوا من قوة فحفروا الخنادق، وأقاموا السواتر، وجمعوا ما قدروا عليه من أسلحة وذخائر، ولكنهم هزموا في أيامٍ قلائل؛ لأن قوتهم لم تكن كافية أمام قوة عدوهم، وذلك باعتراف كبار قادتهم. فإن قيل ألم يقل الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] ؟! ولعلَّ هذا خطأ آخر في آية أخرى. إن التعبير القرآني دقيق جداً فلا يؤخذ بسطحية دون تدبر وإمعان، كيف لا وهو من عند الله العليم الحكيم. إن الله تعالى قال قليلة ولم يقل ضعيفة، فلا مجال للضعف في ساحات المعارك، كما أسلفت. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، فقد بين الله أن سبب استضعاف الناس للمؤمنين هو قلتهم وليس ضعفهم، فالقلة سبب في الهزيمة وليس ذلك دائما، كما أن الشواهد على انتصار الفئات القليلة على الكثيرة كثيرة قديما وحديثا، ولكن هذه الفئة القليلة ليست ضعيفة، بل أقوى من مثل عددها من الفئة الكثيرة، أو على الأقل تساويها في القوة، وتزيد عليها في الإيمان، و الصبر، وإرادة الله وقوته فوق كل قوة. إذا نتائج المعركة من حيث الانتصار والهزيمة ليست وليدة القلة أو الكثرة فالجمع الكثير ينهزم كما انهزم المسلمون يوم أحد ويوم حنين، وقد ينتصرون أيضا، والقليل أيضا ينهزم كما انهزم المسلمون يوم مؤتة، وقد ينتصرن أيضا كما انتصر المسلمون في معارك كثيرة. ولكنها وليدة القوة التي قد تكون مع الكثرة أو مع القلة، وقد تكون هذه القوة من عند الله وحده كقوة الريح يوم الأحزاب والتي أهلك الله بها عادا، والطوفان الذي أغرق الله بها قوم نوح، والملائكة التي قوى الله بها المؤمنين وكثرهم يوم بدر، أو بصنع الإنسان بهداية الله له، كقوة الطائرات والصواريخ والقنابل وغير ذلك. فإن قيل ألم يقل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[2]. لنستعرض أولا سبب نزول هذه الآية، جاء في التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي: (لما خرج رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد بعد أحد. بلغ ذلك أبا سفيان فمر عليه ركب من عبد القيس يريدون المدينة بالميرة[3]. فجعل لهم حمل بعير من زبيب على أن يثبطوا المسلمين عن إتباع المشركين. فخوفوهم بهم. فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فخرجوا وقيل نادى أبو سفيان يوم أحد: موعدنا ببدر في القابل. فقال رسول الله ﷺ: إن شاء الله. فلما كان العام القابل خرج رسول الله ﷺ إلى بدر للميعاد فأرسل

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٦).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٧).

(٣) الميرة طعام يمتاره الإنسان لأهله. التعاريف للمناوي ج١: ص:٦٨٨.

أبو سفيان نعيم ابن مسعود الأشجعي ليثبط المسلمين)[1]. واضح أن الجمع كان في العدد ولم يكن في القوة، وذلك لأن العرب كانت أسلحتهم متشابهة وهي السيوف والحراب والسهام وغيرها وحتى لو كان في القوة، فإن الله وحده هو الذي هزمهم وثبطهم، وقدرة الله فوق كل قدرة وهذا لا خلاف عليه، ولكن حسب سنن الله المعتادة لا مجال للضعيف أمام القوي.

ثانيا: جاء البدء من جهة العدو وأن الله امتدح حسن توكلهم عليه ولم يقل أنهم انتصروا على عدوهم؛ بل صرف الله عنهم القتال ثوابا من عنده لأجل إيمانهم وتوكلهم عليه. فليس إذا في هذه الآية ما يبرر دخول المعركة بقوة غير متكافئة. أو انتظار الكرامات وخوارق العادات التي افتتن بها كثير من الناس، ونسوا أن هذا الدين يتحقق بجهود المؤمنين بقدر طاقتهم وإمكاناتهم ولا يكلف الله نفسا فوق طاقتها. قد يقول قائل إنما نقاتل أعداءنا بهذا الدين ولا نقاتلهم بالعدد والقوة، مرددا قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يوم مؤتة، وقد كانت المعركة غير متكافئة من حيث العدد والقوة، (عن أبي هريرة قال: شهدت مؤتة فلما دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب؛ فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعا كثيرة، قلت: نعم قال إنك لم تشهد بدرا معنا، إنا لم ننصر بالكثرة)[2]. و لعل الرد على ذلك يأتي من الواقعة نفسها، فقد انهزم المؤمنون في تلك المعركة وانسحب بهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد أن قتل قادتهم الذين عينهم رسول الله ﷺ ، فهل كان ينقصهم الإيمان! هل كان ينقصهم الدين! كلا، بل كانت ينقصهم العدد والقوة، وقد سمى رسول الله ﷺ انسحابهم فتحاً. عن أنسٍ رضيَ الله عنه (أنَّ النبيّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابنَ رَواحةَ للناس قبلَ أن يأتيَهم خبرُهم فقال: أخذ الرايةَ زيدٌ فأصيب ثمَّ أخذَ جعفرٌ فأصيب، ثم أخذَ ابن رَواحة فأصيب ــ وعيناهُ تَذرِفانِ، حتى أخذ الرايةَ سيفٌ من سيوفِ الله حتى فتحَ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج: ١ ص: ١٢٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج: ٤ ص: ٢٤٣

اللّهُ عليهم)[1]. ولم يعزو ذلك لذنب ارتكبوه ولا لنقص في إيمانهم. قال صاحب كتاب «هذا الدين»: (إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، يبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة. وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة في أية لحظة وفي أية خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته وواقع حياته المادي أيضاً وأنه في الوقت ذاته يبلغ به كما تحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات وكما يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة إلى ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق وفي يسر وراحة وطمأنينة واعتدال. ولكن الخطأ كله كما تقدم ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه. تلك الخوارق التي تبدل فطرة الإنسان ولا تبالي طاقاته المحدودة ولا تحفل واقعه المادي البيئي. أليس هو من عند الله؟ ألـيس الله قادرا على كل شيء؟ فلماذا يعمل هذا الدين فقط في حدود الطاقة البشرية المحدودة وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشري؟ ثم لماذا لا ينتصر دائما ولا ينتصر أصحابه دائما؟ لماذا تغلب ثقلة الضعف والشهوات والواقع المادي على رفرفته وشفافيته وانطلاقه أحياناً؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه وهم أهل الحق أحياناً؟ وكلها كما ترى أسئلة وشبهات تنبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته أو من نسيانها. الله قادر طبعاً على تبديل فطرة الإنسان عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه ولكنه سبحانه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها وشاء أن يجعل الهدى ثمرة الجهد والرغبة في الهدى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤١٦٣)

سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[2]. ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾[3]. وهذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام في صورته النهائية كما جاء بها محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس بمجرد تنزله من الله، (لا يتحقق بكلمة كن الإلهية) مباشرة لحظة تنزله ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب. إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر تؤمن به إيمانا كاملا وتستقيم عليه بقدر طاقتها ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته حتى نضف إلى تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان، تكملة ضرورية لها لا بد من بيانها كذلك: إن كون هذا المنهج الإلهي متروك تحقيقه للجهد البشري في حدود الطاقة البشرية وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في شتى المدارج وشتى البيئات لا يعني استغلال الإنسان نهائيا بهذا الأمر وانقطاعه عن قدر الله وتدبيره ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره فتصور الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلامي ولقد بينا في ما سلف أن الله سبحانه يساعد من يجاهد للهدى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4]. وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[5]. وهذان النصان يبينان لنا العلاقة بين الجهد البشري الذي يبذله الناس وعون

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

(٢) سورة الرعد الآية (١١).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥١).

(٤) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

(٥) سورة الرعد الآية (١١).

الله ومدده الذي يسعفهم به فيبلغون به ما يجاهدون فيه من الخير والهـدى والصلاح والفلاح فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية وبدونها لا يبلغ الإنسان بذاته شيئاً ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها ويستمد عونها ويجاهد في الله ليبلغ رضاه)[1].

فائدة: قد روي عن الرسول صلى الله عليه أنه قال في معنى القوة المذكورة الآية أنها الرمي قال الشوكاني[2]:

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي قالها ثلاث)[3]. وفي هذا دلالة من دلالات النبوة؛ إذ أن القوة مازالت الرمي وستظل كذلك، وما هزمت الجموع في أفغانستان والعراق من قلة؛ بل هزمت بسبب الرمي المركز المدروس من الطائرات وقاذفات الصواريخ وأفواه الدبابات والمدافع.

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص: ٣-١٣من كتاب أهمية الجهاد للدكتور على ابن نفيع العليـاني ص : ٢٥٦ – ٢٦.

(٢) محمد بن على بن محمد، الشوكاني من كبار علماء اليمن ، من كتبه : فتح القدير في التفـسير ونيل الأوطار والبدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع ، توفي سنة ١٢٥٠هـ . انظر الأعـلام للزركشي ج: ٦ ص: ٢٨٩.

(٣) انظر فتح القدير الشوكاني ج : ٢ ص:٢٣٠.

المبحث الثاني

ما يؤخذ في الحسبان عندما يلتقي الجمعان

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: إخلاص النية وعدم التنازع.

المطلب الثاني: الصبر والثبات وكثرة الذكر لله تعالى.

المطلب الثالث: التحريض على القتال.

المطلب الرابع: التحذير من الفرار وبيان عاقبته

المطلب الخامس: التحذير من الغلول وبيان عاقبته

المطلب الأول: إخلاص النية وعدم التنازع:

إن إخلاص النية لله تعالى أمر مهم جدا في رفع الروح المعنوية وتقوية العزيمة القتالية، كما أن إرادة الدنيا سبب في جلب الهزيمة النفسية وضعضعة الروح المعنوية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

يقول الله تعالى للمسلمين: لقد مكنتكم من عدوكم كما وعدتكم، وأخذتم تقتلونهم قتلا شديدا، ثم جلبتم الهزيمة لأنفسكم بسبب فشلكم، واختلافكم، وتنازعكم في أملاكم، وعصيانكم أمر نبيكم، بعد أن رأيتم النصر الذي تحبونه، ولم تكونوا في نياتكم سواء، بل كانت نياتكم متباينة، منكم من يريد متاع الدنيا ومنكم من يريد ثواب الآخرة، ثم كفكم عنهم. قال صاحب أحكام القرآن: {وقد كان المسلمون من الصدر الأول إنما يقاتلون المشركين بالدين، ويرجون النصر عليهم وغلبتهم به لا بكثرة العدد ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2]. فأخبر أن هزيمتهم إنما كانت لتركهم أمر رسول الله ﷺ في الإخلال بمراكزهم التي رتبوا فيها. وقال تعالى: ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾. وإنما أتوا من قبل من كان يريد الدنيا منهم، قال عبد الله بن مسعود: ما ظننت أن أحدا ممن قاتل مع النبي ﷺ يريد الدنيا حتى أنزل الله تعالى: ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ وعلى هذا المعنى كان الله تعلى قد فرض على العشرين أن لا يفروا من مائتين بقوله

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٢).

(٢) السورة السابقة الآية (١٥٥).

تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ﴾[1]. لأنه في ابتداء الإسلام كانوا مع النبي ﷺ مخلصين لنية الجهاد لله تعالى، ولم يكن فيهم من يريد الدنيا}[2].

نخلص من ذلك إلى أنهم رضي الله عنهم أخلوا بأسباب النصر التالية:

- – الإخلال بتنظيم المعركة، وكشف ثغرة للعدو، وتمكين عدوهم من ظهورهم. وبذلك قد أخلوا بسبب حسي مهم من أسباب النصر، وأتوا بسبب عظيم من أسباب جلب الهزيمة.
- – القوة المعنوية. فقد حصل لهم ضعف معنوي نتج عن التنازع وحب الدنيا.
- –عصيان أمر النبي ﷺ وهو القائد المنظم للمعركة، وطاعته من طاعة الله تعالى، وعصيانه عصيان لله عز وجل. وعصيان الله سبب للهلاك سواء كان ذلك الهلاك بيد الأعداء كما هو يوم أحد، أو بجند من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو. وعصيان الله تعالى سبب كافٍ لحصول الهلاك في الدنيا والهزيمة في المعارك، ولكن الله تعالى لم يجعله سببا دائما وثابتا تعلق عليه كل هزيمة، فلو كان سببا دائما لما انتصر مشرك أو كافر على مسلم قط؛ ولما قتل نبي أو ولي صالح قط، فليس بعد الشرك معصية ولا ذنب. وليس سببا دائما لهزيمة المسلمين خاصة، فقد انهزموا في معارك كثيرة ولم يكونوا عاصين لله تعالى، كما حصل يوم معركة مؤتة نفسها التي قال فيها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه هذه المقولة: (إنما نقاتل أعداءنا بهذا الدين ولا نقاتلهم بالعدد والقوة)، حيث اضطروا إلى الانسحاب أمام قوة عدوهم. ولا يشك أحد أنهم كانوا صفوة الأمة

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٥).

(٢) أحكام القرآن للجصاص ج:٢ ص:٧.

ومن خيرة الصحابة، ولم يغلبوا من ذنب فعلوه ولا جرم ارتكبوه. كما سبق بيان ذلك في صفحة ستين.

المطلب الثاني: الصبر والثبات وكثرة الذكر لله تعالى:

لاشك أن الصبر عامل مهم لتحقيق النصر، وعدم الثبات في أرض المعركة يعني الهزيمة والتقهقر. وكما أن الطعام غذاء الجسد فإن ذكر الله تعالى غذاء الروح. فالروح الذاكرة لربها هي الروح المطمئنة القوية الصادقة الصابرة في البأساء و الضراء وحين البأس. قال عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].قال صاحب أضواء البيان: (أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالثبات عند لقاء العدو، وذكر الله كثيرا، مشيرا إلى أن ذلك سبب للفلاح، وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى في أضيق الأوقات – وهو وقت التحام القتال – دليل واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال، ولا سيما في وقت الضيق)[2]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]. قال صاحب كتاب التسهيل لعوم التنزيل: (قال بعض العلماء كل الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لا يحصر أجره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4]. وذكر الله للصابرين ثمانية أنواع من الكرامة: أولها المحبة قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[5]. والثاني النصر، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[6].

---

(١) سورة الأنفال الآية (١٤٥).

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ج:٢ ص: (١٠١-١٠٢).

(٣) سورة الزمر الآية رقم (١٠).

(٤) سورة الزمر الآية (١٠).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٤٦)

(٦) سورة البقرة الآية (١٥٣)

والثالث غرفات الجنة، قال: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾[1] والرابع الأجر الجزيل، قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]. والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، ففيها البشارة، قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[3]. والصلاة والرحمة والهداية، قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ﴾[4]. والصابرون على أربعة أوجه، صبر على البلاء: وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع، وصبر على النعم: وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان وعدم التكبر بها، وصبر على الطاعة: بالمحافظة والدوام عليها وصبر عن المعاصي: بكف النفس عنها. وفوق الصبر التسليم: وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهرا، وترك الكراهة باطنا. وفوق التسليم الرضا بالقضاء: وهو سرور النفس بفعل الله وهو صادر عن المحبة وكل ما يفعل المحبوب محبوب)[5].

فالصبر يكون إذاً على طاعة الله تعالى بتحمل مشاقها وما يلقاه من تعب في القيام بها. ومن الطاعات التي ينبغي على المجاهد أن يهتم بها: إقامة الصلاة في وقتها عند الأمن وذهاب الخوف، وأداء الزكاة أو التوكيل على أدائها، وأن يصبر على وساوس الشيطان، وتأنيب النفس على ما أنفقه من مال ويعلم أن الله سيخلفه.

ويكون على المعاصي وذلك باجتنابها والحرص على عدم الوقوع فيها. ومن المعاصي التي يجب تجنبها، الغلول، والفرار، والوقوع في أعراض الناس.

---

(١) سورة الفرقان الآية (٧٥)

(٢) سورة الزمر الآية (١٠)

(٣) سورة البقرة الآية (١٥٥)

(٤) سورة البقرة الآية (١٥٧)

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج:١ ص: ٦٥.

ويكون أيضا على البلاء والشدائد، وهذا من أعظم أنواع الصبر، وأجزلها ثوابا، وبه ينال رضا الله تعالى، وبدونه يقع المرء في سخطه وغضبه، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع)[1]. وقال الله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2].

قال ابن كثير: {أي في حال الفقر: وهو البأساء. وفي حال المرض والأسقام: وهو الضراء. وحين البأس: أي في حال القتال والتقاء الأعداء. قاله بن مسعود وبن عباس وغيرهم. وإنما نصب (الصَّابِرِينَ) على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته، والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان وقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا)، أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال}[3].

فعلى المجاهد أن يصبر على ما يصيبه من الجراحات والمشقة وفقدان الأقارب والأحبة، فربما يرى المجاهد قريبه أو صديقه الذي كان من وقت قريب يؤانسه، يراه وهو مدرج بدمائه، أو منكبا على أحشائه. وقد ضرب الصحابة في الصبر في ساحات الوغى أروع الأمثال التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، وحسبنا في ذلك قصة الماء الذي عُرض على عكرمة بن أبي جهل وأصحابه يوم اليرموك. قال صحب تفسير القرآن العظيم: (الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء فرده الآخر إلى الثالث

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (٢٣٢٤٩).

(٢) سورة البقرة الآية رقم (١٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير ج:١ ص:٢١٠.

فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم)[1].

المطلب الثالث: التحريض على القتال:

إن فنون القتال كثيرة منها تحفيز المقاتلين، ورفع روحهم المعنوية، واستثارة حماسهم وحميتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

قال صاحب المحرر الوجيز: (قوله: حرض معناه حثهم وحضهم قال النقاش: وقرئت حرص بالصاد غير منقوطة والمعنى متقارب)[3]. يأمر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن يحث المؤمنين على القتال بما يقوي عزائمهم ويستنهض هممهم. قال صاحب تفسير القرآن العظيم: {يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران،... ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدَهم وعُدَدِهم: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقال عمير بن الحمام: عرضها السماوات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ (نعم)، فقال: بخ بخ فقال: (ما يحملك على قولك بخ بخ[4]؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال (فإنك من أهلها). فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل

---

(١) تفسير ابن كثير ج:٤ ص: ٣٣٩.

(٢) سورة الأنفال الآيات (٦٥-٦٦).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج:٢ ص:٥٤٩.

(٤) كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء مختار الصحاح للرازي خ:١ص:١٧.

يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه}[1].

والتحريض على القتال له سبل كثيرة منها:

أولا : ذكر ثواب الله وما أعده الله للمجاهدين. وقد ذكر الله ثواب المقاتلين في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. قال صاحب تفسير تسير الكريم الرحمن: (أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس؛ لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف، والتعرض للمتالف، ومع هذا فهو خير محض؛ لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء، والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مرب على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم، وحصول العقاب)[3]. فقد حرض الله المؤمنين على القتال في هذه الآية، فبين لهم أن ما تكرهه النفس ليس دائما فيه ضرر وشر، بل قد يكون فيه خير كثير، ومن ذلك الجهاد، فإن النفس تكره القتال، وفي القتال خير كثير، فمن قتل شهيدا دخل الجنة ومن انتصر يكن له أجر وغنيمة، وفي ذلك إظهار للإسلام. وفي ترك الجهاد مع كراهية النفوس له مخاطر عظيمة، ومن ذلك الذل والمهانة وتسلط الأعداء وضياع الدين وتقليل عدد المسلمين. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) تفسير ابن كثيرج: ٢ ص: ٣٢٥.

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج: ١ ص: ٩٧

فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]. قال السمعاني[2]: (معنى الآية أن الله تعالى أمر المسلمين بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وجعل لهم الجنة ثوابا عليه فجعل هذا بمنزلة الشراء والبيع)[3].

قال صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن الكريم: (نزلت الآية في البيعة الثانية وهي بيعة العقبة الكبرى وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين وكان أصغرهم سنا عقبة بن عمرو وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة فقال عبد الله بن رواحة[4] للنبي ﷺ اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال النبي ﷺ: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال:الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل)[5]. فقد حث الله المؤمنين في هذه الآية على القتال في سبيله، وحفزهم عليه بأن جعل ثواب ذلك الجنة. قال سيد قطب رحمه الله: (فقد باع المؤمن في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم هو الجنة: وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنه فضل الله ومَنُّه)[6].

---

(١) سورة التوبة الآية (١١١).

(٢) منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد أبو المظفر السمعاني الحافظ من أهل مرو تفقه أولا على أبيه في مذهب أبي حنيفة ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فأخذ عن أبي إسحاق وابن ولد سنة ٤٢٦ هـ وتوفي سنة ٤٨٩ هـ .انظر البداية والنهاية ج١٢: ص:١٥٣.

(٣) تفسير السمعاني ج :٢ ص: ٣٥٠.

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ بن ثَعْلَبَةَ بن امْرِىءِ القَيْسِ الأنصَارِي الخَزْرَجِي، صَاحِبُ رسول الله . وأُمُّه كَبْشة بنتُ وَاقِدِ بن عَمْرِو بن الإطْنَابَة بن عَامِرِ بن زَيْدِ مَنَاة بن مَالِكٍ الأَغَر.شَهِدَ بَدْرا والعَقَبة، وهو أحد النُّقباء بها، وشَهِدَ المشاهدَ كُلَّها إلاَّ الفَتْح وما بعده، فإنَّه قُتِلَ يوم مُؤتة، وهو أَحَد الأُمراء فيها. روى عن: النَّبِيّ ، وعن بلال المُؤَذِّن.روى عنه: من الصَّحابة: أَنَس بن مالك ، وعبد الله بن عباس، وغيرهم .انظر تهذيب الكمال ج: ٩ ص: ٨٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي ج :٨ ص: ٢٦٧.

(٦) تفسير ظلال القرآن لسيد قطب ج:٣ ص: ١٧١٤.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. ورد في سبب نزول هذه الآية: (عن جابر قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر ما لي أراك منكسا مهتما قلت يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالا وعليه دين فقال ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك قلت بلى يا رسول الله قال إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب فقال له يا عبدي تمن أعطك قال يا رب فردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون قال يا رب فأبلغ من ورائي فأنزل الله عز وجل ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ...الآية)[2] وجاء في الدر المنثور: (عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن منقلبهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا وفي لفظ . قالوا إنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هؤلاء الآيات ولا تحسبن الذين قتلوا الآية وما بعدها)[3]. وفي هذه الآية أيضا حث للمؤمنين وتحريض لهم على القتال: فكأنّ الله يقول للمؤمنين: إن حياتكم التي أُخذت منكم ستبدلون بها حياة أطول وأبقي، وإن الدار التي فارقتموها ستعوضون عنها داراً خيراً منها وأفضل، ولكم رزق دائم لا ينقطع ولا يزول.

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١٦٩-١٧٠-١٧١).

(٢) تفسير القرطبي ج:٤ ص: ٢٦٨ وقال: أخرجه بن ماجه في سننه(ج:١ ص:٦٨) والترمذي في جامعه وقال هذا حديث حسن غريب.

(٣) الدر المنثور للسيوطي ج٢/ص٣٧١وقال: أخرجه أحمد(حديث رقم ٢٣٩٢) أبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل.

وجعل الله الموت والقتل في سبيل الله سبباً لنيل مغفرته ورحمته، وأن ذلك خير من البقاء في الدنيا، وجمع متاعها الزائل. وفي هذه المقارنة بين نعيم الآخرة الباقي ونعيم الدنيا الزائل تحريض على الجهاد، وحث عليه وترغيب فيه، وتنفير من التخلف عنه والركون إلى الدنيا وتزهيد فيها: ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1]. قال صاحب تفسير القرآن العظيم: (القتل في سبيل الله والموت أيضا وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني)[2].

وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾[3]. وفي هذه الآية أيضا ذكر الله ثواب المقاتلين في سبيله، وهو الجنة ووصفها بأن الأنهار تجري من تحتها. قال ابن كثير: (أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن، وعسل، وخمر، وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[4]. وقد ثبت في الصحيحين: (أن رجلا قال يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر أيكفر الله عني خطاياي؟ قال نعم ثم قال كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال، فقال نعم إلا الذي قاله لي جبريل آنفا (يعني الدين)[5].

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير ج:١ ص:٤٢٠.

(٣) السورة السابقة الآية (١٩٥).

(٤) تفسير ابن كثير ج :١ ص: ٤٤٣.

(٥) المصدر السابق ج: ١ ص: ٤٤٣.

وقد حث الله المؤمنين في المدينة وما حولها أن يخرجوا مع رسوله للجهاد، وبين أن لهم أجرا في كل ما يكابدونه من مشاق، وأنَّبهم على التخلف عن رسول الله، وأن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فقال تعالى: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾[1]. قال صاحب تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير)[2].

ثانيا: استثارة المؤمنين بتذكيرهم بما فعله الكفار بهم من الظلم والعدوان. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً﴾[3]. يذكر الله المؤمنين في هذه الآية بما فعله المشركون في مكة بإخوانهم المؤمنين المستضعفين من الظلم، والاعتداء، ليستثيرهم، ويحرضهم على قتالهم، ويعاتبهم على تقاعسهم عن القتال ونصرة إخوانهم الذين نالهم أعظم الضرر، حيث مُنعوا من الهجرة، وسُلبت أموالهم، وفُرق بينهم وبين أولادهم، وأُذيقوا أشد العذاب على يد هؤلاء المشركين الذين تثاقلتم عن قتالهم. قال صاحب تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهييج لهم على

---

(١) سورة التوبة الآية (١٢٠).

(٢) تفسير السعدي ج:١ ص: ٣٥٥.

(٣) سورة النساء الآية (٧٥).

القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة، ويدعون الله أن يجعل لهم وليا ونصيرا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها)[1]. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[2]. ثم يذكر الله المؤمنين بأنهم هم المنتصرون الرابحون؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله القوي الجناب، الذي يثيب المقاتلين في سبيله أعظم الثواب، وأما المشركون فهم المنهزمون الخاسرون؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الشيطان الضعيف الكيد. قال الثعالبي[3]: (إعلامه تعالى بضعف كيد الشيطان فيه تقوية لقلوب المؤمنين، وتجرئة لهم على مقارعة الكيد الضعيف، فإن العزم والحزم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهده)[4]. قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾[5]. يغري الله المؤمنين بالكافرين، ويكشف الستار عن نواياهم، وما تنطوي عليه قلوبهم، من الحسد للمؤمنين على إيمانهم، وأنهم يتمنون لو

---

(١) تفسير: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ج :١ ص:١٨٧.

(٢) سورة النساء الآية (٨٦).

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن مذلوف، الثعالبين، الجزائري، المقري المالكي، وكان إماما علامة مصنفا اختصر تفسير ابن عطية في جزءين وصنف التفسير المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن وكانت وفاته في سنة ست وسبعين وثمانمائة. انظر طبقات المفسرين للداودي ج:١ ص:٣٤٢

(٤) تفسير الثعالبي ج :١ ص:٣٩٠.

(٥) سورة النساء الآية (٨٩).

يرتد المؤمنون كفارا مثلهم، وينهى الله المؤمنين من موالاتهم ومودتهم، حتى يؤمنوا ويهاجروا مجاهدين في سبيل الله مع المؤمنين. ورد في سبب نزول هذه الآية: (روى عبد الله بن يزيد الأنصاري، عن زيد بن ثابت أن النبيﷺ لما خرج إلى أحد رجعت طائفة ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول نقتلهم، وفرقه تقول لا نقتلهم، فنزلت وهو اختيار البخاري والترمذي)[1]. وقال مجاهد[2]:(نزلت في قوم خرجوا من أهل مكة حتى أتوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، فارتدوا واستأذنوا النبي ﷺ في الرجوع إلى مكة ليأتوا ببضائع، فاختلف فيهم المؤمنون: ففرقة تقول إنهم منافقون، وفرقة تقول هم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى نفاقهم)[3]. قال صاحب أحكام القرآن: (واختار الطبري من هذه الأقوال قول من قال إنها نزلت في أهل مكة لقوله تعالى: (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله)[4]. ويقول ابن العربي معلقا على هذه الروايات: (والصحيح ما رواه زيد. وقوله حتى يهاجروا في سبيل الله يعني حتى يهجروا الأهل والولد والمال ويجاهدوا في سبيل الله)[5].

وقال تعـــالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[6]. ذكر الله تعالى في هذه الآية ما يفعله الكفار بالمسلمين وهو القتل، تهييجا لهم، فكأنه يقول، هؤلاء المشركون الذين يقاتلونكم هم أعداؤكم وخصومكم؛ فلا تجبنوا عن قتالهم وقاتلوهم كما يقاتلونكم، وقتالكم إياهم هو جهاد في سبيل الله تعالى، وطاعة له. وفي هذا تحفيز لهم أيضاً.

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي ج :١ ص: ٥٩٣.

(٢) سبقت ترجمته ص: ٣١

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج١: ص:٥٩٤.

(٤) المصدر السابق ج:١ ص:٥٩٤.

(٥) المصدر السابق ج:١ ص:٥٩٤.

(٦) سورة البقرة الآية (١٩٠).

قال ابن كثير: ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[2]. ذكر الله في هذه الآية أيضا ما فعله المشركون بالمؤمنين، وهو إخراجهم من مكة وطنهم الذي ولُدوا فيه وعاشوا فيه، وأنهم يريدون فتنة المؤمنين عن دينهم، وإرجاعهم إلى الشرك، وفي هذا تهييج للمؤمنين وتأليب لهم على أعدائهم المشركين. قال صاحب تفسير القرآن العطيمم: (أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصا)[3]. ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾[4]. قال صاحب تفسير بحر العلوم: (قرأ ابن عامر لا إيمان بالكسر وهي قراءة الحسن البصري يعني: لا إسلام لهم والباقون لا أيمان بالنصب يعني لا عهد لهم)[5]. ذكر الله في هذه الآية ما يتوقع من الكفار من أعمال الشر، وهي نقض الأيمان، وعدم الوفاء بالعهود، والقدح في الدين، ووصفهم بأنهم أئمة الكفر بمعنى رؤوس الكفر المدبرين له، الماكرين باسمه، وغيرهم تبع لهم وهذا إحماء وإغراء للمؤمنين على قتالهم. ثم يقول في الآية التي تليها: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ

---

(١) تفسير ابن كثير ج:١ ص: ٢٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية (١٩١).

(٣) تفسير ابن كثير ج:١ ص: ٢٢٧.

(٤) سورة التوبة الآية (١٢).

(٥) تفسير بحر العلوم للسمرقندي ج٢/ص٤١. الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ج:١ ص: ١٧٤، السبعة في القراءات لابن مجاهد البغدادي ج:١ ص:٣١٢، الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ج:١ ص: ١٧٤.

تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ[1]. وهنا قد وقع منهم ما اشترطه الله لقتالهم، وهو نقض العهد، فقد أعانوا بني بكر على خزاعة حلفاء الرسول ﷺ، وقد هموا بإخراج الرسول من مكة، وكانوا هم البادئين بالعدوان. قال البغوي: (وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية، وأعانوا بني بكر على خزاعة، وهموا بإخراج الرسول من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة، وهم بدأوكم بالقتال أول مرة - يعني يوم بدر- وذلك أنهم قالوا حين سلم العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه، وقال جماعة من المفسرين: أراد أنهم بدؤوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ)[2]. وينكر الله على المؤمنين أن يخشوا المشركين، وأنه هو الذي أحق أن يخشي، فهو ذو القوة الكاملة التي لا تقف أمامها قوة، وذكر الله هذه الأعمال المشينة التي صدرت من المشركين لتحميس المسلمين ووتحيضهم على قتالهم، وجاء الاستفهام الإنكاري لحملهم على الإقرار بوجوب قتالهم. قال أبو السعود: (الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الإقرار بانتفائها، كأنه أمر لا يمكن أن يعترف به طائعا؛ لكمال شناعته فيلجأون إلى ذلك ولا يقدرون على الإقرار به فيختارون المقـــاتلة)[3]. وقال البيضاوي[4]: ﴿ألا تقاتلون قوما﴾ تحريض على القتال لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل)[5].

وبعد أن ذكر الله هذه التعبئة والتحريض والتحميس، و ملأ صدور المؤمنين غيظاً على المشركين؛ بما فعلوه من أعمال سيئة في حقهم؛ أمر

---

(١) سورة التوبة الآية (١٣).

(٢) تفسير البغوي ج: ٢ ص: ٢٧٢.

(٣) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٤٨.

(٤) عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، الشيرازي، أبو الخير، القاضي ناصر الـدين البيـضاوي الشافعي، صاحب الوطالع والمصباح في أصول الدين ومختصر الكشاف في التفسير المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل وله شرح المصابيح في الحديث كان إماما مبرزا نظـارا صـالحا متعبـدا زاهدا. انظر طبقات المفسرين للداودي ج١: ص:٢٥٤.

(٥) تفسير البيضاوي ج: ٣ ص: ١٣٤.

الله المؤمنين بالقتال فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[1]. وفي هذه الآية أيضا رغَّب الله المؤمنين وحفزهم على القتال، حيث وعدهم بالنصر، وإخزاء عدوهم، وشفاء صدور جماعة من المسلمين من الغم والحزن؛ لما أصابهم من الكافرين. قال الزمخشري[2]: { لما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الأمر به، فقال قاتلوهم، ووعدهم ليثبت قلوبهم، ويصحح نياتهم أنه يعذبهم بأيديهم قتلا، ويخزيهم أسرا، ويوليهم النصر والغلبة عليهم، ويشف صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة. قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديدا فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال: (أبشروا فإن الفرج قريب ويذهب غيظ قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه)، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها، فكان ذلك دليلا على صدق رسول الله ﷺ، وصحة نبوته. ويتوب الله على من يشاء ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضا فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم}[3].

قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ

---

(١) سورة التوبة الآية (١٤).

(٢) محمود بن عمر بن محمد بن عمر العلامة أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي المتكلم المعتزلي المفسر يلقب جار الله لأنه جاور بمكة زمانا. ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر قرية من قرى خوارزم وقدم بغداد وسمع من أبي لخطاب بن البطر وغيره وحدث وأجاز للسلفي وزينب الشعرية له التصانيف البديعة منها الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة وربيع الأبرار ونصوص الأخبار في الحكايات ومتشابه أسماء الرواة و الرائض في الفرائض والمنهاج في الأصول و المفصل في النحو والأنموذج فيه مختصر والأحاجي النحوية وغير ذلك. مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. النظر طبقات المفسرين للسيوطي ج: ١ ص: ١٢٠.

(٣) الكشاف للزمخشري ج:٢ ص: ٢٣٩.

وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً ﴾[1]. يكشف الله في هذه الآية أعمال طائفة أُخرى متذبذبة، يدَّعون الإسلام إذا كانوا مع المسلمين، ويرتكسون في الشرك إذا كانوا مع المشركين، ويحض على قتالهم إذا استمروا على هذه الحال، فلم يعتزلوا قتالكم، ويهادنوكم، ويكفوا أيديهم عن قتالكم، ومعاونة أعدائكم، فخذوهم أسرى واقتلوهم أين وجدتموهم وتمكنتم منهم، وبفعلهم هذا جعلنا لكم عليهم حجة واضحة. قال الثعالبي: (نبه الله على طائفة مخادعة، كانوا يريدون الإقامة في مواضعهم مع أهليهم، يقولون لهم نحن معكم وعلى دينكم، ويقولون أيضا للمسلمين نحن معكم وعلى دينكم، خبثة منهم وخديعة وقوله إلى الفتنة معناه إلى الاختبار. حكي أنهم كانوا يرجعون إلى قومهم فيقال لأحدهم قل ربي الخنفساء ربي العود ربي العقرب ونحوه فيقولها. ومعنى أركسوا أي رجعوا رجع ضلالة، أي أهلكوا في الاختبار بما واقعوه من الكفر. وهذه الآية حض على قتل هؤلاء المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم)[2].

ثالثا: مدح المجاهدين وتفضيلهم على غيرهم وتشنيع فعل القاعدين عن القتال. قال تعالى: ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[3]. يحث الله المؤمنين على القتال في سبيله، ويحضهم عليه وذلك بنفي المساواة بين المؤمنين المتخلفين عن الجهاد غير أصحاب الأعذار التي تجعل صاحبها عاجزا عن القتال، كالعمى والعرج وغيرها، وبين المؤمنين الذين يجاهدون بالمال والنفس. ومن ثم ذكر أنه فضل المجاهدين على المتخلفين بأجر عظيم، وبين ذلك الأجر بأنه درجات في

---

(١) سورة النساء الآية (٩١).

(٢) تفسير الثعالبي ج: ١ ص: ٣٩٩.

(٣) سورة النساء الآيات (٩٥-٩٦).

الجنة، ومغفرة لذنوبهم، ورحمة لهم. ووعد كل مؤمن بالحسنى جاهد في سبيله أم لم يجاهد، ولكن للمجاهدين درجات لا ينالها القاعدون عن الجهاد، ذكرها الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:عن أبي سعيد الخدري[1] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا سعيد من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة. قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علي يا رسول الله. فأعادها عليه ثم قال: وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله ثلاثا)[2].

قال ابن تيمية رحمه: (فهذا الحديث الصحيح بين أن المجاهد يفضل على القاعد الموعود بالحسنى من غير أولي الضرر مائة درجة)[3]. عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: (من آمَنَ باللهِ وبرسولِه وأقامَ الصلاةَ وصامَ رمضانَ كان حَقّاً على الله أن يُدْخلَهُ الجنَّة، جاهدَ في سبيلِ اللهِ أو جلَسَ في أرضِه التي وُلِدَ فيها. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة.أراهُ قال: وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ ومنهُ تَفَجَّر أنهارُ الجنة)[4]. وقال صاحب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان في تفسير هذه الآية: (أي لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج للجهاد، ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل، والقعود عنه، من غير عذر. وأما أهل الضرر كالمريض، والأعمى، والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز

---

(١) أبو سعيد الخُدري صاحب رسول الله، اسمه سَعْد بن مالك، مشهور باسمه وكُنيته.روىٰ عن: النَّبيّ ، روىٰ عنه: أبو صالح السَّمَّان ، وغيرُه. روى له الجماعة . تهذيب الكمال ج: ٢١ ص: ١٥٤.

(٢) صحيح مسلم ج: ١٣ص:٢٥.

(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج :١٤ ص: ١٢٦.

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٢٧٣٠).

به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضيا بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع، ولا يحدث نفسه بذلك؛ فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر، ومن كان عازما على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد؛ لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل، ينزل صاحبها منزلة الفاعل. ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة أي الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر)[1]. قال السمعاني في شأن هذه الآية: (اعلم أن الذي نزل في الابتداء من هذه الآية قوله: ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . . . وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ . قال زيد بن ثابت كان النبي يملي على هذه الآية وفخذه على فخذي فدخل عبد الله بن أم مكتوم وقال: يا رسول الله أنا رجل ضرير ولو استطعت أن أقاتل لقاتلت معك فتغشى رسول الله الوحي؛ فثقل فخذه على فخذي حتى كاد يرضه، فلما سرى عنه قال لي اكتب ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ . فنزل هذا القدر في ابن أم مكتوم وكان ضريرا من أولى الضرر)[2].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ[3] اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]. ذكر الله في هذه الآية ثلاث صفات من اتصف بها كان من أهل الرجاء لرحمته:

---

(١) تفسير السعدي ج: ١ ص: ١٩٥.

(٢) تفسير السمعاني ج: ١ ص: ٤٦٧.

(٣) قال ابن عباس: (يَرْجُونَ رَحْمَةَ : ينالون جنة) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ج:١ ص:٣٠.

(٤) سورة البقرة الآية (٢١٨).

أولاهما: الإيمان بالله ورسوله وهي أساس كل عمل. وثانيها: هجر دار الكفر والشرك مخافة الفتنة والارتداد في الكفر. وثالثها: جهاد أعداء الله لجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. جاء في سبب نزول هذه الآية: (عن جندب بن عبد الله[1] عن النبي ﷺ: أنه بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح[2] أو عبيدة بن الحرث[3] فلما ذهب لينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس وبعث مكانه عبد الله بن جحش[4] وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال لا تكرهن أحدا على السير معك من أصحابك. فلما قرأ الكتاب استرجع وقال سمعا وطاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين قتلتم في الشهر الحرام. فأنزل الله: يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه...الآية)[5]. فقال بعضهم إن لم يكونوا أصابوا وزرا فليس لهم أجر فأنزل الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6]. جاء في تفسير

---

(١) جُنْدُبُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ سُفْيَانَ البَجَلِي ثُمَّ العَلَقِي، وَعَلَقَةُ حَيٌّ مِنْ بَجِيلَةَ، يُكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَهُ صُحْبَة، يُنْسَبُ تارَةً إِلَى أَبِيهِ وتَارةً إِلى جَدِّه، ويقال: جُنْدُب بنُ خَالِدِ بنِ سُفْيَانَ.روى عن: النبي وعن حذيفة بن اليمان. روى عنه : الأسود بن قيس، وأنس بن سيرين والحسنُ البَصْرِيُّ ، وسَلَمَة بن كُهَيْل.انظر تهذيب الكمال ج: ٣ ص: ١٦٩.

(٢) أبو عبيدة بن الجراح الفهري أمين هذه الأمة وأحد العشرة من السابقين اسمه عامر بن عبدالله الجراح اشتهر بكنيته والنسبة إلى جده . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني . رقم (١٠٢٢٧).

(٣) عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي مات بعد وقعة بدر وكانت في رمضان من السنة الثانية . الإصابة في تمييز الصحابة . رقم (٦٢٨٠).

(٤) عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر الأسدي، أحد السابقين هاجر إلى الحبشة. آخى النبي بينه وبين عاصم بن ثابت. الإصابة في تمييز الصحابة للعصقلاني ج : ٢ ص: (٢٨٦-٢٨٧).

(٥) الدر المنثور للسيوطي ج:١ ص: ٦٠٠ وقال: أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه بسند صحيح.

(٦) سورة البقرة الآية (٢١٨).

السمعاني:(أخبر أنهم على رجاء الرحمة، وإنما لم يقطعوا لأنفسهم بالرحمة لأن الإنسان يعرف من نفسه أنه لا يمكنه تأدية حق الله تعالى على وجهه؛ فلا يأمن تقصيرا فلا يمكنه القطع لنفسه بالرحمة)[1]. إن هؤلاء الذين عملوا هذه الأعمال العظيمة التي تحتاج إلى صبر، وجلد، وتضحية بالمال والنفس، لا يقطعون لأنفسهم بالرحمة فكيف بالمتكاسلين الذين لا يعملون ويرجون من الله الرحمة! لا شك أنهم أصحاب رجاء كاذب، فلو صدقوا لعملوا ثم رجوا. قال قتادة معلقا على هذه الآية: (أثنى الله على أصحاب نبيه محمد ﷺ أحسن الثناء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هؤلاء خيار هذه الأمة. ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وأنه من رجا طلب ومن خاف هرب)[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3]. إن الله يباهي في هذه الآية بعباد له وصفهم بصفات ست، هي: أن الله يحبهم، وهم يحبونه، وأنهم يلينون جانبهم للمؤمنين، ولا يتكبرون عليهم. قال صاحب كتاب تذكرة الأريب في تفسير الغريب: (أي أهل رقة على دينهم أهل غلظة على من خالفهم)[4]. ويفعلون عكس ذلك مع الكافرين، فهم قساة عليهم، رافعو الرؤوس لا يخضعون لهم ولا يلينون، ثم وصفهم بأنهم أهل جهاد في سبيله، لا يفلُّ عزائمهم لوم اللائمين، ثم ذكر أن هذا فضله يعطيه من لحقته مشيئته، وهو واسع الفضل عليم بمن يستحقه. وفي ذكره تعالى صفة الجهاد لعباد يحبهم ويحبونه، ترغيب وحض للمؤمنين عليه.

---

(١) تفسير السمعاني ج:١ ص:٢١٧.

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج: ٢ ص: ٣٥٦.

(٣) سورة المائدة الآية (٥٤).

(٤) تذكرة الأريب في تفسير الغريب ج: ١ ص: ١٤٣.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1]. يبين الله في هذه الآية أن دخول الجنة لا يتأتى بغير ابتلاء وجهاد وصبر يعلمه الله من عباده علم مشاهدة، يرتب عليه ذلك الثواب العظيم. وفي ذلك دفع للجهاد و تحميس عليه، فكأنه تعالى يقول: من أراد الجنة فعليه أن يرينا جهاده في سبيل الله، وصبره على بلاء الله. قال صاحب أضواء البيان: (أنكر الله في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه، وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2]. وقوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[4]. ذكر الله تعالى في هذه الآية أن الإيمان يكون إيمانا حقا إذا أُلحق بالهجرة من دار الشرك إلى دار الإيمان، وجهاد أعداء الدين الذين لا يريدون له النماء والبقاء، و إيواء المؤمنين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ونصرتهم ونصرة الحق الذي معهم، فمن كان كذالك فقد حقق إيمانه واستحق من الله المغفرة والرزق الكريم. ومثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٢).

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٤).

(٣) سورة التوبة الآية (١٦) تفسير أضواء البيان للشنقيطي ج:١ ص: ٢٠٩.

(٤) سورة التوبة الآية (١٧).

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1]. الصادقون في إيمانهم لأنهم جاؤوا بما يدل على صدقهم من الأعمال، فهم لم يشكوا في وعد الله ووعيده، ولم يبخلوا بأنفسهم ولا أموالهم أن يبذلوها في سبيل مرضاة الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] ورد في سبب نزول هذه الآية:(أن قوما من قريش افتخروا بسقاية الحاج وبعمارة المسجد الحرام؛ فبين الله أن الجهاد أفضل من ذلك، ونزلت الآية في علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن منبه، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت وعندي مفاتحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي: لقد أسلمت قبل الناس وجاهدت مع رسول الله ﷺ)[3].

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[4]. جاء في تفسير أبي السعود: (أي أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائنا من كان، وإن حاز جميع ما عداها من الكمالات التي من جملتها السقاية والعمارة)[5]. وفي ذكر صفة الجهاد مع الصفات التي فضل الله من اتصف بها على غيره، حث وتشجيع على الجهاد في سبيل الله تعالى وتنفير من التخلف والقعود عن الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[6]. يبيّن الله في هذه الآية أن من شأن المؤمنين بالله ورسله، وبوعد الله في الآخرة، عدم تلمس الأعذار للتسلل من صفوف

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٥).

(٢) سورة التوبة الآية (١٩).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج: ٢ ص: ٧٢.

(٤) سورة التوبة الآية (٢٠).

(٥) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٥٣.

(٦) سورة التوبة الآية (٤٤).

المجاهدين، والتهرب من الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. والله يعلم المتقين الذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية من العمل الصالح. قال الحسن البصري وعكرمة: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ نسخت الآية التي في سورة النور ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[2] نسختها ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[3][4]. قال ابن الجوزي[5]: (قلت فالصحيح أنه ليس للنسخ ها هنا مدخل؛ لإمكان العمل بالآيتين، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوه في القعود على الجهاد من غير عذر، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض من حاجة، وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة ذهبوا من غير استئذانه، وإلى نحو هذا ذهب ابن جرير)[6]. وقال صاحب المحرر الوجيز: (فآية النور نزلت في استئذان بعض المؤمنين رسول الله ﷺ في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات، فأباح الله له أن يأذن وقوله تعالى: لا يستأذنك الآية نفي عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين)[7]. فمما سبق يتبين أن القول بالنسخ لا يؤيده معنى الآيتين. فالآية الأولى تشيد بمضيي

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ج:١ ص: ٥٠٥.

(٢) سورة التوبة، الآية (٤٤).

(٣) سورة النورالآية (٦٢).

(٤) نواسخ القرآن لابن الجوزي ج:١ ص: ١٧٧.

(٥) الإمام الحافظ عالم العراق وواعظ الآفاق جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن على بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي. صاحب التصانيف السائرة= =في سائر الفنون منها: المغني في علوم القرآن وزاد المسير في التفسير. توفي سنة ٥٩٧هـ . انظر تذكرة الحفاظ ج: ٤ ص: ١٣٤٢.

(٦) نواسخ القرآن لابن الجوزي ج: ١ص: ١٧٧.

(٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج: ٣ ص: ٣٩ بتصرف.

المؤمنين في الجهاد وعدم التراجع عنه ملتمسين الأعذار والحيل. الثانية تبين أن من شأن المؤمنين الاستئذان إذا طرأ لهم عذر اضطرهم إلى التخلف عن الجهاد. ولا يتسللون بغير إذن، وليس الاستئذان من شأن النافقين. فالمنافقون يتسللون من الصفوف بغير عذر، أو بعذر كاذب. كقولهم كما حكيً الله عنهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1].

ويقول الله تعالى في الأمر نفسه في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[2]. فبيّن الله عز وجل في هذه الآية أن من شأن الذين لم يؤمنوا بالله ورسله وهم شاكون في وعد الله تلمس الأعذار للتسلل من صفوف المجاهدين، والتهرب من الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. ورد في تفسير أبي السعود: (تخصيص الإيمان بهما في الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد ببذل النفس والمال إنما هو الإيمان بهما، إذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد)[3]. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[4]. فقد بين الله فيها أن أصحاب الغني والقدرة من المنافقين إذا نزل من الله أمر بالجهاد، يطلبون الأذن ليتخلفوا عن القتال كالنساء وأصحاب الأعذار الذين ليس عليهم جهاد. وفي وصف التخلف عن القتال بأنه من شيم المنافقين والنساء تنفير منه وترغيب في الجهاد الذي هو من صفة الرجال المؤمنين. قال صاحب تفسير روح

---

(١) سور الأحزاب الآية رقم (١٣).

(٢) سورة التوبة الآية (٤٥).

(٣) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٧٠.

(٤) سورة التوبة الآية (٨٦-٨٧).

المعاني: (والمراد ذمهم وإلحاقهم بالنساء في التخلف عن الجهاد ويطلق الخالفة على من لا خير فيه)[1].

قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]. بعد أن ذمَّ الله المنافقين لتخلفهم عن الجهاد وشنَّع فعلهم بوصفه عمل النساء والمعاقين، امتدح النبي والمؤمنين لجهادهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وبين أنه أعد لهم الخيرات. قال صاحب تفسير فتح القدير :(جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين وقيل: المراد به النساء الحسان كقوله تعالى: (فيهن خيرات حسان)[3].

جاء في تفسير أبي السعود: (أي إن تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد[4] إليه ونهض له من هو خير منهم، وأخلص نية ومعتقدا، وأقاموا أمر الجهاد بكلى نوعيه كقوله تعالى:﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[5][6]. وفيه دعوة للاقتداء بهم في أمر الجهاد؛ لنيل ما نالوا من الخيرات؛وإحراز ما أحرزوا من الفلاح.

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[7]. ذم الله المنافقين المتخلفين عن صحبة رسوله إلى الجهاد وحقرهم، فذكر أفعالهم تشنيعاً لهم، وذلك أنهم فرحوا بتخلفهم عن الجهاد، وليس في ذلك ما يفرح؛ فالدنيا قصيرة فانية والآخرة طويلة باقية. وفي ذكر الرسول ﷺ زيادة في

---

(١) روح المعاني للألوسي ج: ١٠ ص: ١٥٦.

(٢) سورة التوبة الآية (٨٨).

(٣) فتح القدير للشوكاني ج: ٢ ص: ٣٩٠.

(٤) نهد إلى العدو ينهد بالفتح نهض. لسان العرب لابن منظور ج:٣ ص: ٤٣٠.

(٥) سورة الأنعام الآية (٨٩).

(٦) تفسير أبي السعود ج: ص:٩١.

(٧) سورة التوبة الآية (٨١).

التشنيع فقد تخلفوا عن أمر كان فيه الرسول ﷺ وهو رمز الخير والفلاح، هذا دليل على ضعف الهمَّة، وعدم النخوة، وفساد الرأي، وخلو القلب من الإيمان. ثم بين أنهم لم يتخلفوا بأجسادهم فقط، بل قلوبهم كارهة للجهاد، غير راضية به، فهم يفضلون حياة الدعة والراحة وتوفير الأموال على الدار الآخرة ونعيمها الباقي، وخيرها الدائم. ثم تهكم منهم لفرارهم من حر الشمس إلى حر النار التي هي أشد وأفظع. ثم بين أن ضحكهم قليل لقلة بقائهم في الدنيا وبكاؤهم طويل لطول بقائهم في النار. وهذه حال ينفر منها كل مؤمن ويتبرأ منها كل عاقل: قال الثعالبي[1]: (هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ وفي ضمنها وعيد وقوله: المخلفون لفظ يقتضي تحقيرهم وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه)[2].

قال صاحب تذكرة الأريب في تفسير الغريب: (فليضحكوا قليلا ولفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد)[3].

قال تعالى: ﴿ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[4]. ذكر الله في هذه الآية ما فعله المنافقون يوم أُحد، فقد انسحبوا من الصف، وأبوا أن يشاركوا في القتال، أو الدفاع، وتعللوا أنه لا يوجد قتال محقق، ولا يعلمون أنه سيقع، بالرغم من وصول جيوش الكفار إلى تخوم المدينة، مخالفين ما في قلوبهم من اليقين بوقوع القتال، وبين أنهم قريبون من الكفر بعيدون من الإيمان. قال صاحب جامع البيان في تأويل القرآن: (يعني تعالى ذكره بذلك عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن مذلوف، الثعالبين، الجزائري، المقري المالكي، وكان إماما علامة مصنفا اختصر تفسير ابن عطية في جزءين وصنف التفسير المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن وكانت وفاته في سنة ست وسبعين وثمانمائة. انظر طبقات المفسرين للداودي ج:١ ص:٣٤٢

(٢) تفسير الثعالبي ج:٢ ص:١٤٦.

(٣) تذكرة الأريب في تفسير الغريب ج:١ ص:٢٢٢.

(٤) سورة آل عمران الآية (١٦٧).

الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه حين سار نبي الله ﷺ إلى المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا، فقالوا لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم ولكنا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال)[1]. وفي بيان حال المنافقين، وتسللهم من صفوف المجاهدين، تحذير للمؤمنين أن ينهجوا نهجهم، ويسلكوا طرقهم فينجرفوا نحو الكفر ويبتعدوا عن الإيمان.

ويسلي الله تعالى المؤمنين في القرآن الكريم بقصص السابقين، ومن هذه القصص قصة بني إسرائيل؛ لينفِّرهم مما فعلوا عندما فرض الله عليهم قتال أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وفرقوا بينهم وبين أولادهم، فلم يكونوا عند قولهم، ولم يلتزموا به جميعا، بل تولى أكثرهم وتخلوا عن نبيهم وملكهم الذي اختاره الله لهم بعد أن طلبوا ذلك من نبيهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2]. قال صاحب تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: (فلما فرض عليهم قتال عدوهم والجهاد في سبيله تولوا إلا قليلا منهم يقول أدبروا مولين عن القتال وضيعوا ما سألوه نبيهم من فرض الجهاد)[3].

ويخير الله المؤمنين بين حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وحب الأهل والأموال والأولاد بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[4].

---

(١) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج:٤ ص: ١٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٦).

(٣) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج:٢ ص: ٦٠٠.

(٤) سورة التوبة الآية (٢٤).

جاء في سبب نزول هذه الآية: (أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[1]، قال أولئك الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا، وخربت دورنا، وقطعنا أرحامنا فأنزل الله تعالى هذه الآية)[2]. قال ابن تيمية: (فان لم يكن الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إلى العبد من الأهل والمال على اختلاف أنواعه فانه داخل تحت هذا الوعيد)[3]. في هذه الآية تحريض على القتال وحث عليه وتحذير من تركه، ومن تفضيل طاعة الآباء، والأبناء، والعشيرة، والأزواج، على طاعة الله، ونعيم الدنيا من أموال، وتجارة، ومساكن، على نعيم الآخرة، ووصف الله من يفعل ذلك بالفسوق، وهو الخروج عن الطاعة ومثلها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[4]. فقد أنكر الله على المؤمنين تثاقلهم وتباطؤهم عندما يدعون إلى الجهاد في سبيل الله، والنفرة من أجل نصرة دين الله تعالى، ويسألهم سؤال استنكار ووعيد إن كانوا قد رضوا بنعيم الدنيا واقتنعوا به بدلا من نعيم الآخرة، ثم يبين لهم أن نعيم الدنيا يسير إذا ما قيس بنعيم الآخرة. وجاء في الحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه: عن المستور[5] رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فتذاكروا الدنيا والآخرة فقال بعضهم: إنما الدنيا بلاغ للآخرة فيها العمل، وفيها الصلاة، وفيها الزكاة. وقالت طائفة منهم: الآخرة فيها الجنة. وقالوا ما شاء الله فقال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم

---

(١) سورة الممتحنة الآية (١).

(٢) تفسير السمعاني ج: ٢ ص: ٢٩٧.

(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج: ١٤ ص: ٣٧٩.

(٤) سورة التوبة الآية (٣٨).

(٥) المستور بن سعد بن عمرو بن حنبل روى عن النبي وعن أبيه توفي بالإسكندرية سنة ٤٥ هـ انظر تهذيب التهذيب ص: ٩٧.

إلى اليم فأدخل أصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا)[1]. وجاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة عن المستور بن شداد رضي الله عنه قال: (كنت في ركب مع رسول الله ﷺ إذ مر بسخلة ميتة منبوذة، فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه هانت على أهلها؟ فقالوا: يا رسول الله ﷺ من هوانها ألقوها، قال: فو الذي نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله عزَّ وجلَّ من هذه على أهلها)[2]. وما أخرج الحاكم أيضا وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: إن الله جعل الدنيا قليلا وما بقي منها إلا القليل كالثعلب في الغدير شرب صفوه وبقي كدره)[3]. قال ابن كثير في سبب نزولها: (هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ)[4].

قال تعال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[5]. يسلي الله المؤمنين بذكر ما أصاب الأنبياء السابقين وأتباعهم، ويعلمهم أن كثيرا من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله، وقاتل معهم كثير من المؤمنين بهم، فلم يجبنوا بسبب ما أصابهم من قتل وجراحات وغير ذلك، ولم تضعف قواهم، ولم يذلوا لعدوهم فيتركوا دينهم ويخضعوا له، بل صبروا حتى نصرهم الله، والله يحب من يصبر على بلائه. قال صاحب الحجة في القراءات السبع: {(قاتل) يقرا بفتح القاف وإثبات الألف (قَاتل) وبضمها وحذف الألف(قُتل) فمن قرأ قتل معناه وكم من نبي قُتل وقُتل معه جماعة}[6]. قال صاحب كتاب السبعة في القراءات:

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ج: ٤ ص: ١٩٠.

(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٦٧٥).

(٣)الدر المنثور للسيوطي ج: ٤ ص: ١٩٠.

(٤) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٣٥٨.

(٥) سورة آل عمران الآية (١٤٦).

(٦) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ج: ١ ص: ١١٤.

{واختلفوا في فتح القاف وضمها وإدخال الألف وإسقاطها من قوله: (قاتل معه). فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (قُتل معه)، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (قاتل) بألف }[1]. قال الجصاص: (وفي هذه الآية الترغيب في الجهاد في سبيل الله، والحض على سلوك طريق العلماء من صحابة الأنبياء والأمر بالاقتداء بهم في الصبر على الجهاد)[2]. ثم ذكر الله أقوالهم وما كانوا يدعونه به فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3]. فكانوا يسألون المغفرة لذنوبهم، والتجاوز عن المعاصي التي ارتكبوها، ويسألونه الصبر والثبات والنصر على عدوهم الكافر. وفي ذكر قصصهم دعوة للمؤمنين للإقتداء بهم في الصبر على جهاد أعدائهم، فأولئك قتل أنبياؤهم والكثير من فقهائهم وعلمائهم وعامتهم فصبروا وتمسكوا بدينهم، وساروا على خطى رسلهم، ونهج أنبيائهم، ولم يحيدوا عن طريقهم، وصبروا حتى جاءهم النصر من ربهم، وهؤلاء نبيهم بينهم، فمن الأحرى أن يقاتلوا معه ويبقوا على دينه إن قتل، ولا يرتدوا على أدبارهم ويتخلوا عن دينهم.

رابعا : بيان ضعف العدو وجبنه لإزالة هيبته من النفوس.

قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[4]. قال صاحب تفسير زاد المسير: قال مقاتل: (سبب نزولها أن رؤساء اليهود عمدوا إلى عبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم فنزلت هذه الآية)[5]. يشجع الله المؤمنين ويبث في قلوبهم الحماس، حيث بين في هذه الآية أن ما يلحقه اليهود بالمسلمين هو مجرد أذى باللسان، وقلوبهم مليئة بالجبن والخور، فعند الحرب والقتال ينهزمون ويولون أدبارهم هاربين،

---

(١) السبع في القراءات لابن مجاهد البغدادي ج: ١ ص: ٢١٧.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ج: ٢ ص: ٣٢٦.

(٣) سورة آل عمران الآية (١٤٧).

(٤) سورة آل عمران الآية (١١١).

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ج:١ ص: ٤٤٠.

وفي هذا تشجيع على قتالهم وحض على الصبر عند لقائهم. قال صاحب كتاب نواسخ القرآن: قال جمهور المفسرين: (معنى الكلام لن يضروكم ضرا باقيا في جسد أو مال، إنما هو شيء يسير سريع الزوال وتثابون عليه)[1].

وقال عز من قائل: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[2]. يبين الله تعالى جبن اليهود والمنافقين عند الحرب؛ ليرفع روح المؤمنين ويحمسهم على قتالهم، ويزيل رهبتهم من القلوب. قال الزمخشري: (تحسبهم جميعا مجتمعين ذوي ألفة واتحاد وقلوبهم شتى متفرقة لا ألفة بينها يعني أن بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم)[3].

رابعا: التحذير من المخالفات والمعاصي وبيان عاقبتهم.

هنالك مخالفات ينبغي على المجاهد أن يجتهد في تجنبها كما يجتهد في قتال عدوه، لعظم إثمها وسوء عاقبتها، ومنها:

أولاً: التحذير من الفرار وبيان عاقبته. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[4]. ينهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية إذا لقوا عدوهم أن يعطوه أدبارهم فارين منه، والفرار من الزحف من كبائر الذنوب، بل من أكبر الكبائر؛ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: (اجتنبوا السَّبعَ الموبقات. قالوا: يا رسولَ الله، وما هُنَّ ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ

---

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي ج: ١ ص: ١٠٩.

(٢) سورة الحشر الآية (١٤).

(٣) الكشاف للزمخشري ج:٤ ص: ٥٠٧.

(٤) سورة الأنفال الآية (١٥).

اليَتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحف، وقذفُ المُحصنات المؤمنات الغافلات)[1]. وقد أجاز الله الفرار في حالتين قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

الأولى: إذا كان الفار متحرفا لقتال. والتحرف للقتال هو(الكر بعد الفر يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها)[3].

الثانية: أو متحيزا أو منحازا إلى فئة إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وقد أورد النحاس أقوال العلماء و اختار ما رأى أنه أقوى هذه الآراء فقال: (للعلماء في هذه الآية ثلاثة أقوال منهم من قال:

أ – هي منسوخة :فمن قال هي منسوخة عطاء بن أبي رباح قال نسخها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[4]. إلى تمام الآيتين أي فنسخ التخفيف عنهم والإطلاق لهم أن يولوا ممن هو أكثر من هذا العدد.

ب– ومنهم من قال هي مخصوصة لأهل بدر لأنها فيهم نزلت: والقول أنها مخصوصة قول الحسن. عن الربيع بن صبيح[5] عن الحسن قال: ليس الفرار من الزحف من الكبائر، إنما كان في أهل بدر خاصة هذه الآية، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾. وعن أبي سعيد الخدري قال: (نزلت ومن يولهم يومئذ دبره في أهل بدر)[6].

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم: (٢٧٠٧.) صحيح مسلم حديث رقم: (٢٢٢).

(٢) سورة الأنفال الآية (١٦).

(٣) الكشاف للزمخشري ج: ٢ ص: ١٩٦.

(٤) سورة الأنفال الآية (٦٥).

(٥) ربيعُ بنُ صَبِيْح السَعْدِي، أبُو بَكْر، ويُقال: أبُو حَفْص، البَصْرِي مَوْلَى بَنِي سَعْدِ بنِ زَيْـدِ مَنَـاة. روىٰ عن: ثابت البُنانيّ، وحازم الكِرمانيّ، والحَسَن بن أبي الحَسَن البَصْريّ.انظر تهـذيب الكمـال للمزي ج: ٥ ص: ٣٥١.

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ج: ١ ص: ٤٦١.

ج – ومنهم من قال هي محكمة وحكمها باق إلى يوم القيامة: والقول أن حكمها باق إلى يوم القيامة قول ابن عباس: عن علي بن أبي طلحة[1] عن ابن عباس وذكر الكبائر قال والفرار من الزحف؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2]. قال صاحب كتاب الناسخ والمنسوخ: {قال أبو جعفر: وهذا أولى ما قيل في الآية ولا يجوز أن تكون منسوخة؛ لأنه خبر ووعيد ولا ينسخ الوعيد، كما لا ينسخ الوعد، فإن قيل فحديث أبي سعيد الخدري متصل الإسناد وقد خبر بنزول الآية في أهل بدر فكيف يجوز خلافه؟ فالجواب إنه لعمري لا يجوز خلافه في مثل هذا، والقول كما قال نزلت في أهل بدر وحكمها باق إلى يوم القيامة وأهل بدر كان رسول الله ﷺ فئتهم فكان لهم أن ينحازوا إليه وكذا كل إمام. والدليل على أن حكمها باق بما حدثناه علي بن الحسين...عن ابن عمر قال: كنت في غزوة مسالح رسول الله ﷺ فلقينا العدو فحاص الناس حيصة ويقال حاض الناس حيضة فكنت ممن حاص، فرجعنا إلى أنفسنا فقلنا: كيف يرانا المسلمون وقد بؤنا بالغضب قال ثم قرأ ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ فقلنا نأتي المدينة فنبيت بها ثم نخرج فلا يرانا أحد، فلما أتينا المدينة قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فرصدنا حتى خرج إلى صلاة الفجر فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون قال: لا بل أنتم العكارون قلنا: إنا قد هممنا بكذا وكذا قال: لا أنا فئة للمسلمين ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة. قال أبو جعفر: ففي هذا الحديث بيان

---

(١) عَلِيُّ بنُ أبـــي طَلْحَة، وَاسْمُهُ سَالِم بنُ المُخَارِق الهَاشِمِي، أبو الحَسَن، ويقال: أبو مُحَمَّد، ويقال: أبو طَلْحَة مَوْلَىٰ العَبَّاس بن عَبْدِ المُطَّلِب، أصله من الجَزِيْرَة، وانتقل إلىٰ حِمْص.روى عن: أبـــي الوَدَّاك جَبْر بن نَوْف الهَمْدانيِّ ، وراشد بن سعد المَقْرائيِّ وعبد الله بن عبّـاس مرسـل بـــينهما مجاهد. انظر تهذيب الكمال ج : ١٢ ص: ٤٥٣.

(٢) سورة الأنفال الآية (١٦).

معنى الآية لمن كان من أهل العلم، وذلك أن ابن عمر لم يقبله رسول الله ﷺ للحرب إلا بعد يوم بدر؛ فتبين بهذا أن حكم الآية باق، وتبين أن لمن حارب العدو إذا خاف على نفسه أن ينحاز إلى فئة يتقوى بها)[1]. والعكارون الكرارون الراجعون يقال: عكر واعتكر إذا كر ورجع، فلما رجع ابن عمر ومن معه إلى النبي ﷺ قابلين منه. كانوا هم العاكرين الراجعين إلى ما كانوا عليه من بذل أنفسهم إلى الجهاد، والقبول من الرسول ﷺ ما يأمرهم به[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3]. نزلت هذه الآية في شأن الذين انهزموا يوم أحد، وكان بين المنهزمين بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. قال صاحب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرحمن: (ويخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أحد، وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان)[4]. قال صاحب كتاب حجة القراءات: (ونسب الفعل إلى الشيطان لأنهما زلّا بإغواء الشيطان إياهما فصار كأنه أزلهما)[5]. ومعنى أزلهم: (أي استدعى زللهم بأن ذكرهم خطاياهم فكرهوا الثبوت لئلا يقتلوا، وقيل ببعض ما كسبوا بانهزامهم)[6].

ثانيا: التحذير من الغلول وتعريفه وبيان عاقبته.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ج:١ ص: (٤٥٩ -٤٦٠).

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ج: ١ ص: ٤٦٣.

(٣) سورة آل عمران الآية (١٥٥).

(٤) تفسير السعدي ج: ١ ص: ١٥٣.

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ج: ١ ص: ٩٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ج:١ ص: ٤١٤.

لقد نهى الله تعالى عن الغلول وبين أن الغالّ يأتي يوم القيامة وهو يحمل ما غله. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١).

والغلول: لغة: غل فلان كذا إذا اقتطعه ودسه في متاعه من غل الشيء في الشيء إذا أدخله فيه(٢). قال ابن العربي: (غل ينصرف في اللغة على ثلاثة معان:

الأول: خيانة مطلقة.

الثاني: في الحقد يقال في الأول تغل بضم الغين وفي الثاني يغل بكسر الغين.

الثالث: أنه خيانة الغنيمة)(٣). أما الغلول الاصطلاحي فهو: الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمها بين المجاهدين (٤).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ . قال صاحب التيسير في القراءات السبع: { قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم(٥) أن (يَغُل) بفتح الياء وضم الغين والباقون بضم الياء وفتح الغين (يُغَل)}(٦).جاء في تفسير السمرقندي: (فمن قرأ بالنصب معناه وما كان لنبي أن يخون في الغنيمة ومن قرأ بالضم فمعناه لا ينبغي لنبي أن ينسب إلى الغلول وذلك أنه لما كان يوم أحد أخذوا في النهب والغارة وتركوا القتال وخافوا أن تفوتهم الغنيمة وظنوا أن من أخذ شيئا يكون له وأن النبي ﷺ لا يقسم لهم فنزلت هذه الآية وما كان

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٦١).

(٢) الفائق للزمخشري ج:٣ ص: ٧١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج١: ص: ٣٩٢.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ج :١ ص: ٤٧٩.

(٥)عاصم بن ابي النجود الأسدي، مولاهم الكوفي القارىء الإمام أبو بكر، أحد السبعة واسم أبيه بهدلة على الصحيح. قرأ القرآن على أبي عبدالرحمن السلمي وزر بن حبيش الأسدي وحدث عنهما وعن أبي وائل ومصعب بن سعد بن أبي وقاص وجماعة. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي ج:١ ص: ٨٨.

(٦) التيسير في القراءات السبع للداني ج:١ ص:٩١.

لنبي أن يغل يقول ما جاز لنبي أن يخون في الغنيمة وما جاز لأصحابه أن ينسبوه إلى الخيانة)[1].

أما حكم الغلول فهو من الكبائر التي يجب تجنبها والحذر منها. عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: (قامَ فينا النبيُّ ﷺ فذكرَ الغُلولَ فعظَّمهُ وعظَّم أمرَه، قال: لا أُلفينَّ أحدَكم يومَ القيامةِ على رقَبتِه فرَس لهُ حَمْحَمة، يقول: يا رسولَ اللهِ أغِثْني، فأقولُ: لا أملِكُ لكَ شيئاً، قد أبلغْتُك. وعلى رقبتِه بعير لهُ رُغاءُ يقول: يا رسولَ اللهِ أغثْني، فأقول: لا أملِك لكَ شيئاً، قد أبلغتك. وعلى رقبتِه صامِت فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثْني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئاً، قد أبلغتك. وعلى رقبتِه رقاع تخفقُ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقول: لا أملكُ لكَ شيئاً قد أبلغتك)[2].

حمحم الفرس و تحمحم وهو صوته إذا طلب العلف[3].

---

(١) تفسير السمرقندي ج:١ ص: ٢٨٦.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم: (٣٠٠٦).

(٣) مختار الصحاح للرازي ج: ١ ص: ٦٦.

المبحث الثالث

أحكام الأسر

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: معني الأسر والأسير.

المطلب الثاني: حكم الأسر.

المطلب الثالث: حكم الأسرى.

الطلب الرابع: معاملة الأسرى.

المطلب الأول: معنى الأسر:

عرف علماء اللغة الأسر، قال صاحب التعاريف: الأسر الشد بالقد[1]. وسمي كل مأخوذ مقيد أسيرا وإن لم يكن مشدودا بذلك ويتجوز به فيقال أنا أسير نعمتك[2].

وقال صاحب لسان العرب: الأسر أي الشد والعصب والأسر القوة والحبس ومنه حديث الدعاء فأصبح طليق عفوك من إسار غضبك والإسار بالكسر مصدر أسرته أسرا وإسارا وهو أيضا الحبل والقد الذي يشد به الأسير[3].

والأسير الأخيذ وأصله من ذلك وكل محبوس في قد أو سجن أسير وقوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ قال مجاهد: الأسير المسجون والجمع أسراء و أسارى[4].

واصطلاحا: الأسر هو الشد بالقد وكان الأسير يفعل به ذلك حبسا له ثم سمي بالأسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى إلى الحبس[5].

المطلب الثاني: حكم الأسر:

إن أسر الأعداء في الحروب مسموح به شرعاً، بل أمر الله به بعد أن تضرب أعناق بعضهم ويثقل بعضهم بالجراح. قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ

---

(١) القد بالكسر سير يقد من جلد غير مدبوغ. انظر مختار الصحاح للرازي ج:١ ص:٢١٩.

(٢) انظر التعاريف للمناوي ج:١ ص: ٦١.

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور ج:٤ ص: ٢٠.

(٤) انظر المصدر السابق ج:٤ ص: ١٩.

(٥) التفسير الكبير للرازي ج:٣٠ ص: ٢١٦.

الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١).

وقد امتن الله على المؤمنين بتمكينهم من أسر عدوهم فقال عزَّ وجل: ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ (٢) قال السمعاني: (الإثخان بلوغ الغاية في النكاية ويقال الاستكثار من القتل) (٣).

المطلب الثالث: حكم الأسير:

اختلف العلماء في حكم الأسرى:

١- فقال قوم ومنهم قتادة والضحاك (٤) والسدي والأوزاعي: (لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء. وقالوا عن الآية أنها منسوخة بقوله: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٥). وبقوله: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ ﴾ (٦).

٢ - وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول

---

(١) سورة محمد الآية (٤).

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢٦).

(٣) تفسير السمعاني ج: ٥ ص: ١٦٨.

(٤) الضَّحَّاكُ بنُ مُزَاحِم الهِلاَلِي، أَبُو القَاسِم، ويقال: أَبُو مُحَمَّدٍ الخُرَاسَانِي، أَخُو مُحَمَّدِ بنِ مُـزَاحِم، ومُسْلِم بن مزاحم، كان يكون بسمرقند وبَلْخ ونَيْسابور. روى عنالأسْوَد بن يزيد النَّخَعيِّ ، وأنَس بن مالك ، وزَيْد بن أرْقَم، وأبـــي سعيد سعد بن مالك الخُدْرِيِّ، وسعيد بن جُبَـــيْر، وطـــاوُوس بـــن كَيْسان، وعبد الله بن عبَّاس. انظر تهذيب الكمال ج : ٨ ص:١٤٣.

(٥) سورة الأنفال الآية (٥٧).

(٦) سورة التوبة الآية (٥) تفسير البغوي ج:٤ ص: ١٧٨ بتصرف.

الثوري والشافعي[1] وأحمد[2] وإسحاق[3]. قال ابن عباس: لمَّا كَثُر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وهذا هو الأصح والاختيار؛ لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده)[4].

أما قتل النبي ﷺ الأسرى؛ قال الجصاص: (وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في قتله الأسير، منها قتله عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد ما أسر)[5].

وأما الاسترقاق: (فإن بني حنيفة لما ارتدوا استرق أبو بكر رضي الله عنه نساءهم، وأصاب علي رضي الله عنه جارية من ذلك السبي فولدت له محمد بن الحنيفية رحمهما الله تعالى)[1].

---

(١) محمد بن إدريس الإمام الشافعي أبو عبد الله بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد بن يزيد بن هشام بن عبد المطلب بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والسائب جده صحابي أسلم يوم بدر ولد سنة خمسين ومائة بغزة أو عسقلان أو منى على أقوال ونشأ بمكة وقدم بغداد فاجتمع علماؤها وأخذوا عنه وصنف بها كتابه القديم ثم عاد إلى مكة ثم خرج إلى بغداد فأقام . توفي يوم الجمعة في رجب سنة أربع ومائتين. انظر طبقات المفسرين للداودي ج:١ ص:٢٥ وتذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ج:٤ ص: ٣٥٤.

(٢) أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلِ بنِ هِلاَلِ أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَعْلاَمِ. ولد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ وتوفي ٢٢ ربيع الأول سنة ٢٤١هـ. نشأ ببغداد وترعرع بها أشتهر بالتقوى و العناية بعمله . رحل إلى البصرة والحجاز واليمن والكوفة ليتلقى الحديث عن الرجال . لم يحدث إلا بعد الأربعين(باختصار) . انظر أحمد بن حنبل لأبي زهرة ص: (١- ٤٣). وسير أعلام النبلاء ج:١١ ص: ١٧٩

(٣) وُلِدَ إسحاق بن راهَوَيه سنة إحدىٰ وستين ومئة، وكان سَمِعَ من عبد الله بن المبارك وهو حَدَثٌ، فترك الرواية عنه لِحَدَاثَتِه، وخرَجَ إلى العراق سنة أربع وثمانين ومئة، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة. ١/ قال أبو بكر بن نُعَيْم: وسمعتُ أبا عبد الرحيم الجُوْزجانيَّ يقول: سمعت أحمد بن حنبل ــ وذُكر إسحاق ــ فقال: لا أعلم ولا أعرف لإسحاق بالعراق نظيرا. انظر تهذيب الكمال ج : ١ ص: ٤٥٦.

(٤) المصدر السابق ج:٤ ص: ١٧٨ بتصرف.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ج: ٥ ص: ٢٦٩.

وأما المن: فقد أطلق النبي ﷺ ثمامة بن أثال. عن أبي هريرة رضيَ اللَّهُ عنه قال: (بَعث النبيُّ ﷺ خيلاً قِبلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفةَ يقال له ثُمامة بن أُثال، فرَبطوهُ بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيُّ ﷺ فقال: ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمدُ، إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كُنْتَ تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئتَ. فتُرِكَ حتى كان الغَد ثم قال لهُ: ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: ما قلتُ لك: إن تُنعِم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعدَ الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلَقَ إلى نخلٍ قريبٍ من المسجدِ فاغتسلَ، ثم دخل المسجدَ فقال: أشهد أن لا إلهَ إلاّ الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله. يا محمد، واللَّه ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وَجهك، فقد أصبحَ وَجهكَ أحبَّ الوجوهِ إليّ. واللَّه ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دِينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ. واللَّه ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبحَ بلدكَ أحبَّ البلاد إليّ. وإن خَيلَكَ أخذتني، وأنا أُريد العمرةَ، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ، وأمَرَه أن يَعتمر. فلما قدمَ مكة قال له قائل: صَبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول اللَّه ﷺ، ولا واللَّه لا يأتيكم من اليمامَةِ حَبةُ حِنطة حتى يأذَن فيها النبيُّ ﷺ)[٢].

وأما الفداء بالأسرى من المسلمين:

عن عمران بن حصين[٣] قال: (أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلا من بني عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ

---

(١) المبسوط لشمس الدين السرخسي ج : ١٠ ص: ١٠٠.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٢٦٦).

(٣) عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي هكذا نسبه بن الكلبي ومن تبعه وعند أبي عمر عبد نهم بن سالم بن غاضرة ويكنى أبا نجيد روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث وكان إسلامه عام خيبر وغزا عدة غزوات وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح قاله بن البرقي وقال الطبراني أسلم قديما هو وأبوه وأخته وكان ينزل ببلاد قومه ثم تحول إلى البصرة إلى أن مات بها روى عنه ابنه نجيد وأبو الأسود الدؤلي وأبو رجاء العطاردي وربعي بن حراش . انظر الإصابة في تمييز الصحابة رقم: ٦٠١٤.

ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف)[1]. ورد الحديث كاملا في صحيح ابن حبان عن عمران بن حصين قال: (أَسَرَتْ ثقيفُ رجلينِ مِنْ أصحابِ النَّبيِّ، وأسرَ أصحابُ النَّبيِّ رَجُلاً مِنْ بني عامرِ بنِ صعصعةَ، فَمُرَّ بهِ على النَّبيِّ وهو مُوثَقٌ، فناداهُ: يا محمَّدُ يا محمد، فأقبل إليهِ رسولُ اللَّهِ ، فقالَ: على ما أُحْبَسُ؟ فقالَ: «بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ» ثُمَّ مضى النَّبيُّ، فناداهُ، فأقبلَ إليهِ النَّبيُّ، فقالَ لَهُ الأسيرُ: إنِّي مسلمٌ، فقالَ النَّبيّ: (لو قُلْتَها وأنتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ، أَفْلَحْتَ كُلَّ الفَلاحِ)، ثُمَّ مضى النَّبيُّ، فناداهُ أيضاً، فأقبلَ إليهِ، فقالَ: إنِّي جائعٌ، فَأَطْعِمْني، فقالَ لَهُ النَّبيُّ: (هٰذِهِ حَاجَتُكَ)، ثُمَّ إنَّ النَّبيَّ فداهُ بالرَّجُلَيْنِ اللَّذينِ كانتْ ثَقِيفُ أَسَرَتْهُمَا)[2].

ولعله ليس هناك تعارضا يبرر الخلاف ويوجب النسخ بين الآية السابقة وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]. فهذه الآية أيضا تبيح الأسر بعد إضعاف العدو بالقتل والجروح، وتعاتب النبي ﷺ أصحابه وتستنكر قبولهم الفداء قبل إكثار القتل والجراح في الأعداء، والآية الأولى تأمر بالأسر بعد الإثخان أيضا وتخير بين المن والفداء. ولعله مما سبق يتبين أن الحق مع أصحاب القول الثاني القاضي بتخيير الإمام في الأسرى بين القتل والمن والفداء لأنه فعل النبي ﷺ وأصحابه من بعده.

المطلب الرابع: معاملة الأسير في الإسلام وحكم تعذيبه:

إن معاملة الأسرى في الإسلام من أرقى المعاملات وأكثرها إنسانية، وقد التزم المجاهدون قديما وحديثا بهذه المعاملة طاعةً لله ورسوله رغم ما يفعله الأعداء بأسرى المؤمنين من التعذيب والتنكيل. فلنا قِيَم وليس لهم قيم ولنا دين وليس لهم دين، أو تركوا دينهم وراء ظهورهم واتبعوا

---

(١) تفسير البغوي ج: ٤ ص: ١٧٩.

(٢) صحيح بن حبان ج: ٤ ص: ٣٤٩.

(٣) صورة الأنفال الآية (٦٧).

أهواءهم. قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[1]. إن الله يمتدح في هذه الآية المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفة وهي: إحسانهم للفقراء والمساكين بإطعامهم الطعام مع حاجتهم إليه وحبهم له.قال ابن إسحاق: (عن نبيه بن وهب أخو بن عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأسارى خيرا. قال: وكان أبو عزيز ابن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، قال: فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال فأستحيي فأردها على احدهما فيردها علي ما يمسها)[2].

وكان رسول الله ﷺ يمنع عن التفريق في السبي بين المرأة وولدها. عَنْ أبي أيُّوب[3]، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله يَقُولُ: (مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الوالِدَةِ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ)[4].

يتبين من أمر النبي ﷺ وفعل أصحابه أنه يجب الإحسان إلى الأسير ولا يجوز تعذيبه بحرمانه من الأكل أو الشرب أو بالضرب أو بأي نوع من أنواع التعذيب. وإذا قام العدو بتعذيب أسرى المسلمين فلا يجوز للمسلمين أن يعذبوا أسراهم الذين لم يثبت منهم التنكيل بالمسلمين، أما إذا ثبت أنه وقع من أفراد العدو الذين سقطوا في الأسر التنكيل بالمسلمين

---

(١) سورة الإنسان الآية (٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج: ٣ ص: ١٩٥.

(٣) خالد بن زيد بن كليب أبو أيوب الأنصاري معروف باسمه وكنيته السابقين روى عن النبي ﷺ وعن أبي بن كعب روى عنه البراء بن عازب وابن عباس وجابر بن سمرة وأنس وغيرهم من الصحابة وجماعة من التابعين شهد العقبة وبدرا وما بعدها ونزل عليه النبي ﷺ لما قدم المدينة فأقام عنده حتى بنى بيوته ومسجده. انظر الإصابة تمييز في الصحابة رقم: ٢١٦٥.

(٤) الترمزي ج :٤ص:٤٨٤ سنن الدارمي حديث رقم: (٢٤٧) مسند الأمام أحمدرقم : (٢٣١١٥).

فيجوز للمسلمين أن يقتصوا منهم، كما فعل بلال رضي الله عنه بأمية بن خلف في معركة بدر عندما طعنه عدة طعنات هو وبعض الصحابة، وكان قد أسره عبد الرحمن بن عوف. ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[1]. قال صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن: (في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص ولا يتعدّى قدر الواجب وأنه إذا قتل بحديدة قتل بها؛ يدل على ذلك حديث أنس أن يهوديا رض رأس جارية بين حجرين فرض رسول الله ﷺ رأسه بين حجرين. وأما النهي عن المثلة فنقول أيضا بموجبها إذا لم يمثل، فإذا مثل مثلنا به يدل على ذلك حديث العرنيين وهو صحيح أخرجه الأئمة. وقوله لا يعذب بالنار إلا رب النار، صحيح إذا لم يحرق، فإن حرق حُرق، يدل عليه عموم القرآن قال الشافعي: إن طرحه في النار عمدا طرحه في النار حتى يموت. وذكره الوقار في مختصره عن مالك وهو قول محمد بن عبد الحكم قال بن المنذر وقول كثير من أهل العلم في الرجل يخنق الرجل عليه القود)[2]. قال أيضا: (واتفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه قصد التعذيب فعل به ذلك كما فعل النبي ﷺ بقتلة الرعاء)[3]. وقتلة الرعاء هم العرنيون. (عن أنس بن مالك أن قوما من عكل أو قال من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا[4] المدينة فأمر لهم رسول الله ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم، فبلغ النبي ﷺ خبرهم من أول النهار فأرسل في آثارهم، فما ارتفع النهار حتى جيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وألقوا

---

(١) سورة النحل الآية (١٢٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج: ٢ ص: ٣٥٩.

(٣) المصدر السابق ج: ٢ ص: ٣٥٨.

(٤) جوي الأرض جوى و اجتواها لم توافقه. لسان العرب لابن منظور ج: ١٤ ص: ١٥٨

وسمر أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون. قال أبو قلابة فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله. وفي رواية: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم. وفي رواية: فبعث رسول الله ﷺ في طلبهم قافلة فأتي به. قال فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ... الآية﴾[1]. وفي رواية: قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا. وفي البخاري قال جرير بن عبد الله في حديثه فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم وقد أشرفوا على بلادهم فجئنا بهم إلى رسول الله ﷺ. قال جرير فكانوا يقولون الماء ويقول رسول الله ﷺ النار. وقد حكا أهل التواريخ والسير أنهم قطعوا يدي الراعي ورجليه وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات وأدخل المدينة ميتا، وكان اسمه يسار، وكان نوبيا، وكان هذا الفعل من المرتدين سنة ست من الهجرة)[2]. ولقوله تعالى:﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[3]. فهذه الآية تبيح للمظلوم أن يقتص من الظالم بقدر مظلمته، وعليه أن يتقي الله ولا يتجاوز إلى ما هو أكثر من حقه. وإن وضع الظالم عنده أمانة فلا يجوز له أن يأخذها سداداً لحقه لقول النبي ﷺ: (أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك)[4].

---

(١) سورة المائدة الآية (٣٣).

(٢) تفسير القرطبي ج: ٦ ص: ١٤٨.

(٣) سورة البقرة الآية (١٩٤).

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن: انظر أضواء البيان للشنقيطي ج: ٩ ص: ١٢٤.

الفصل الثالث

أنواع القتال

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قتال من لا يؤمن بالله ورسولهﷺ.

المبحث الثاني: حكم القتال من أجل الإكراه في الدين.

المبحث الثالث: قتال الضرورة.

المبحث الأول

قتال من لا يؤمن بالله ورسولهﷺ

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: قتال المشركين.

المطلب الثاني: قتال الكافرين.

المطلب الثالث: قتال المنافقين.

المطلب الرابع: قتال أهل الكتاب.

المطلب الأول: قتال المشركين:

إن الشرك من أكبر الكبائر، ولا يغفره الله سبحانه وتعالى إلا بالتوبة قال الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

وقد قسم العلماء الشرك إلى قسمين:

أولا: الشرك الكبر، وهو أن يجعل الإنسان لله ندا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته[2].

ثانياً: الشرك الأصغر، وهو ما أتي في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر[3].

قال الله تعالى في قتال المشركين: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]. لقد سبق بيان مدلول صدر هذه الآية في الأوقات التي يحرم فيها القتال في الباب الثاني، وبقي تفسير عجزها الذي يختص بقتال المشركين، فقد أمر الله المؤمنين أن يتحدوا لقتال المشركين، كما أن المشركين متحدون لقتالهم، والمقصود بالمشركين والذين أُمر بقتالهم هم الذين وقعوا في الشرك الأكبر. قال الواحدي: (قاتلوهم كلهم ولا تحابوا بعضهم بترك القتال كما إنهم يستحلون قتال جميعكم واعلموا أن الله مع المتقين مع أوليائه الذين يخافونه)[5].

---

(١) سورة النساء الآية (٤٨).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ج:١ ص١٣٩، من كتاب معارج القبول ج: ٢ ص: ٤٨٣.

(٣) انظر المصدر السابق ج: ١ ص: ١٣٩، عزاه إلى المجموع الثمين ج: ٢ ص: ٢٧.

(٤) سورة التوبة الآية (٣٦).

(٥) تفسير الواحدي ج: ١ ص: ٤٦٣.

وقال الأصفهاني[1]: (وقيل معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة وذلك أن الجماعة يقال لهم الكافة كما يقال لهم الوازعة لقوتهم باجتماعهم وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[2][3].

وقال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[4]. للعلماء في هذه الآية ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنها منسوخة. وهو قول الربيع[5]. ولهم في المنسوخ منها قولان:

أولهما: أن المنسوخ أول الآية، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قالوا: هذه الآية أول آية نزلت في القتال، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل ويكف عن قتال من تركه، وبقي على هذه الحالة إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾[6].

ثانيها: أن المنسوخ منها ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قالوا معنى الآية: فلا تقاتلوا من لا يقاتلكم، كان هذا في الابتداء ثم نسخ.

فيكون معنى الآية على رأيهم: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم فمن كف عنكم فكفوا عنه ولا تعتدوا بابتداء القتال إن الله لا يحب المبتدئين به. ولعل ما ذهبوا إليه ليس حجة لنسخ أول الآية، لأن الله أمر في أولها بقتال من قاتلهم مبتدئاً

---

(١) الحسين بن محمد بن علي أبو سعيد الأصبهاني الزعفراني. قال أبو نعيم كثير الحديث صاحب معرفة وإتقان صنف المسند والتفسير والشيوخ وله من المصنفات شئ كثير سمع أبا القاسم البغوي وابن صاعد وآخرين روى عنه أبو نعيم وأهل أصبهان وله حديث في تفسير حسبي الله ونعم الوكيل من رواية أبي نعيم مات سنة ٣٦٩هـ. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج: ١ ص: ٤٩.

(٢) سورة البقرة آية (٢٠٨).

(٣) المفردات في غريب القرآن الأصفهاني ج: ١ ص: ٤٣٣.

(٤) سورة البقرة الآية (١٩٠).

(٥) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج:٢ ص:٨٩٤ ، الناسخ والمنسوخ للمقري، ج:١ ص: ٤٤، الناسخ والمنسوخ للكرمي ج: ١ص: ٦٤ ، البرهان في علوم القرآن، ج: ٢ ص: ٣٨.

(٦) سورة التوبة الآية (٥).

القتال وهذا أمر باقٍ ولم ينسخ، فقتال من قاتلنا فرض علينا. ولم يُنه عن قتال من لم يقاتل، ولكن يفهم ذلك من مدلول الآية. قال ابن الجوزي: (وهذا القائل إنما أخذه من دليل الخطاب ودليل الخطاب إنما يكون حجة إذا لم يعارضه دليل أقوى منه وقد عارضه ما هو أقوى منه كآية السيف وغيرها)[1]. وأما تفسيرهم الاعتداء بالابتداء فلعله غير مقبول فلا يعقل أن يكره الله ابتداء القتال ويعبِّر عنه بلفظ الاعتداء الدال على الذم ثم يأمر به لاحقا في الآية التاليةً!

الرأي الثاني: أنها نزلت في منع ابتداء القتال في الحرم. قال صاحب زاد المعاد: (وممن قال بذلك مقاتل)[2] فيكون معنى الآية على رأيهم: قاتلوا في سبيل الله في الحَرَم والأشهر الحُرُم من بدأكم بالقتال فيهما، ولا تعتدوا بأن تبدؤوا بالقتال فيهما. وقد جاء في أحد أسباب نزولها مايؤيد هذا القول (أنه عليه الصلاة والسلام خرج بأصحابه لإرادة الحج ونزل الحديبية وهو موضع كثير الشجر والماء فصدهم المشركون عن دخول البيت فأقام شهرا لا يقدر على ذلك ثم صالحوه على أن يرجع ذلك العام ويعود إليهم في العام القابل ويتركون له مكة ثلاثة أيام حتى يطوف وينحر الهدي ويفعل ما شاء، فرضي رسول الله ﷺ بذلك وصالحهم عليه ثم عاد إلى المدينة وتجهز في السنة القابلة ثم خاف أصحابه من قريش أن لا يفوا بالوعد ويصدوهم عن المسجد الحرام وأن يقاتلوهم وكانوا كارهين لمقاتلتهم في الشهر الحرام وفي الحرم فأنزل الله تعالى هذه الآيات وبين لهم كيفية المقاتلة إن احتاجوا إليها فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾)[3]. استبعد ابن الجوزي هذا الرأي[4].

ولعل رأي ابن الجوزي هو الأصوب لأن حصر الآية في هذا المعني تقييد لها بغير دليل ولا قرينة، فهي تأمر بقتال كل من اعتدى في كل زمان

---

(١) المصفى من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ج: ١ ص: ١٩.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ج: ١ ص: ١٩٧.

(٣) التفسير الكبير للرازي ج: ٥ ص: ١٠٩.

(٤) المصفى من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ج:١ ص: ١٩.

ومكان وهذا الأمر مقبول شرعا، فقد قاتل النبي ﷺ كفار قريش عندما قاتلوه في بدر. ومستنكر عقلا، فكيف تترك من يقاتلك وتقف مكتوف الأيدي! ولا يمكن قصر الآيات على سبب النزول ما لم يأت في الآية تصريح بذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ﴾[1] فهو نهي صريح في تحريم القتال في الحرم ولا يجوز تعميم الآية على جميع المساجد.

الرأي الثالث: أنها محكمة. وهو قول ابن عباس ومجاهد[2]. وعندهم الاعتداء يعني قتل النساء والولدان والشيخ الكبير ومن ألقى السلم وكف يده. وعلى رأيهم يكون معنى الآية : قاتلوا في سبيل الله من بدأكم بالقتال ولا تعتدوا بقتل من ليس من شأنه القتال كالشيوخ والنساء والأطفال وأرباب الصوامع.

ولعل الاعتداء يأتي من جهتين:

الأولى: قتل هؤلاء العجزة الذين لا شأن لهم في القتال. أما إذا شاركوا برأي أو مشورة فيدخلون بذلك في صنف المقاتلين فيجوز قتلهم.

الثانية: أن هؤلاء العجزة من النساء والأطفال أموال وغنائم للمجاهدين فيجب إبقاؤها والحفاظ عليها حتى يأخذها أصحابها.

الرأي الرابع: المراد بالآية تهييج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار[3].

قال ابن كثير: (الذين يقاتلونكم: إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم)[4].

ولعل الآية تحتمل هذا المعنى ولكنه ليس شيئاً أساسا فيها ولا هو كل ما يراد منها.

وقد تباينت أراء العلماء في الناسخ أيضاً إلى خمسة آراء:

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩١).

(٢) الناسخ و المنسوخ للنحاس ج: ١ ص: ١٠٧.

(٣) طبقات المفسرين ج: ١ ص: ٢٢٧.

(٤) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٢٢٧.

الأول: أن الناسخ لها هو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. لم يُنه في الآية المدَّعى نسخها عن قتال من لم يقاتلهم حتى يقال أنه نسخ ولكن يفهم ذلك من مدلول الآية كما سبق بيان ذلك في الصفحة السابقة. وأما تفسيرهم الاعتداء بالابتداء حتى يقال إنه منسوخ فلعله غير مقبول عقلاً فلا يعقل أن يكره الله ابتداء القتال و يعبِّر عنه بلفظ الاعتداء الدال على الذم ثم يأمر به لاحقاً في الآية التالية! كما سبق بيان ذلك أيضا ص: ١١٠. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، خاصة فيمن بدأ القتال وآية براءة عامة في قتالهم بدؤوا بالقتال أولم يبدؤوا به فهي أعم منها ومهيمنة عليها وليس ناسخة لها والله أعلم.

والثاني: أن الناسخ قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[2]. هذه الآية تأمر بقتل من بدأ بالقتال في أي مكان لأنها معطوفة على الآية السابقة[3]. قال ابن الجوزي: (تضمنت قتال الذين أمروا بقتالهم لأن قوله واقتلوهم عطف على المأمور بقتالهم)[4]. وبذلك فهي ليست ناسخة بل معضِّدة ومحرِّضة على قتالهم بسبب عدوانهم القديم على المؤمنين بمكة.

والثالث: قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

---

(١) سورة التوبة الآية (٥) التفسير الكبير الرازي ج: ٥ ص: ١٠٩.

(٢) سورة البقرة الآية (١٩١).

(٣) تفسير السمعاني ج: ١ ص: ١٩٢.

(٤) نواسخ القرآن لابن الجوزي ج: ١ ص: ٧١.

صَاغِرُونَ﴾[1][2]. هذه الآية خاصة بأهل الكتاب كما سيأتي بيانها في الفصل الرابع من هذا المبحث. وذلك لذكرهم صراحة. قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أمر بقتال أهل الكتاب ونفى عنهم الإيمان بالله؛ لقول اليهود عزير ابن الله؛ وقول النصارى المسيح ابن الله)[3]. فهي ليست عامة في كل من لا يؤمن. ويأمر الله فيها بقتالهم ابتداء ومن الأحرى إذا اعتدوا فهي إن اعتُبرت عامة تكون متضمنة ومهيمنة كسابقتها وليست ناسخة.

والرابع: قال ابن زيد الناسخ لها قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]. ولعل هذه الآية تحمل المعنى نفسه وليست ناسخة؛ فهي تدعو المؤمنين مجتمعين متحدين لقتال أعدائهم الذين بدؤوهم بالقتال وهم مجتمعون متحدون. فهي في الدفاع أيضا وليست في ابتداء القتال.

والخامس: قيل الناسخ لها قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[5]. قال صاحب تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: (اختلف أهل التأويل فيما نزل فيه قوله: :﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ . فقال بعضهم بما حدثني به المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فهذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل وليس لهم سلطان يقهر

---

(١) سورة التوبة الآية (٢٩).

(٢) نواسخ القرآن لابن الجوزي ج: ١ ص: ٧١.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج: ٢ ص: ٧٣.

(٤) سورة التوبة الآية (٣٦) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج:٢ ص: ١٨٩٤.

(٥) سورة البقرة الآية (١٩٤) الناسخ والمنسوخ للكرمي ج: ١ ص: ٦٤.

المشركين، وكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى، فأمر الله المسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أوتي إليه أو يصبر أو يعفو فهو أمثل، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأعز الله سلطانه أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم. وأن لا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية. وقال آخرون بل معنى ذلك فمن قاتلكم أيها المؤمنون من المشركين فقاتلوهم كما قاتلوكم. وقالوا نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ بالمدينة وبعد عمرة القضاء. ذكر من قال ذلك: حدثني القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن بن جريج قال: قال مجاهد: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فقاتلوهم فيه كما قاتلوكم. وأشبه التأويلين بما دل عليه ظاهر الآية الذي حكي عن مجاهد؛ لأن الآيات قبلها إنما هي أمر من الله للمؤمنين بجهاد عدوهم على صفة وذلك قوله ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ والآيات بعدها، وقوله ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ إنما هو في سياق الآيات التي فيها الأمر بالقتال والجهاد. والله جل ثناؤه إنما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة، فمعلوم بذلك أن قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ مدني لا مكي. إذ كان فرض قتال المشركين لم يكن واجبا على المؤمنين بمكة وأن قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[1]. وأن معناه فمن اعتدى عليكم في الحرم فقاتلكم فاعتدوا عليه بالقتال نحو اعتدائه عليكم بقتاله إياكم لأني قد جعلت الحرمات قصاصا، فمن استحل منكم أيها المؤمنون من المشركين حرمة في حرمي فاستحلوا منه مثله فيه)[2]. مما سبق وبغض النظر عن اختلاف العلماء في

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٠).

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج: ٢ ص: ١٩٩.

مكان نزولها، فإن هذه الآية أيضا تأمر برد العدوان بالمثل والاعتداء بمعنى الجزاء على عدوانهم وهو كقوله تعالى:(وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها)[1]. فهي في الدفاع أيضا ولو كانت في ابتداء القتال فهي ليست ناسخة أيضا بل متضمنة ومشتملة عليها.

قال الله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[2]. هذه الآية كما أسلفت تأمر بقتال من بدأ بالقتال في أي مكان فهي معطوفة على الآية السابقة قال ابن الجوزي: (تضمنت قتال الذين أمروا بقتالهم لأن قوله واقتلوهم عطف على المأمور بقتالهم)[3]. فهي تحرض المؤمنين على قتال المشركين في أي مكان سوى المسجد الحرام إلا إذا وقع منهم القتال فيه، وذلك بسبب عدوانهم القديم عليهم فقد عذبوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وأهليهم وعملوا على فتنتهم عن دينهم وردهم إلى الشرك. قال الإمام الشافعي رحمه الله: (يقال نزل هذا في أهل مكة وهم كانوا أشد العدو على المسلمين ففرض عليهم في قتالهم ما ذكر الله عز وجل)[4]. قال صاحب تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: (يعني تعالى ذكره واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم وأمكنكم قتلهم)[5].

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[6]. بيّن الله في آخر الآية السابقة أن الملاحقة والقتل هو جزاء الكافرين لما فعلوه بالمؤمنين.

---

(١) سورة الشورى الآية رقم (٤٠).

(٢) السورة السابقة الآية (١٩١).

(٣) نواسخ القرآن لابن الجوزي ج:١ ص: ٧١.

(٤) أحكام القرآن للشافعي ج: ٢ ص: ١٤.

(٥) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج: ٢ ص: ١٩١.

(٦) سورة البقرة الآية (١٩٢).

وفي هذه الآية فتح لهم باب التوبة ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن هم انتهوا عن كفرهم وعدوانهم. قال ابن كثير: (أي فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه)[1].

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2]. كما أمر الله بالكف عنهم في الآية السابقة إذا انتهوا عن كفرهم وظلمهم أمر في هذه الآية بقتالهم إن هم بقوا على شركهم وكفرهم حتى يزول الشرك والكفر ويخلُص الدين لله. ويبين ذلك قول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: عنِ ابنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأَموالَهُم إلاّ بِحَقِّ الإسلامِ، وحسابُهم عَلَى اللّه)[3]. فإن قيل كيف تطهر الأرض من الشرك والكفر والله سبحانه وتعالى قد قضى ألا يؤمن أكثر الناس؟!قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[5]. جاء الجواب من عدة أوجه:

الأول: (المقصود إزالة الشرك عن مكة وما حولها. ويؤيد ذلك إجلاء الرسول الله ﷺ كل مشرك من الحرم ثم أجلاهم أيضا من المدينة وقال عليه الصلاة والسلام لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)[6]. ولعل هذا القول صحيح وقد حدث وهو مأمور به في كل زمان ولكن لا يجوز التعلل بهذا الحديث لقتل المعاهدين الذين جلبهم ولي الأمر لمنفعة أو أمر يعلمه هو

---

(١) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٢٢٨.

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٣).

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٢٥).

(٤) سورة يوسف الآية (١٠٣).

(٥) السورة السابقة الآية (١٠٦).

(٦) التفسير الكبير للرازي ج: ٥ ص: ١١٣.

أو حتى خوفا من حكوماتهم ليتقي شرها، فالمداراة مشروعة في كتاب الله تعالى فقد قال عز وجل: ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾[1]. ولعل حصر إزالة الشرك في جزيرة العرب وحدها لا يؤيده قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]. وقول النبي ﷺ: عن ابنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللّه، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إِلاّ بِحَقِّ الإِسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه)[3].

فالآية والحديث صريحان في أن المراد هو الشرك في كل مكان.

الثاني: (أن هذا محمول على الأغلب لأن الأغلب عند قتالهم زوال الكفر والشرك لأن من قتل فقد زال كفره ومن لا يقتل يخاف منه الثبات على الكفر فإذا كان هذا هو الأغلب جاز أن يقال ذلك)[4].

ولعل هذا قولا بعيدا أيضا لأن الأغلب بقاء أكثر الناس على الشرك. وقتل أكثر الناس لكونهم غير مسلمين لتبقى الأقلية المؤمنة فقط ولا يبقى على الأرض كافر ينافي أحكام الجزية التي تضرب على غير المسلمين ولا ترفع إلا على يد عيسى عليه السلام. وتنافي علامات الساعة التي منها أن تقوم على شرار الناس ولابد أن يكوم فيهم كافر أو مشرك. وتنافي حرية الاعتقاد أيضا. فلابد من كفالة الحياة وحرية الاعتقاد لكل الناس. ولكن لابد من تنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال السلم والحرب.

---

(١) سورة آل عمران الأية (٢٨).

(٢) سورة الأنفال الآية (٣٩).

(٣) صحيح البخاري حديث رقم: ٩٢ صحيح مسلم حديث رقم: ٩٣٤٣ مسند الإمام أحمد حديث رقم: (٢٦٦٧) الترمزي حديث رقم:(٢٤٤٧) الدارمي حديث رقم: (٢٦٤٣) أبو داود حديث= =رقم(٢٢٣٦) صحيح ابن حبان ج:١ ص:٥٢ سنن النسائي قم (٣٠٩٢) سنن ابن ماجة ج:٢ ص: ١٢٩٥. البيان والتعريف ج :١ ص: ٨٨.

(٤) التفسير الكبير للرازي ج :٥ : ص: ١١٣.

الثالث: (أن المراد قاتلوهم قصدا منكم إلى زوال الكفر لأن الواجب على المقاتل للكفار أن يكون مراده هذا ولذلك متى ظن أن من يقاتله يقلع عن الكفر بغير القتال وجب عليه العدول عنه)[1]. وهذا قول متعلق بالنية والقصد وبيان الهدف، وآية الأنفال والحديث السابقان صريحان في أن المراد هو الشرك بعينه أو ما يفتن المؤمن عن دينه.

الرابع: (قاتلوهم حتى تظهروا عليهم فلا يفتنوكم عن دينكم فلا تقعوا في الشرك. قال عروة بن الزبير كان المؤمنون في مبدأ الدعوة يفتنون عن دين الله فافتتن من المسلمين بعضهم وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة. وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة تآمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم فأصاب المؤمنين جهد شديد فهذا هو المراد من الفتنة فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة)[2]. وعن نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاما وتقيم عاما وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال يا بن أخي بني الإسلام على خمس الإيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت قالوا يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[3]، (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)[4]. قال فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلا فكان الرجل يفتن في دينه إما يقتلونه وإما يعذبونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة)[5]. ولعل هذا معنىً صحيحاً وقد مات رسول الله ﷺ والمسلمون أقوياء ولا أحد يفتن في دينه، ولو

---

(١) المصدر السابق ص: ١١٣.

(٢)المصدر السابق ص: ١١٣.

(٣) سورة الحجرات الآية رقم (١٠).

(٤) سورة البقرة الآية رقم (١٩٣).

(٥) صحيح البخاري (الجزء الخاص التفسير) ج: ٤ ص: ١٦٤١.

كانت هذه هي الغاية من القتال انتوقف بعد حدوثها، ولكنّ الجهاد استمر على أشده إلى آخر عهد رسول الله ﷺ و مات عليه السلام ولواء الجهاد معقود بيد أسامة ابن زيد لم ينفك بعد. ولم يقاتل هو وأصحابه الكرام حتى انجلت الأرض من الشرك كما أمرت الآية الكريمة وبين الحديث الشريف؛ ولكن تركوا على الأرض شركاً كثيراً وعمل المؤمنون مَن بعدهم لإزالته ومازالوا يعملون.

الخامس: (حتى يزول الكفر ويثبت الإسلام وحتى يزول ما يؤدي إلى العقاب. المراد الأمر بالقتال لحصول هذا الغرض سواء حصل في نفس الأمر أو لم يحصل)[1]. ولعل هذا هو المعنى الأصح الوافي. فعلى المؤمنين امتثال أمر الله تعالى بالعمل على إزالة الكفر والشرك عن الأرض. وقد قام النبي بإزالة ما استطاعه من الشرك، وقام خلفاؤه الراشدون بما قدروا عليه وبقي بعدهم شرك كثير على المسلمين أن يعملوا على إزالته وقضى الله ألاَّ يزول! ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وتصير الإجابة على السؤال: لماذا أمر الله بما قضى ألا يتحقق؟ هي: لعل الله عنى بذلك- وهو أعلم بما أراد- استمرار قتال المشركين إلى يوم القيامة لأن الشرك باق إلى يوم القيامة. فيكون معنى الآية والله أعلم: قاتلوا المشركين حتى يزول شركهم عن الأرض وأن القتال مستمر إلى يوم القيامة طالما أن الشرك مستمر كذلك. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[3]. والمعنى أنهم يبقون في النار أبداً لأن الجمل لا يدخل في سم الخياط أبداً، والقتال باق أبداً لأن الشرك باق إلى الأبد. ويحمل على ذلك معنى الحديث (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، ويُقِيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ.

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج : ٥ ص: ١١٣.

(٢) سورة يوسف الآية (١٠٣).

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٠).

فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إلاّ بِحَقِّ الإسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه)[1]. ويؤيد هذا المعنى أيضا قول النبي ﷺ: (الخيلُ مَعْقُودٌ في نواصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ: الأَجْرُ والمغْنَمُ)[2] ذكر ﷺ بقاء الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، وفسره بالأجر والمغنم، المغنم المقترن بالأجر إنما يكون من الخيل بالجهاد، وقوله ﷺ: (ثلاثٌ من أصل الإيمان: الكَفُّ عن مَن قال لا إله إلا الله لا تخرجه من الإسلام بذَنْب، والجهادُ ماضٍ لا يُبْطله جور جائر، والإيمان بالقَدَر كُلِّه)[3]. وإن قيل كيف تستخدم القوة لحمل الناس على الإيمان وترك الشرك والله تعالى يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[4]. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[5]! قال الكلبي[6] في تفسير هذه الآية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ المعنى أن دين الإسلام في غاية الوضوح وظهور البراهين على صحته بحيث لا يحتاج أن يكره أحد على الدخول فيه)[7]. وبقيت الإجابة على السؤال المطروح على أوجه:

الأول: المقصود بها: من أسلم بعد الحرب وحسن إسلامه المعنى: (لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب إنه دخل مكرها؛ لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره. ومعناه لا تنسبوهم إلى الإكراه ونظيره

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٢٥).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٢٧٨٧) فتح الباري باب الجهاد ماض مع البر والفاجر.

(٣) سنن أبي داود ج: ١ ص: ٤٩٥.

(٤) سورة البقرة الآية (٢٠٦).

(٥) سورة يونس الآية (٤٧).

(٦) محمد بن أحمد بن محمد بن محمود الكازروني الأصل المدني الشافعي . ولد في سنة سبع وخمسين وسبعمائة بالمدينة وتوفي أبوه وهو صغير وكفله عمه العز عبد السلام وكان عالما ومصنفا. وولي قضاء المدينة وتوفي في شهر شوال سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة .انظر طبقات المفسرين للداودي ج:١ ص: ٣٢٥.

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج:١ ص: ٨٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾[1])[2].ويكون تأويل الآية على هذا الرأي: إن هؤلاء عندما دخلوا في الدين قسراً بالحرب ولم يكونوا مقتنعين، ولم يكن الحق واضحا لهم، ثم علموا بعد ذلك البراهين والدلائل الواضحة على صحته، فحسن إسلامهم فصاروا داخلين في من أسلم طوعا لا كرها، فليس من الحق أن يقال لهم مكرهين بعد ذلك. ويكون تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3]هو: الإنكار على الرسول ﷺ اجتهاده لكي يُخلص الناس إيمانهم، فصدق الإيمان لا يأتي بالإكراه بل بالإقناع والاقتناع. إن كان الأمر كذلك فقد زال الإشكال، ولكن لا دليل على أن المراد من الآية هم الذين أسلموا بالحرب وحسن إسلامهم وأسباب نزول الآية الذي ملخصه: (أن أناسا من الأنصار تهودوا قبل الإسلام وأراد أهلهم إكراههم على الإسلام فأنزل الله هذه الآية)[4] يخالف هذا الزعم.

الثاني: أنها خاصة باليهود قال قتادة والضحاك بن مزاحم: (هذه الآية محكمة خاصة في أهل الكتاب الذين يبذلون الجزية)[5]. وإذا خُصت الآية بأهل الكتاب يكون المعنى: لا تكرهوا اليهود والنصارى على الإسلام فقد تبين لهم الهدى من الضلال، وقد دفعوا الجزية، وغيرهم لم يتبين لهم بعد، وليس عليهم جزية فاكرهوهم عليه. ولعل عدم إكراههم ربما يأتي لتميزهم بالآتي:

أولاً: أهل علم بالكتاب يمكن إقناعهم بالحجج والبراهين لعلمهم وإحاطتهم بالتوراة والإنجيل.

ثانياً: منهم من هو مؤمن عابد موحد. فهم بذلك ليسو كغيرهم.

---

(١) سورة النساء الآية (٩٤).

(٢) التفسير الكبير للرازي ج: ٧ ص: ١٤.

(٣) سورة يونس الآية (٩٩).

(٤) الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ٢٠.

(٥) تفسير الثعالبي ج:١ ص:٢٠٢، تفسير السمعاني ج:١ ص: ٢٦٠.

ولو كان الأمر كذلك فقد زال الإبهام أيضا، ولكن لا دليل على أن الآية مخصوصة بأهل الكتاب وإن كان سبب النزول فيهم، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول علماء الأصول. فهي عامة الدلالة وتخصيصها يحتاج إلى دليل واضح وبين. ودلالات وبراهين صدق الدين التي وضحت لأهل الكتاب قد تبينت لمشركي قريش أيضا، ولكنهم جحدوا الحق مكابرةً وقد أخبر الله رسوله ﷺ بذلك في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (١).

الثالث: أنها منسوخة. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سليمان بن موسى (٢) في قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾: قال نسختها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٣). قال ابن مسعود رضي الله عنه: (منسوخة بآية السيف) (٤).

قال صاحب فتح القدير: (أنها منسوخة لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام والناسخ لها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٦) وقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (٧). ولعل الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ

---

(١) سورة الأنعام الآية (٣٣).

(٢) سُلَيْمَانُ بنُ مُوسَى القُرَشِي الأُمَوِي، أَبُو أَيُّوب، ويقال: أَبُو الرَّبِيْع، ويقال: أَبُو هِشَام، الدِّمَشْقِي الأَشْدَق، مَوْلَى آلِ أَبِي سُفْيَانَ بن حَرْب، فَقِيه أَهْلِ الشَّام في زمانه. انظر تهذيب الكمال ج: ٧ ص: ٢١٩.

(٣) سورة التوبة الآية (٧٣) الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ٢٢.

(٤) تفسير البغوي ج: ١ ص: ٢٤٠.

(٥) تح القدير للشوكاني ج: ١ ص: ٢٧٥.

(٦) سورة التوبة الآية (١٢٣).

(٧) سورة الفتح الآية (١٦).

مِنَ الْغَيِّ﴾[1]. لا يمكن أن تكون منسوخة لأن منع الإكراه معلل بتميُّز الهدى من الضلال، وبيان الحق من الباطل، ولم يزُل التباين بينهما حتى تنسخ الآية لذلك.

وأما الآية من سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2]! فهي أشد إباءً للنسخ من سابقتها لأنها تحتوي على استفهام استنكاري، فالله تعالى يقول للنبي ﷺ منكرا عليه اجتهاده في حمل الناس على الإيمان: هل تريد أن تكره الناس حتى يصيروا مؤمنين؟! فإنك لا تقدر على ذلك لأن الهداية بيد الله وحده وهو القادر على هداية الناس جميعا إذا شاء. فكيف يستساغ أن يستنكر الله شيئاً ثم يأمر به لاحقا!

الرابع: أن المقصود بالدين الطاعة: (قيل يعني الطاعة فإن ذلك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه)[3]. وهذا غير مقنع لأن الطاعة قد تأتي بالإكراه. وقد يزع[4] الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. {وفي الحديث (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن}[5]. وتبقى الإجابة على السؤال: كيف تستخدم القوة لحمل الناس على الإيمان وترك الشرك؟! لعل ما يقرب هذه الآراء: أن المقصود بالدين هنا هو الدينونة، بمعنى الخضوع والاحتكام ويكون معنى الآية – والله أعلم– قاتلوا أيها المؤمنون حتى لا تكون فتنة تمنع أن يدين الناس لله ويلتزموا بحكمه، كلٌ حسب الحكم الذي وضع له، فللمؤمن أحكام يجب أن يلتزم بها، وللكافر أحكام أيضا يجب أن يسير في محيطها ولا يتعدونها.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٠٦).

(٢) ورة يونس الآية (٩٩).

(٣)غريب القرآن للأصفهاني ج:١ ص: ١٧٥.

(٤) يَزَعُ ويَزِعُ وَزْعاً: كفَّه فانْزَعَ هو أي كَفَّ لسان العرب باب الواو. ج: ٨ ص: ٣٩٠.

(٥) تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ٦٠.

ويكون معنى الدين في الآية الأخرى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بمعنى الإيمان. فبعد أن يدين الناس لأحكام الله يبقى الإيمان مربوطا بالاقتناع لا بالإكراه، وقد روي عن عمر رضي الله عنه ما يؤكد هذا المعنى. عن وسق الرومي قال: (كنت مملوكا لعمر بن الخطاب فكان يقول لي أسلم فإنك لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فإني لا أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم فأبيت عليه فقال لي: لا إكراه في الدين)[1]. ولم يقتله عمر رضي الله عنه هو في جزيرة العرب، وهو لم يقل لا إله إلا الله ويكون المقصود من الحديث (أمرت أن أقاتل الناس ...) هو استمرار القتال كما أسلفنا وليست المعنى الظاهر، فلو كان المقصود هو المعنى الظاهر فلماذا أبقى عمر على هذا الغلام؟ ولماذا كان النبي ﷺ وأصحابه من بعده يقبلون الجزية من أهل الكتاب وغيرهم وهم لم يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ ولكان حكم الجزية منسوخا بهذا الحديث؛ وهذا النسخ لم يقل به أحد بل جاء ما يؤكد استمراره إلى آخر الزمان. فقد قال رسول الله ﷺ في نزول عيسى عليه السلام: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا وحكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير وتوضع الجزية وتضع الحرب أوزارها)[2]. وفي رواية للإمام أحمد: (يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[3]. وتبقى الإجابة على السؤال: كيف تستخدم القوة لحمل الناس على الدين والإكراه غير مسموح به؟! هي أن الإكراه من أجل الخضوع لأحكام الله وأما أمر الإيمان فلا إكراه فيه.

---

(١) لدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ٢٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ج: ٥ ص: ٣٣.

(٣) مسند الإمام أحمد حديث رقم: (٧٢٤٧).

قال الله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١). لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال من ابتدأ القتال في الآيات السابقة والكف عنهم إذا انتهوا، بين لهم في هذه الآية إذا قاتلهم المشركون في شهر حرام فلا حرج عليهم أن يقاتلوهم فيه، ومن نال من حرماتهم فعليهم أن يقتصوا منه، ومن اعتدى عليهم فليأخذوا منه بقدر اعتدائه ولا يتجاوزوا إلى حد الظلم. قال صاحب تفسير جامع البيان في سبب نزول هذه الآية: (يعني جل ثناؤه ذا القعدة وهو الشهر الذي كان رسول الله ﷺ اعتمر فيه عمرة الحديبية فصده مشركو أهل مكة عن البيت ودخول مكة، وكان ذلك سنة ست من هجرته، وصالح رسول الله ﷺ المشركين في تلك السنة على أن يعود من العام المقبل فيدخل مكة ويقيم ثلاثا. فلما كان العام المقبل وذلك سنة سبع من هجرته خرج معتمرا وأصحابه في ذي القعدة وهو الشهر الذي كان المشركون صدوه عن البيت فيه في سنة ست، وأخلى له أهل مكة البلد حتى دخلها رسول الله ﷺ فقضى حاجته منها وأتم عمرته وأقام بها ثلاثا ثم خرج منها منصرفا إلى المدينة)(٢). قال مجاهد: (فخرت قريش بردها رسول الله ﷺ يوم الحديبية محرما في ذي القعدة عن البلد الحرام فادخله الله مكة في العام المقبل في ذي القعدة فقضى عمرته قضاها بيوم الحديبية فقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ (٣).

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٤).

(٢) فسير جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ج: ٢ ص: ١٩٦.

(٣) تفسير مجاهد ج: ١ ص: ٩٨.

اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. نزلت هذه الآية وكان للمشركين مع المسلمين مواقف متباينة، فمنهم المعاهد، ومنهم غير المعاهد أو ناكث للعهد، فأمر الله بإتمام العهد للمعاهدين أربعة أشهر، ومن بقي من عهده مُدَّة أطول من ذلك واستقام على عهده ولم ينقض العهد أُتمت له مدته إلى عهده، وأما الناكثون وغير المعاهدين فقد أمر الله بعد انقضاء الأشهر الحرم بقتلهم، وأسرهم، ومحاصرتهم، والتضييق عليهم، وترقبهم في مداخلهم ومخارجهم، ولا نجاة لهم من ذلك إلا التوبة، والالتزام بأداء الصلاة والزكاة، وقد بدأ الجهاد بهذه الآية مرحلة جديدة وهي مرحلة الابتداء والمبادرة من أجل نشر الهداية، وإدخال الناس في دين الله، وإخضاعهم لسلطانه. (أخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان لقوم عهود فأمر الله ﷻ أن يؤجلهم أربعة أشهر يسيحون فيها ولا عهد لهم بعدها وأبطل ما بعدها وكان قوم لا عهود لهم فأجلهم خمسين يوما عشرين من ذي الحجة والمحرم كله فذلك قوله: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ)[2]. فدين الإسلام ليس دينا جامدا منطوياً على نفسه ينتظر عدوَّه ليأتيه في مكانه ويهجم عليه في دياره ثم يقوم ليحاربه، ولكنها مراحل ابتدأت بالدفاع وتدرجت إلى المبادرة والابتداء. وقد تعرضت الآية للأسرى ولكن لم تبين مصيرهم. وقد بين الله حكم الأسرى في سورة محمد في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[3]. وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم إن شاء الله.

وقاله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[4]. (هو أجل ضربه الله لمن كان بينه وبينهم عهد وتحسس منهم نقضه وأول هذا الأجل يوم الآذان وآخره انقضاء العشر الأول من ربيع الآخر وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ

---

(١) سورة التوبة الآية (٥).

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج: ٤ ص: ١٢٦.

(٣) سورة محمد الآية رقم (٤).

(٤) سورة التوبة الآية (٢).

الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [1] حكم مباين للأول حكم به في المشركين الذين لا عهد لهم البتة، فجاء أجل تأمينهم خمسين يوما أولها يوم الأذان وآخرها انقضاء المحرم. وقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تحسس منهم نقض وهم فيما روي بنو ضمرة من كنانة كان بقي من عهدهم يوم الأذان تسعة أشهر)[2]. ولعل هذه الآية خاصة بمشركي العرب وأما أهل الكتاب فقد نزل في شأنهم قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [3] فلا يجوز تعميمها لتشملهم. وبين الآيتين فرق بيّن:

أولاً: فالآية الأولى صرحت بلفظ المشركين وأما أهل الكتاب فلم يسمهم الله ولا رسوله بهذا الاسم. بل اسمهم في القرآن الكريم أهل الكتاب واليهود والنصارى وبنو إسرائيل. وأما الآية الثانية فقد صرحت بذكرهم.

ثانيا: الآية الأولى تأمر بقتل المشركين جماعات وأفرادا، وأن يرصدوا في طرقاتهم، ويؤسروا، وتضع شرطاً واحداً لتخلصهم من هذه الحال وهي التوبة من الشرك والالتزام بشعائر الدين. وأما الآية الثانية فتأمر بالقتال وليس بالقتل مما يدل على أنه معركة بين جيشين منظمين وليس قتلا في كل مكان وليس فيه خطف وأسر وتتبع للأفراد.

ثالثا: أما الآية الثانية فصرحت بقبول الجزية من أهل الكتاب.

وقد اختلف العلماء في نسخ هذه الآية إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم السواد الأعظم يرى أنها محكمة. ويكون الأمر فيها كما ذكرت في الصفحة السابقة أنها خاصة بالمشركين.

---

(١) السورة السابقة الآية (٥).

(٢) تفسير الثعالبي ج: ٢ ص: ١١٥.

(٣) سورة التوبة الآية (٢٩).

والفريق الآخر: يرى أنها منسوخة ومنهم السدي وعطاء، قالوا هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[1]. وسبب النسخ عندهم أن آية براءة أمرت بالقتل ولم تذكر المن والفداء، وأما آية سورة محمد فقد ذكرتهما. وقالوا لا يجوز قتل أسير البتة صبرا إما أن يمن عليه وإما أن يفادى. وقال قتادة ومجاهد وغيرهما: قوله فإما منا بعد وإما فداء منسوخ بهذه الآية، وقالوا لا يجوز المن على أسير ولا مفاداته ولا شيء إلا القتل. وقال ابن زيد هما محكمتان. قال صاحب المحرر الوجيز: (والآيتان لا يشبه معنى واحدة معنى الأخرى. وذلك أن هذه الآية قوله فاقتلوا المشركين وخذوهم واحصروهم أفعال إنما تمتثل مع المحارب المرسل المناضل وليس للأسير فيها ذكر ولا حكم، وإذا أخذ الكافر خرج عن درجات هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية الأخرى وتلك الآية لا مدخل فيها لغير الأسير، فقول ابن زيد هو الصواب. وقوله خذوهم: معناه الأسر وقوله كل مرصد: معناه في مواضع الغرة حيث يرصدون)[2]. ولعل هذا أرجح الأقوال، لأن آية براءة لم تحدد مصير الأسرى فلم تأمر بقتلهم وبفدائهم أو المن عليهم وقد حددته آية سورة محمد وفعل النبي والخلفاء الراشدين فلا يجوز القول بالنسخ.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[3]. أمر الله المؤمنين في هذه الآية إذا التقى معهم أعداؤهم الكفار في حرب أن يضربوا أعناقهم كناية عن القتل، حتى يكثروا فيهم القتل والجراح ثم يأسروهم، ثم بعد ذلك خيرهم إما أن يمنوا عليهم أو يفادوهم بالمال أو بأسرى من المسلمين. وليكن الحال

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج: ٣ ص: ٨. سورة محمد الآية(٤)

(٢) المصدر السابق ج: ٣ ص: ٨.

(٣) سورة محمد الآية (٤).

كذلك حتى تضع الحرب أوزارها. قال ابن كثير[1]:{ قال مجاهد: (حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام). وكأنه أخذه من قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال}[2]. ثم بين الله تعالى أنه قادر على أن ينتصر من الكفار دون قتال المؤمنين، وبين الحكمة من تسليط المؤمنين على الكافرين وهي الابتلاء للفريقين. ثم بشر الشهداء بأن أعمالهم لن تضيع بلا أجر وثواب. وللعلماء في الآية ثلاثة آراء:

قال فريق منهم: أنها منسوخة بآية براءة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾[3]. ومنهم (ابن عباس وقتادة وابن جريج والسدي وقالوا: إن الأسر والمن والفداء مرتفع فمتى وقع أسر فإنما معه القتل ولا بد. وروي نحوه عن أبي بكر الصديق)[4].

وقال الفريق الثاني: أنها محكمة. ومنهم (ابن عمر وعمر بن عبد العزيز[5] وعطاء قالوا: إن هذه الآية محكمة مبينة لتلك والمن والفداء ثابت وقد منَّ رسول الله ﷺعلى ثمامة بن أثال وفادى أسرى بدر)[6]. قال الثعالبي: (وهو قول أكثر العلماء إن هذه الآية وآية السيف وهي قوله تعالى:﴿فَاقْتُلُوا

---

(١) سبق تعريفه ص (٢٧)

(٢) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ١٧٤.

(٣) سورة التوبة الآية رقم (٥).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج:٥ ص:١١٠، ناسخ القرآن ومنسوخه لابن البازري ج:١ ص: ٤٩.

(٥) عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ بنِ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أبي العَاصِ بنِ أُمَيَّة القُرَشِي الأُمَوِي، أَبُو حَفْصٍ المَدَنِي ثمَّ الدِّمَشْقِي أميرُ المؤمنين الإمَامُ، العَادِلُ والخَلِيْفَةُ الصَّالِحُ. وأمه أم عاصم حَفْصة، وقيل: ليلىٰ بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولِيَ الخلافة بعد ابن عمه سُلَيمان بن عبد الملك بن مروان. وكان من أئمة العَدْل وأهل الدِّين والفَضْل، وكانت ولايته تسعة وعشرين شهرا مثل ولاية أبي بكر الصِّدّيق. تهذيب الكمال ج:١٣ ص:١٦٣.

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج:٥ ص:١١٠.

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾ محكمتان فقوله هنا فضرب الرقاب بمثابة قوله هنالك فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وصرح هنا بذكر المن والفداء ولم يصرح به هنالك فهذه مبينه لتلك)[1]. ولعل هذا أقوى الأقوال. وهو ما يتضح لي أيضا كما أسلفت.

وقال الفريق الثالث: أنها ناسخة لآية السيف.

(ذكره الضحاك)[2]. وهذا قول بعيد لا يعقل، فآية السيف نزلت بعد آية سورة محمد فتكون بذلك نُسخت قبل أن تنزل. جاء في تفسير النسفي:

والمن والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله اقتلوا المشركين لأن سورة براءة من آخر ما نزل[3].

المطلب الثاني: قتال الكفار

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[4]. لقد أمر الله النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين وأمته تبع له لأنه رسولها وإمامها وقائدها، ولم يبين نوع المجاهدة مما يدل على أن المراد كل أنواع المجاهدة بحسب ما يقتضيه الحال وتسمح به الظروف.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[5]. كما بينت سابقا أن الجهاد قد بدأ مرحلة جديدة وهي مرحلة الابتداء بالقتال. ولا شك أنها مرحلة خطيرة تحتاج إلى تخطيط دقيق حتى تكلَّل بالنجاح، وقد وضع الله هذه الخطة وبينها في هذه الآية. أمر الله فيها المؤمنين بقتال الأقرب فالأقرب ولا تخفي جوانب من

---

(١) تفسير الثعالبي ج:٤ ص:١٦١.

(٢) تفسير السمعاني ج: ٥ ص: ١٦٩.

(٣) تفسير النسفي ج:٤ ص:١٤٥

(٤) سورة التوبة الآية (٧٣).

(٥) سورة التوبة الآية (١٢٣).

الحكمة في ذلك فالأقرب أشد خطراً وأبصر بمواضع الغرة وأسرع لانتهاز الفرصة من العدو النائي. وقد أسهب المفسرون في بيان الحكمة في ذلك وحكمة الله لا يحاط بها أجمع، ومن تلك الحكم على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره صاحب التفسير الكبير حيث قال: (إن الابتداء بالغزو من المواضع القريبة أولى لوجوه:

الأول: أن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة، ولمّا تساوى الكل في وجوب القتال؛ لما فيهم من الكفر والمحاربة وامتنع الجمع وجب الترجيح. والقرب مرجح ظاهر كما في الدعوة وكما في سائر المهمات. ألا ترى أن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة لهذا المهم فوجب الابتداء بالأقرب:

الثاني: أن الابتداء بالأقرب أولى لأن النفقات فيه أقل والحاجة إلى الدواب والآلات والأدوات أقل.

الثالث: أن الفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فقد عرضوا الذراري للفتنة.

الرابع: أن المجاورين لدار الإسلام إما أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء فإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد وأكثر من تعرض الكفار المتباعدين والشر الأقوى الأكثر أولى بالدفع وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل وحصول عز الإسلام لسبب انكسارهم أقرب وأيسر فكان الابتداء بهم أولى.

الخامس: أن وقوف الإنسان على حال من يقرب منه أسهل من وقوفه على حال من يبعد منه وإذا كان كذلك كان اقتدار المسلمين على مقاتلة الأقربين أسهل لعلمهم بكيفية أحوالهم وبمقادير أسلحتهم وعدد عساكرهم.

السادس: أن دار الإسلام واسعة فإذا اشتغل أهل كل بلد بقتال من يقرب منهم من الكفار كانت المؤنة أسهل وحصول المقصود أيسر.

السابع: أنه إذا اجتمع واجبان وكان أحدهما أيسر حصولا وجب تقديمه والقرب سبب السهولة فوجب الابتداء بالأقرب.

الثامن: أنا بينا أن رسول الله ﷺ ابتدأ في الدعوة بالأقرب فالأقرب وفي الغزو بالأقرب فالأقرب وفي جميع المهمات كذلك فإن الأعرابي لما جلس على المائدة وكان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من تلك المائدة قال عليه السلام له كل مما يليك فدلت هذه الوجوه على أن الابتداء بالأقرب فالأقرب واجب. فإن قيل ربما كان التخطي من الأقرب إلى الأبعد أصلح لأن الأبعد يقع في قلبه أنه إنما جاوز الأقرب لأنه لا يقيم له وزنا. قلنا ذاك احتمال واحد وما ذكرنا احتمالات كثيرة ومصالح الدنيا مبنية على ترجيح ما هو أكثر مصلحة على ما هو الأقل وهذا الذي قلناه إنما قلناه إذا تعذر الجمع بين مقاتلة الأقرب والأبعد أما إذا أمكن الجمع بين الكل فلا كلام في أن الأولى هو الجمع فثبت أن هذه الآية غير منسوخة البتة)[1].

وقد أمر الله بالغلظة مع العدو أيضا وهي الشدة والبأس لإدخال الرعب في قلبه، وإزالة الطمع من نفسه، ويُشرَّد به من خلفه: قال صاحب أحكام القرآن:(﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: فيه أمر بالغلظة على الكفار الذين أمرنا بقتالهم في القول والمناظرة والرسالة إذ كان ذلك يوقع المهابة لنا في صدورهم والرعب في قلوبهم ويستشعرون منا به شدة الاستبصار في الدين والجد في قتال المشركين ومتى أظهروا لهم اللين في القول والمحاورة استجرءوا عليهم وطمعوا فيهم فهذا حد ما أمر الله به المؤمنين من السيرة في عدوهم)[2].وهذه الآية مُتضمّنَة في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[3]. وليست منسوخة بها. قال الرازي :(نقل عن الحسن أنه قال هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافة ثم إنها صارت منسوخة بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ . وأما المحققون فإنهم أنكروا هذا النسخ وقالوا إنه تعالى لما أمر بقتال المشركين كافة أرشدهم في ذلك

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج: ١٦ ص: (١٨١ -١٨٢).

(٢) أحكام القرآن للجصاص ج: ٤ ص: ٣٧٤.

(٣) سورة التوبة الآية (٣٦).

الباب إلى الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبتدؤا من الأقرب فالأقرب منتقلا إلى الأبعد فالأبعد، ألا ترى أن أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1]. وأمر الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه عليه السلام حارب قومه ثم انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثم انتقل منهم إلى غزو الشام. والصحابة رضي الله عنهم لما فرغوا من أمر الشام دخلوا العراق)[2] قال الزمخشري: (القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الأقرب فالأقرب أوجب)[3].

المطلب الثالث: قتال المنافقين

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[4]. لقد أمر الله النبي ﷺ وأمته بجهاد المنافقين كما أمره بجهاد الكافرين ولكن لم يرد عن النبي ﷺ أنه كان يقتل المنافقين إلا من أصاب حدا يوجب القتل. قال صاحب أضواء البيان: (كما جاء عنه ﷺ في عدم قتلهم لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ولكن كان جهادهم بالقرآن لا يقل شدة عليهم من السيف لأنهم أصبحوا في خوف وذعر يحسبون كل صيحة عليهم وأصبحت قلوبهم خاوية كأنهم خشب مسندة وهذا أشد عليهم من الملاقاة بالسيف)[5].

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[6]. يقول الله تعالى معاتبا المؤمنين

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢١٤).

(٢) التفسير الكبير للرازي ج: ١٦ ص:١٨١.

(٣) الكشاف للزمخشري ج: ٢ ص: ٣٠٩.

(٤) سورة التوبة الآية (٧٣) وسورة التحريم الآية (٩)

(٥) أضواء البيان للشنقيطي ج: ٨ ص: ٢٢٤.

(٦) سورة النساء الآية (٨٨).

الذين تشاجروا بسبب المنافقين: لماذا انقسمتم إلى فريقين بسبب المنـــافقين؟ والله هو الذي أرجعهم إلى الكفر بسبب ما اقترفوه من ذنوب ومعاصٍ، وأن ضلالهم كان بإرادة الله وقدره لجرم ارتكبوه، فلا سبيل لأحد على هدايتهم. ورد في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة أصحها سندا ما رواه البخاري عن زيدِ بن ثابت[1]. رضيَ اللهُ عنه قال: (لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى غـــزوة أُحُد، رَجَعَ ناسٌ ممن خرَجَ معه. وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ فـــرقَتَين: فرقـــةٌ تقول نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم. فنزلـــت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾[2]. يقول ابن العربي مرجحا هذه الرواية: (والـــصحيح مـــا رواه زيد. وقوله حتى يهاجروا في سبيل الله يعني حتى يهجروا الأهـــل والولـــد والمال ويجاهدوا في سبيل الله)[3]. كما سبق ذلك ص: ٧٦ .

قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[4]. لم يكتف المنافقون بارتكاسهم ورجوعهم إلى الكفر، بل تمنوا لو تبعهم المؤمنون كذلك مرتدين عن دينهم كفارا حتى يكونوا مثلهم، وينهـــى الله المؤمنين عن موالاتهم ما لم يتوبوا ويهجروا الأهل والديار ويجاهـــدوا في سبيل الله، فإن تابوا ثم رجعوا وارتكسوا مرة ثانية فقد أمر الله بأسرهم وقتلهم في كل مكان، وألاّ يوالوهم ولا يستنصروهم على عدو.

---

(١) زَيْدُ بنُ ثَابِتِ بنِ الضَحّاكِ بنِ زَيْدِ بنِ لَوذانَ بنِ عَمْرِو بنِ عَبْدِ عَوْفِ بنِ غَنْمِ بـــنِ مَالِـــكِ بـــنِ النّجّار، الأنْصارِي، النجّارِي، أبُو سَعِيْد، ويُقالُ: أبُو خَارِجَةَ، المَدَنِي، صَاحِبُ رَسولِ الله وَامّهُ النّوّارُ بِنْتُ مَالِكِ بنِ صرمة، ويُقال: مُعاوية. قدم رسول الله المدينةَ وَهو ابنُ إحدى عشرة سنة، وكان يكتُب الوَحيَ لرسول الله. انظر التهذيب ج: ٦ ص: ٩٨.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٣٩٦٢). أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ج: ١ ص: ٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج: ١ ص: ٥٩٤.

(٤) سورة النساء الآية (٨٩).

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[1]. (ويستثني الله من المنافقين في هذه الآية طائفة وهم بنو مدلج بن كنانة، التحقوا بقوم لهم مع المؤمنين عهد وهم بنو خزاعة، فيكون حكمهم كحكم المعاهدين. وطائفة أخرى ضاقت صدورهم عن القتال وكرهته)[2]. قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل: (نزلت الآية في قوم جاؤا إلى المسلمين وكرهوا أن يقاتلوا المسلمين وكرهوا أيضا أن يقاتلوا قومهم وهم أقاربهم الكفار، فأمر الله بالكف عنهم. ولو أراد الله تعالى أن يوجه ويقيض هذه الطائفة على المؤمنين لفعل ولكنه أراد كفهم عنهم. فإن سالموا المؤمنين واعتزلوا قتالهم واستسلموا لهم فلا حجة للمسلمين على قتالهم)[3]. قال ابن كثير: (هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدروهم، أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾[4]، أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾. أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم، كارهون كالعباس ونحوه؛ ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره)[5].

---

(١) السورة السابقة الآية (٩٠).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج: ١ ص: ١٥١.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج: ١ ص: ١٥١.

(٤) سورة النساء الآية (٩٠).

(٥) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٥٣٤.

قال الله تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾[1]. لقد ذكر الله في هذه الآية طائفة من المنافقين كانوا يتلونون بحسب الحال، فإذا كانوا مع المؤمنين لبسوا حلة الإيمان، وإذا كانوا مع الكافرين خلعوها ولبسوا ثوب الكفر وأعانوا الكفار على المؤمنين، وقد أمر الله بقتال هذا النوع من المنافقين لأنهم أظهروا كفرهم وعداوتهم للمسلمين، بخلاف المنافقين الذين كانوا يستترون بالإيمان ولكن لم يظهروا الكفر، فهؤلاء لم يقاتلوا بالسيف كما أسلفت. وقد جاء في بيانهم: (أنهم ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قومهم ويرتكسون في الأوثان ويريدون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا فأمر النبي ﷺ بقتالهم إن لم يعتزلوا)[2].

المطلب الرابع: قتال أهل الكتاب

أمر الله المؤمنين بقتال اليهود والنصارى والمجوس حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وذلك لكفرهم بالله تعالى، فهم لا يؤمنون به إيمانا خالصا، ولعدم تصديقهم بالبعث والجزاء بطريقة سليمة.

قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[3]. قال الثعالبي: (هذه الآية تضمنت قتال أهل الكتاب. قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم ومشى نحو تبوك ونفى سبحانه عن أهل الكتاب الإيمان بالله واليوم الآخر حيث تركوا شرع الإسلام وأيضا فكانت اعتقاداتهم غير مستقيمة لأنهم تشعبوا وقالوا عزير بن الله. والله ثالث ثلاثة.

---

(١) سورة النساء الآية (٩١).

(٢) تفسير مجاهد ج: ١ ص: ١٦٩.

(٣) سورة التوبة الآية (٢٩).

وغير ذلك. ولهم أيضا في البعث آراء فاسدة. كشراء منازل الجنة من الرهبان. إلى غير ذلك من الهذيان. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي لا يطيعون ولا يمتثلون)[1]. (وقالت اليهود لا أكل ولا شرب في الجنة)[2].

إن في هذه الآية مسائل كثيرة وأمور عظيمة يجب ألاّ تغفل. أول هذه الأمور وأعظمها وأحقها بالبحث الإجابة على الأسئلة التالية:

السؤال الأول: هل قتال أهل الكتاب واجب علينا في زماننا هذا فنقول للأمريكان مثلا أسلموا تسلموا؟ قبل الإجابة على هذا السؤال لنرجع إلى الماضي، ونطّلع على التاريخ؛ لنتعرف على الظروف التي نزلت فيها هذه الآية، وحال المسلمين في ذلك الوقت من حيث القوة والضعف المادي والمعنوي، مقارنة مع أعدائهم.قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا استقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتاب اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع)[3]. إذن أمر المؤمنون بقتال أهل الكتاب في أوج قوتهم المادية والمعنوية والإعلامية، – إن صح التعبير – فقد ذاع صيتهم وسبقهم الرعب إلى أعدائهم. قد يقول قائل إنَّ الروم كانوا أكثر عددا وعدة، أقول نعم ولكن الكثرة في العدد والعدة غير مهمة جدا، فخلل القلَّة يجبره الصبر وقوة العزيمة، فالمهم جدا هو أن يتساوي الجيشان في نوع السلاح. بمعنى أن سلاح المسلمين كان يبلغهم كما كان سلاحهم يبلغ المسلمين، فقد كان القتال بالسيف وجها لوجه، أو رميا بالحراب والسهام والمنجنيق، وغير ذلك من الأسلحة البدائية، فهم متساوون في نوع السلاح إذن، وما سوى ذلك يقوم مقامه الإيمان، والصبر، وقوة العزيمة، وإرادة الله فوق ذلك كله. ولكن دعوني أسلط الضوء على ما آل إليه حالنا ووصل إليه حالهم ونستعرض قوتنا ونستكشف بعض قوتهم لنكون

---

(١) تفسير الثعالبي ج: ٢ ص: ١٢٥.

(٢) تفسير السمعاني ج: ٢ ص: ٣٠١.

(٣) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٣٤٨.

موضوعيين وواقعيين ومنصفين ومقنعين في إجاباتنا وإفاداتنا. من أسلحتهم:

١- صاروخ توماهوك كروز:

صاروخ بعيد المدى، وله قوة تفجيرة هائلة، يتم إطلاقه من السفن والغواصات الحربية، وكان أول استخدام لتلك النوعية من الصواريخ في حرب الخليج عام ١٩٩٠، كما تم استخدامها خلال الهجوم على معسكرات أسامة بن لادن في أفغانستان عام ١٩٩٨، وتستخدم تقنية التوجيه العالمي "GPS" بالإضافة إلى البرمجيات والخرائط الإلكترونية لتوجيه "توماهوك كروز " نحو إصابة الهدف.

إطلاق صاروخ توما هوك كروز

وللصاروخ محرك مروحي مدعم بدافع صورايخ قوي طول الصاروخ بالدافع يصل إلى ٦,١٥ متراً، أو ٥,٤٨ متراً بدونه. يبلغ قطره ٥١,٨ سنتيمتر. وعرضه ٢,٦٣ متراً [١]. والوزن يبلغ١,٣٠٥ كيلوجراماً بدون الدافع، و ١,٣٥٠ كيلوجراماً به. ويتكلف إنتاج الصاروخ الواحد تتراوح بين ١,٤ مليون و٢ مليون دولار. يصل مداه إلى ١٠٠٠ ميل ، وتصل سرعته إلى ٥٥٠ ميل في الساعة.[٢]

٢.القنابل الموجهة:

وهي عبارة عن قنابل تقليدية يتراوح وزنها ما بين ٤٥٠ و٩٠٠ كيلوجراماً، لكن يتم التحكم بها من خلال موجه بتقنية "GPS" يلحق في مؤخرتها، واستطاع الجيش الأمريكي تطويرها لتسمح للطائرات بإسقاطها من مسافات بعيدة وفي ظل الأحوال الجوية السيئة. يتراوح طولها ما بين ٣٠٣,٥ و٣٨٧,٩ سنتيمتراً حسب وزن القنبلة وحجمها. ويبلغ قطرها إما

---

(١) الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان

http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

(٢) المصدر السابق.

٦٤ أو ٥٠ سنتيمتراً. يتراوح وزنها ما بين ٤٥٦ و٩٥٢ كيلوجراماً. ويتراوح عرضها ما بين ٤٩,٨ و٦٣,٥ سنتيمترا. يصل مداها إلى ١٥ ميل في الساعة. وأقصى ارتفاع يمكن أن تطلق منه يصل إلى ١٣,٥٠٠ متراً. وتبلغ تكلفة القنبلة الواحدة مشتملة الموجه نحو ٢١ ألف دولار.[١]

٣. طائرة "بي-وان. بي":

وقد صممت في الأساس لحمل القنابل النووية، وتستخدم حالياً لإسقاط القنابل التقليدية، وتم استخدامها لأول مرة لدعم العمليات العسكرية ضد العراق عام ١٩٩٨ في إطار ما عرف باسم "ثعلب الصحراء". وللطائرة أربع محركات مروحية. ويبلغ طولها ٤٤ متراً. ويبلغ عرضها بالأجنحة الأمامية ما بين ٤١ متراً ، و٢٣,٧ متراً بالأجنحة الخلفية. تصل سرعتها إلى٩٠٠ ميل في الساعة.وتتميز الطائرة بالقدرة على حمل ٨٠قنبلة تقليدية ، أو ٣٠ قنبلة عنقودية ،أو ٢٤ قنبلة موجهة. ويبلغ عدد أفراد طاقمها أربعة هم القائد العام للطائرة، وقائد الطائرة، ومسئول عن الأسلحة الهجومية ومسئول عن الأسلحة الدفاعية. وتصل تكلفة الطائرة إلى ٢٠٠ مليون دولار.[٢]

٤.الطائرة الشبح "بي. تو":

وتتميز تلك الطائرة بصعوبة الرصد من خلال الرادارات. ولها أربعة محركات مروحية. يبلغ طولها ٢٠,٧ متراً. وعرضها متضمناً الأجنحة ٥١,٦ متراً. وتصل سرعتها التي تخترق حاجز الصوت نحو ٧٥٠ ميلاً في الساعة. وتقطع في المتوسط نحو ٧,٢٥٥ ميلاً. ويتم استخدامها حالياً لحمل قنبلة وزنها ١٨ ألف كيلوجراماً. ويتكون طاقمها من

---

(١)المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

فردين: القائد العام ، وقائد الطائرة. وتبلغ تكلفة الطائرة الواحدة نحو ١,٣ بليون دولاراً[١].

طائرة الشبح بي. تو

٥.الطائرة "بي. فيفتي تو" –ستراتوفورتريس:

تعد "بي. فيفتي تو" من أقوى القاذفات الجوية الأمريكية ، فهي تستطيع إسقاط أنواع متعددة من القنابل فضلاً عن إطلاق الصواريخ، وقد أسهمت بنحو ٤٠% من عمليات إسقاط القنابل والصواريخ فوق العراق خلال حرب الخليج الثانية ، وتستطيع القيام بجولة كاملة حول العالم، في خلال ٣٥ ساعة فقط استطاعت الإقلاع من قاعدتها بلويزيانا وأداء مهمتها بالعراق ثم العودة إلى قاعدتها مرة أخرى. لها ثمانية محركات مروحية. ويصل طولها ٤٧,٨ متراً. وعرضها مشتملاً الأجنحة ٥٥,٥ متراً. وتصل سرعتها إلى ٦٥٠ ميلاً في الساعة. وتستطيع قطع مسافة ٨٨٠٠ ميلاً دون إعادة التزود بالوقود. وتستطيع حمل ٣١,٥٠٠ كيلوجراماً من الأسلحة سواء من الصواريخ أو القنابل أو الألغام. ويبلغ عدد أفراد طاقمها خمسة: القائد العام للطائرة، قائد الطائرة، مراقب رادار، وضابط متخصص في الحرب الإلكترونية.وتبلغ تكلفة الطائرة الواحدة ٧٤ مليون دولاراً.[٢]

٦. القنبلة العنقودية :القنبلة العنقودية متعددة التأثيرات من نوع-CBU ٨٧/B

---

(١)الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان

http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

(٢) المصدر السابق.

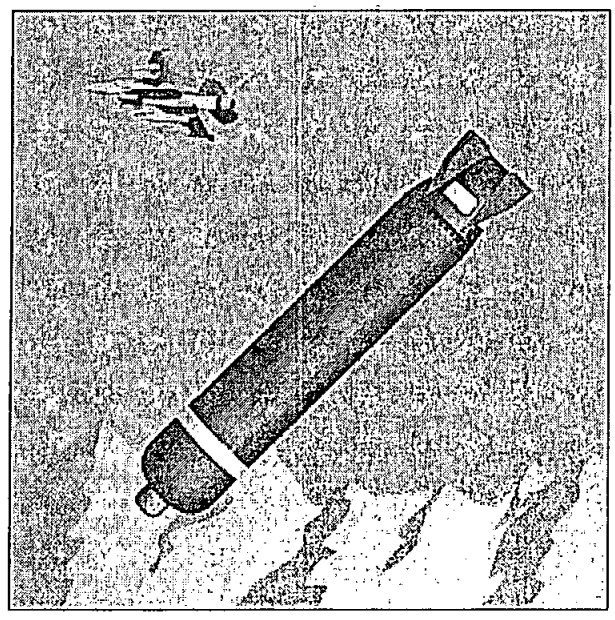

هي النوع القياسي المستخدم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في عمليات القصف بإلقاء القنابل من الجو. وتزن القنبلة ٩٥٠ باوند أي ٤٣٠ كيلو جراماً.

وتحمل قنابل عنقودية صغيرة من نوع ٢٠٢ LU-٩٧/B. ويمكن لأنواع عديدة من الطائرات المقاتلة إلقاؤها .ولتحسين مستوى دقتها، تقوم القوات الجوية الأمريكية بشراء أدوات لتصحيح اتجاهها عند إلقائها في الريح وتثبت هذه الأداة في الذيل وتحتوي على أجهزة توجيه تمكنها عند رميها من ارتفاع ٤٠٠٠٠ قدم من تعديل وجهتها إلى منطقة الهدف [١]

التشغيل: ما أن تقع القذيفة حتى تأخذ بالدوران بسبب زعانف الذيل. ويمكن أن يتفاوت معدل الدوران بين ستة مراحل قد تصل إلى ٢٥٠٠ دورة في الدقيقة. وقد ضبطت العلبة كي تنفتح عند أحد الارتفاعات العشرة المحدد سابقا التي تبدأ من ٣٠٠ قدم وتصل إلى ٣٠٠٠ قدم. ويحدد مستوى

---

(١) الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان
http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

الارتفاع ومعدل الدوران المنطقة التي تنتشر فيا القنابل الصغيرة عندما تنفتح القنبلة.

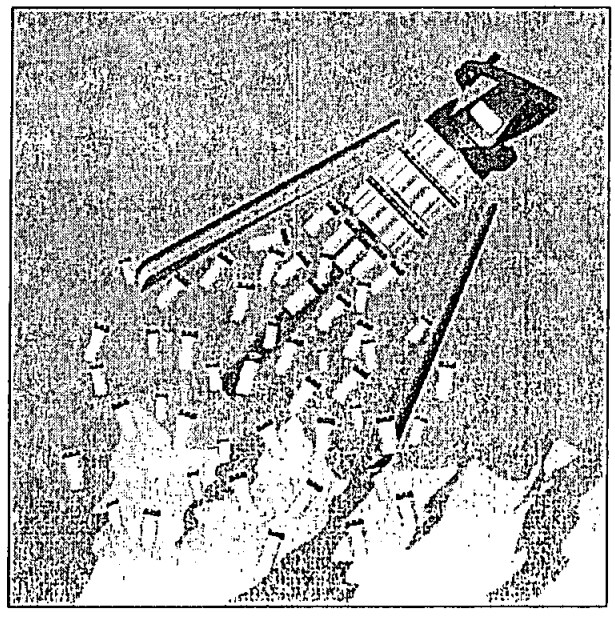

القنابل الصغيرة وعددها ٢٠٢ هي اسطوانات صفراء اللون، تقارب في حجمها علب المشروبات- طولها ٨ بوصات وعرضها ٢,٥ بوصة ٢٠ سنتيمترا طول و٦ سنتيمترات عرض. وأثناء سقوط القنبلة، تقوم أجزاء الذيل الذي توجد فيه أجزاء قابلة للانتفاخ بالمحافظة على توازنها كي تهبط ومقدمتها إلى أسفل.[١]

٧. القنابل الصغيرة :

تحتوي القنابل الصغيرة من نوعBLU-٩٧/B على مايلي :

١- شحنة متفجرات ذات شكل خاص يساعد على خرق المدرعات .

٢- عبوة معدة بحيث تتفتت إلى حوالي ٣٠٠ شظية بعد الانفجار .

٣- حلقة من الزركون الحارق لإشعال النيران .[٢]

---

(١) الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان

http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

(٢) المصدر السابق.

المنطقة المتأثرة : يعتمد حجم المنطقة التي تغطيها القنابل الصغيرة على معدل دوران وارتفاع القنبلة عند انفجارها وتغطي عادة مساحة عرضها حوالي ٦٥٠ قدما وطوله١٣٠٠قدم. أي ما يعادل حوالي ثمانية ملاعب كرة قدم.

الانفجار: تحدث القنابل الصغيرة عند انفجارها أضرارا و إصابات في مساحة واسعة . وبإمكان شحنة المتفجرات اختراق مدرعة يبلغ سمكها حوالي سبعة بوصات ١٧ سنتيمترا .ويصل طول نصف قطر المساحة التي يغطيها الانفجار إلى ٢٥٠ قدما ٧٦ متراً.

تحتوي أحد أنواع القنابل العنقودية على قنابل صغيرة تنجذب نحو الحرارة حيث تنطلق تلقائيا نحو العربات والمركبات العسكرية. وتستخدم أنواع أخرى من القنابل العنقودية لنشر الألغام الأرضية.

إن قنابل الوقود والهواء مدمرة جدا. فمن لا يحترق بها سيتعرض للإصابة بسبب الانفجار الكبير أو الفراغ الناتج عنه.[١]

---

(١)الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان

http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

قذائف الأبخرة الحارقة :

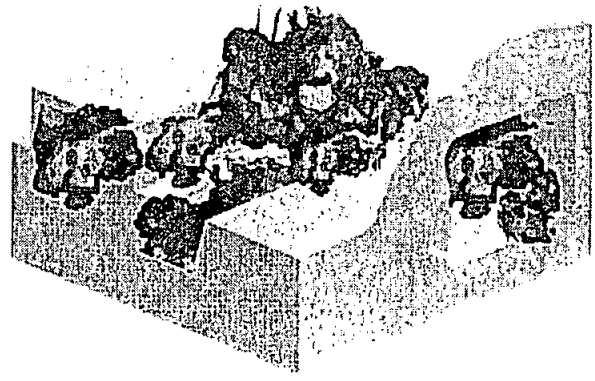

١.**اطلاق الشحنة:** يوجد مصهر (فيوز) تم ضبطه لإشعال الشحنة في البراميل على علو ٣٠ قدماً (٩ أمتار) وهذا يؤدي إلى كسر البراميل وفتحها وانطلاق الوقود الذي ينتشر في الهواء ليشكل سحابة قطرها ٦٠ قدما وعمقها ٨ أقدام (١٨ مترا و ٢,٤ أمتار.

٢.**التفجير:** تقوم الشحنة الأساسية بتفجير الخليط المنتشر مما يسبب انفجارا ينتشر بسرعة تفوق سرعة الصوت وتعادل ٣ كيلومترات في الثانية. ويمكن مضاعفة التأثير باستخدام العديد من الرؤوس الحربية.

٣.**الانتشار:** يمكن أن تصل سحابة البخار إلى أماكن يصعب الهجوم عليها بالقنابل الأكثر تقليدية. وإذا قلت نسبة الوقود إلى الهواء في الخليط أكثر من اللازم فإن الوقود لن يشتعل. لكن السحابة سامة في حد ذاتها. وعلاوة على كون أكسيد الأثيلين قابل للاشتعال فإنه شديد التفاعل والتعرض لأكسيد الإثيلين قد يسبب التلف في الرئتين والصداع والغثيان والقيء والإسهال وضيق النفس وحتى السرطان والعيوب الخلقية.[١]

---

(١)الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان

http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

الإصابات: وتشمل الإصابات عادة:

١. ارتجاج الدماغ أو العمى.

٢. تمزق طبلتي الأذن.

٣. انسداد المجاري الهوائية وانهيار الرئتين.

٤. الإصابة من الأجسام الصلبة المتطايرة.

٥. نزف داخلي متعدد وإزاحة الأعضاء الداخلية أو تمزقها.[١]

وأما أسلحة المسلمين أوالعرب فلا يوجد فيها شيء يشابه ما ذكر، ولا يملكون حتى مضادات تدفع عنهم خطر تلك الأسلحة، أوتخفف من دمارها وخرابها. كل ما يملكونه هو عبارة عن دبابات عتيقة لا يبلغ مداها سوى مئات من الأمتار، ولكنها تنبَّه الأعداء بأصواتها على أماكن وجود الجنود. وطائرات رديئة من فضلات أعدائهم تكاد تصاد بالحجارة. و تسقط بأدنى الصواريخ كما شاهدنا ذلك في حرب الخليج الأولى التي تسمى من قبل الأعداء بعاصفة الصحراء، ومن قتل العراقيين بأم المعارك. ورشاشات ومدافع تعد بجانب أسلحتهم ألعابا نارية.

قد يقول قائل: لماذا تقلل من شأن المسلمين هكذا ؟ الجواب: أنَّ هذه حقيقة يجب التعامل معها بعيدا عن العاطفة حتى يوجد لها مخرج، ولو أردت أن أنقاد وراء العاطفة لقلت: أسلحتنا أقوى من أسلحتهم وإن رشاشنا يعادل طائرة الشبح ،"بي. فيفتي تو" –ستراتوفورتريس. وإن طلقتنا تعادل قنابلهم العنقودية وهكذا. ولكن أين المهرب من الواقع؟ فالواقع المشاهد يخالف ذلك، نحن مغلوبون في جميع ميادين الحروب التي تدور رحاها في زماننا هذا. في فلسطين والشيشان والعراق وفي أفغانستان.

قد يقول قائل أيضا: إن قوة العدو تباع وتشترى كما يباع الشئ الزهيد فلماذا لا يشتريها المسلمون؟! الجواب أنهم يبيعون منها للمسلمين الغث الذي يساوي شيئاً، وأما الجيد منها فهم يعاقبون على تسريب معلومات عنها أشد العقاب، وقد عاقبت إسرائيل أحد جنودها بالسجن المؤبد

---

(١) المصدر السابق

لأنه أباح بإحصائية عن أسلحتها النووية. وأنهم يعاقبون الدول والحكومات والعلماء الذين يتعاونون مع المسلمين والعرب في مجال الأسلحة ذات الدمار الشامل المحرمة دوليا على المسلمين أشد العقاب أيضا. وقد بلغ من حرصهم على اسلحتهم أنهم يتعهدون ما يسقط منها ويلتقطون ما بقي من حطامها.

بعد هذا البيان الذي يكشف جزءا من الواقع؛ أُجيب عن السؤال المطروح، هل قتال أهل الكتاب واجب علينا في زماننا هذا فنقول للأمريكان مثلا أسلموا تسلموا؟ أقول لا؛ لأنها سوف تلقمنا قنبلة نووية أو جرثومية أو ذرية أو شيئا لا نعلمه فتجعلنا كأن لم نمش على ظهرها. ولا أعتقد أنه قد بقيت لأحد حجة في أن يقول نعم بل الواجب علينا أن نداريهم لنتقي شرهم عملا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]. وبقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[3]. وبقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[4].

قد يقول قائل: قالها وسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لكسرى وهرقل. أجيب عن ذلك بأن الفارق في القوة لم يكن كبيرا كما هو الآن، وقد استطاع المسلمون أن يتداركوه، فبنوا السفن والأساطيل البحرية وغيرها حيث كان ذلك في الإمكان، وأما في عهدنا فإن ذلك يعد من المستحيلات، فالعدو لنا بالمرصاد، كلما بدأنا قوة وأدوها في مهدها، حتى إنهم ليأخذوننا بالظن أو الوشايات فيدمروا مصانعنا ومنشآتنا المدنية إذا

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٨).

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٥).

(٣) سورة التغابن الآية (١٦).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

اعتقدوا أن فيها سلاحا يؤثر على مصالحهم كما فعلوا بمصنع الأدوية بالسودان وقد يدمروا بلدا عربيا برمته كما فعلوا في العراق.

وقد يقول قائل: إنما هي وساوس الشيطان. ويستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. قال صاحب تفسير القرآن العظيم: (أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة)[2]. ولعل الأمر هنا مختلف جدا. فالخوف هنا خوف حقيقي من قوة حقيقية مجربة في ميادين الحروب. فكم دمرت من مدن وأبادت من شعوب. وليس وهماً، بل عدم الخوف منها هو الوهم بعينه. لأنها حقيقية ماثلة أمام العيان ولا سبيل إلى إنكارها. ولعل الشيطان يخوفنا من أوليائه إذا كانت لنا قوة يخشاها على أوليائه، فلا ينبغي أن نخاف منهم عندئذ. أما إذا كانت القوة بيد أوليائه فلعله لا يخوفنا بل يغرينا بتهوين قوتهم ويدفعنا دفعا حتى يسقطنا في فخهم لأنه دائما في مصلحة أوليائه.

وقد يقول قائل إنك نسخت جهاد الابتداء والطلب فما الدليل؟! أجيب عن ذلك بأننا نحن الآن مطلوبون وفي حال قريبة من حال رسول الله ﷺ وأصحابه عندما كانوا في مكة، فقد كانوا يؤذون ويُقتَلون فلا يدافعون ولا يردون العدوان بمثله فضلا من أن يبدؤوا بقتال، بل صبروا حتى قويت شوكتم وزادت فئتهم فهابهم عدوهم، ثم انطلقوا وكان الخوف منهم يسبقهم إلى عدوهم. قال صاحب شرح بلوغ المرام: { ولكن اعلموا أن كل واجب لابد فيه من شرط القدرة، والدليل على ذلك النصوص من القرآن والسنة ومن الواقع أيضا، أما القرآن فقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج:١ ص: ٤٣٢.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

(٤) سورة التغابن الآية (١٦).

هُوَاجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]. يعني حتى لو أمرتكم بالجهاد ما فيه حرج، إن قدرتم عليه فهو سهل، وإن لم تقدروا عليه فهو حرج مرفوع. إذا لا بد من القدرة والاستطاعة، هذا من القرآن. ومن السنة قال النبي ﷺ: (وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)[2]. هذا عام في كل أمر؛ لأن قوله (بأمر) نكرة في سياق الشرط فيكون للعموم، سواء أمر العبادات أو الجهاد أو غيره.

وأما الواقع فقد كان النبي ﷺ في مكة يدعوا الناس إلى توحيد الله، وبقي على هذا ثلاث عشرة سنة لم يؤمر بالجهاد؛ مع شدة الإيذاء له ولمتبعيه عليه الصلاة والسلام، وقلة التكاليف؛ فأكثر أركان الإسلام ما وجبت إلا في المدينة، ولكن هل أمروا بالقتال؟ الجواب: لا. لماذا ؟ لأنهم لا يستطيعون، وهم خائفون على أنفسهم ... فلابد من هذا الشرط (يعني القدرة) وإلا سقط عنهم كسائر الواجبات لأن جميع الواجبات يشرط فيها القدرة}. [3]

السؤال الثاني: هو عبارة عن عدة أسئلة تشكل حوارا مع شباب الحادي عشر من سبتمبر – إن صحت النسبة – ومن متابعتنا لهم من خلال أجهزة الإعلام نحفظ إجاباتهم ومن خلال فهمنا لنفسياتهم وأسلوب تفكيرهم نستطيع أن نجيب عن هذه الأسئلة بنفس إجاباتهم إذا طرحت عليهم:

* لماذا فعلتم فعلتكم التي فعلتموها؟!

* لأن أمريكا ظلمت المسلمين وأهانتهم، وها نحن أصبناها في عقر دارها لكي تنتهي عن عدوانها على إخواننا في العلم الإسلامي، ودعمها الدولة الصهيونية في فلسطين.

* ولكنها عن قريب ستهدم دوركم على رؤوسكم فماذا أعددتم لها ؟

---

(١) سورة الحج الآية (٧٨).

(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم (٩٣٩٢).

(٣) شرح بلوغ المرام الشريط الأول للشيخ ابن عثيمين . من كتاب فتاوى الأئمة في الفتن المدلهمة. جمع محمد بن حسين القحطاني ص: (٣٠١ - ٣٠٢).

* قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

* لعل هذا من الفهم السقيم لقول الله الحكيم والذي أهلكتم به الأمة وأوردتموها به المهالك، إن الله قال: قليلة ولم يقل ضعيفة هزيلة مثلكم لا إمام لها، ولا أرض تؤويها إذا ما انهزمت وتقهقرت، كما فعل خالد يوم مؤتة، فعندما انهزم المسلمون أمام أعدائهم، وقُتل قادتهم الذين عينهم رسول الله ﷺ انسحبوا إلى قائدهم وأووا إلى قاعدتهم وانحازوا إلى فئتهم. وأرضكم التي انطلقتم منها ليس فيها ما يؤوي ولا ما ينحاز إليه، وقد تجرون عليها نكبات على نكباتها، وويلات على ويلاتها، وهم ليسو بجاهزين لحرب كهذه، وإن كان بأسهم بينهم شديدا، وأما جيرانكم فهم ظهراء لأعدائكم، ولو كانوا معكم ما أغنوا عنكم شيئا. دعني أعيد عليك السؤال بصيغة أخرى فلعلكم لم تفهموا الأولى. لماذا أيقظتم المارد الجبار[2]؟

*قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[3].

* ولعل هذه عثرة أخرى، خرقتم بها السفينة فغرقتم وأغرقتم معكم الأمة، إن الجمع المقصود هنا هو جمع القبائل وكثرة العدد، وإن أمريكا لم تجمع غثاء السيل وإنما قوة لا قبل لكم بها، فيها طائرات لا ترى بالرادارات التي لا تمتلكون منها واحدا، والقنابل التي تخرق الصخور، وتحرق الأكسجين، وتكتم الأنفاس، والصواريخ التي تعبر القارات، وجمعت ما لا تعلمون.

*إنما أنت من المنهزمين المستسلمين.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(٢) كلمة قالها الرئيس الأمريكي بوش الابن عبر وسائل الأعلام بعد تدمير برجي التجارة في أمريكا.

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٧٣- ١٧٤).

*ولكن سياسة الاستسلام والمدارات واجبة علينا في كتاب ربنا في مثل هذه الحال، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[1]. وفي وسنة نبينا ﷺ فقد أُوذي في مكة، وأُوذي أصحابه- رضي الله عنهم - فلم يقاوم ولم يقاتل لأن قوته لا تسمح له بالقتال، ولا يريد أن يتهور ويندفع ويأمر بالقتال؛ لأن في ذلك تهلكة له ولأصحابه، بل تحلى بالرفق حتى هاجر وقويت شوكته ثم عاد وانتصر. ولو أراد الله لهذا الدين أن ينتصر بالمعجزات فقط من غير الأخذ بالأسباب لأطبق على أهل مكة الجبال، وببريطانيا البحار، ولخسف بأمريكا الأرض، ولا يعلم جنود ربك إلا هو. ولكنه أراد له أن يسود بجهد المسلمين ليمتحن بهم الظالمين ويمتحن الظالمين بهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[2].

ولم تمض سوى أشهر قليلة حتى جاءت الدولة اليهودية العظمى بأساطيلها، وجحافلها الجوية والبحرية والأرضية، وقنابلها الذرية والنووية والعنقودية التي شاهدناها سابقا، وغير ذلك مما لا نعلمه ولا تعلمه حكوماتنا وقادتنا الحربيون! جاءت متخذة من غزوتي نيويورك وواشنطن كما يسميها أصحابها - ولو أنصفوا لسموها نكبتي نيويورك وواشنطن- متخذة منها ذريعة وسببا لتدمير العالم الإسلامي، ومن قبل كانت تتحيَّن الفرص، وتنتظر المبررات، وقد قدم لها شباب سبتمبر أعظم هدية، وفتحوا لها الباب على مصراعيه لتغزو العالم الإسلامي كله، وتدمر ما بناه أصحاب الحكمة من المسلمين في عقود كثيرة من مؤسسات دعوية، وجمعيات خيرية، وغير ذلك من جهود عظيمة. دعونا ننظر إلى ساحة المعركة لنرى ماذا فعلت الفئة القليلة التي تنتظر المعجزات، ولم تأخذ بأسباب النصر فتعد العدة كما أمر الله تعالى في كتابه العزيز، بينما أعد الطرف الآخر ما جاء في الموقع السابق نفسه: في وقت متأخر من ليلة

---

(١) السورة السابقة الآية (٢٨).

(٢) سورة محمد الآية (٤).

أمس الأحد ٢٠٠١/١٠/٧، قطع وزير الدفاع الأمريكي دونالد رمسفيلد زيارته المقررة إلى أبو ظبي وعاد في ظروف غامضة إلى واشنطن، وعلى إثر ذلك توقع الخبراء الدوليون أن تكون الضربة قريباً جداً، وبالفعل بدأت كل من الولايات المتحدة (وحليفتها بريطانيا) أولى ضرباتها العسكرية ضد أفغانستان. وفي وقت سابق أعلن وكيل أحمد متوكل وزير خارجية طالبان عن عدم جدوى الحملة الجوية التي تنوي أمريكا شنها ضد أفغانستان، مشيراً إلى أن تكلفة الصاروخ الذي يمكن أن تقذف به كابل العاصمة، لن يصيب هدفاً يفوق تكلفته.

وفي أعقاب أولى الضربات الجوية التي شنها الحلف البريطاني-الأمريكي ضد أفغانستان أمس، نشرت صحيفة "الجارديان" اللندنية تقريراً حول أنواع الأسلحة وقدرتها التدميرية وتكلفتها. والتي تم استخدامها لتنفيذ الضربة(وهي الأسلحة المذكورة آنفا):

صاروخ توماهوك كروز.القنابل الموجهة.طائرة "بي-وان. بي.الطائرة الشبح "بي. تو". الطائرة "بي. فيفتي تو" -ستراتوفورتريس. القنبلة العنقودية.القنبلة العنقودية متعددة التأثيرات من نو CBU-٨٧/B قذائف الأبخرة الحارقة.[١]

في بضع وعشرين يوما فقط من المعارك غير المتكافئة، تدمر فيها أمريكا معظم أفغانستان، وتقتل خلقا كثيرا من أهلها الذين لا شأن لهم بالحرب، ولا قدرة لهم عليها، وبعضهم لم تندمل جراحه التي أصابته في الحروب الأهلية الطائفية بعد، ولم تجف دموعه التي زرفها على من فقد. ولم تجد الفئة القليلة ملجأ وملاذا سوى حجارة أفغانستان وكهوفها، ومن وقع منهم في قبضة الأعداء وحلفائهم المسلمين الأفغان الحانقين على

---

(١) الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان
http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

طالبان ذاقوا ما لم يذقه من تمزق جسده،وتطايرت أشلاؤه في صحرائها وأوديتها وشعابها.

لنعود إلى الحوار مع الشباب بعد انتهاء المعركة؛ لنقيِّم الوضع معا ونطبق ما جرى بيننا من حوار قبل الحرب على أرض الواقع فليس من سمع كمن رأى. كما ذكرت آنفا فإن أجوبتهم مذكورة ضمنا في وسائل الإعلام التي كانوا يخطبون فيها ويرسلون إليها رسائلهم المسجلة كقناة الجزيرة وغيرها.

*أيتها الفئة القليلة المؤمنة لماذا انهزمتم أمام الفئة القوية العظيمة الكافرة؟

*لقد ألقت علينا أمركا من القنابل والصواريخ ما يكشف عن حقدها تجاه المسلمين (قول أسامة بن لادن كما جاء مسجلا في قناة الجزيرة من قطر).

*وهل كنتم تنتظرون أن تلقي عليك التفاح والبرتقال وحب الرمان ورسائل المودة والريحان؟ وهل اعترفتم بأهمية القوة المادية في خوض المعارك الهجومية؟ وأن المعجزات تأتي بعد استقصاء الأسباب. ولو كان النصر يأتي بالعبادة وحدها لما أمر الله بإعداد القوة حيث قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]. ولَمَا عذر المؤمنين وخفف عنهم لما علم ضعفهم ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[2]. لا أخفي عليكم سرورنا وحبورنا عندما رأينا البُرجين وهما يتهاويان، وأعداءنا الذين دمرونا يصيحون ويستغيثون، ولكن ذلك السرور والحبور لم يدم طويلا حتى فجعتنا أمريكا فيكم، فنحن نعتصر القلوب ألما ونزرف الدموع حزنا، وأسفا فرحنا قليلا و بكينا كثيرا. دعونا نقيِّم الوضع من حيث الربح والخسارة:

*ما هي الأرباح التي أحصيتموها أيها الشباب من غزوتي نيويورك وواشنطن؟

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٢) السورة السابقة الآية (٦٦).

*لقد هدمنا برجين عظيمين وتقدر خسارة الأعداء بتريليونين من الدولارات
*ولكنها أسقطت لنا دولتين فعلياً وأسقطت بقية الدول العربية معنويا واقتصاديا وسياسيا وفي الطريق لإسقاطها فعليا وتدميرها كليا. و سوف تأخذ ما خسرته منا أضعافا مضاعفة بطريقة أو بأخرى، ونخسر من جراء ما تفرضه علينا من محاصرات اقتصادية، ومضايقات تجارية، ومشكلات أمنية، ما يجعلنا متسولين. فقد ذهبت هذه بتلك فهل عندكم غيرها؟
*لقد أقبل الناس على الإسلام و زاد عدد الداخلين فيه.
*إن هذه أخبار يثيرها أعداء هذه الأمة عبر وسائل الأعلام ليحركوا بها الحماقة في نفوس الشباب المتحمسين المندفعين بغير روية ولا حكمة، ويرتكبوا حماقة أخرى يتخذها هؤلاء الأعداء ذريعة لتحقيق مآرب جديدة. و لنفترض صحة ذلك جدلا وأن عدد الذين أسلموا ألفا فقد قتل العدو منا مئات الألوف في العراق وأفغانستان فقابلوا الربح بالخسارة كما يفعل التجار فهل تجدون ربحا حقيقيا؟ فقد ذهبت هذه بتلك فهل عندكم غيرها؟
*لقد نفدت المصاحف في أمريكا ودول الغرب لكثرة إقبال الناس عليها.
*نفاد المصاحف ليس خيرا كله؛ فقد يفهمونه خطأً ويسيئون فهم مقاصده، وليس لهم من يعلمهم فقد فرَّ المعلمون الذين نذروا أنفسهم للدعوة بعد غزوتي نيويورك وواشنطن، وأصبحوا ملاحقين، ولا يستطيعون أظهار شعائر دينهم، وأخفوا سمات الإسلام عن وجوههم حتى لا يُعرَفون. وقد انتبه الأعداء للآية التي بين أيدينا والتي تأمرنا بقتالهم حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون، فطبقوها علينا بالمعكوس إن صح التعبير، فغزونا قبل أن نغزوهم، وأخذوا منا الجزية التي كان علينا أن نأخذها منهم، وإن لم يكن ذلك علانية، وانتبهوا لما نعده لهم من قوة فدمروها قبل أن تكتمل، ومازالوا يلاحقوننا حتى دمر بعضنا قوته بيديه طائعاً قبل أن تؤخذ منه مقهورا، ولسان حاله يقول: (بيدي لا بيد عمرو)، ونمَّ على من أعانه من العلماء على صنعها وجعلهم كبش فداء له ولعرشه. فقد ذهبت هذه بتلك فهل عندكم غيرها؟.

*لقد خدمنا القضية الفلسطينية إعلاميا وذلك بشهادة الإعلاميين أنفسهم.

*لقد دمرتموها فعليا، وأزلتم الحرج عن الإسرائيليين فدمرت أكثر مما دمرت، وأفسدت أكثر مما أفسدت، وذلك بشهادة كل العالمين. فقد ذهبت هذه بتلك فهل عندكم غيرها؟ إن اكتملت إحصائياتكم للأرباح المزعومة فإن إحصائياتنا للخسارة لم تكتمل بعد، وهي مستمرة ومتزايدة يوما بعد يوم وربما ساعة بعد ساعة أو أقل من ذلك، فلنترك لها هذا الفراغ مفتوحا ليملأ لاحقا .....قد يقول قائل لا يقاس الأمر هكذا كما يفعل التجار إنما إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. الجواب على ذلك: لكي يُشخَّص الداء ويختار الدواء وحتى لا نلدغ من الجحر نفسه مرة ثانية. وإنما هو إحدى الحسنيين إذا أخذ بأسباب النصر. وأما والحال كما هو الآن والأمم متكالبة علينا فيجب أن نحسبها كما يحسبها التجار البخلاء حتى لا تُبتلع الأمة كلها.

إن في هذه القصة لعبرة لمن أراد أن يعتبر. لعلنا وقعنا في ما وقعنا فيه من الهلاك والدمار والتقهقر بسبب التسرع وإتباع الهوى، والفهم الخاطئ لكتاب الله وهدي نبيِّه المجتبى. نأخذ الآيات التي توافق هوانا ونترك الآيات التي تصب في صميم واقعنا.

والسؤال الذي يفرض نفسه: من المسؤول إذا عن الحال التي نحن فيها؟ الكل مسؤول، الحاكم والمحكوم! أما الحاكم فهو مسؤول لأنه لم يهتم بأمر التسلح إما لأنه يعتمد على أعدائه الذين كانوا يُملون له بالكلام المعسول، ويوهمونه أنهم سوف يدافعون عنه، ولا حاجة له بالسلاح فسلاحهم في خدمته، وأنهم متى دُعوا هبوا لنجدته، وإما لأنه كان يهتم بعرشه، وبقاء سلطانه، وهو يرى في القوة والسلاح تهديدا وخطرا عليه، أو لفقره وقلة حيلته أوسذاجة رأيه. قد يسأل سائل: إن كان هذا حالهم فلماذا ترضاه حاكما؟ الجواب: لأن حديث الرسول ﷺ: عن عبادة بن الصامت قال: (فقال فيما أَخَذَ علينا أن بايَعنا على السمع والطاعة في منشَطِنا ومكْرَهنا وعُسرِنا ويُسرنا وأَثَرة علينا وأن لا نُنازِعَ الأمرَ أهله، إلاّ أن تَرَوا كفراً

بَواحاً عندَكم من اللَّهِ فيه بُرهان)[1]. يمنع الخروج عليه. ولأن التجارب كثيرة في الخروج على الحاكم قل ما أُتى منها بخير. والصومال أبلغ شاهد. خرجوا على إمامهم وأصبحوا بغير راع. يغير بعضهم على بعض و يقتل بعضهم بعضا.

وأما المحكومون وأخص منهم العلماء وأهل الرأي فهم في هذا الأمر أقسام أيضا: فقسم كان يطبل للحكام ويمتدحهم بما فيهم وما ليس فيهم، ويعملون لبقاء الحال على ما هو عليه، ولا يقدمون لحكامهم النصيحة الحق ولا يوضحون لهم الخطر المحدق. تجد أحدهم يدخل في باب الطهارة يشرحه عشرين سنة لا يخرج منه؛ خوفا من الوقوع في الحرج مع حكامهم. وهؤلاء هم المنتفعون والشياطين الخُرس. قيل لأحدهم: ما خطر موالاة اليهود قال: هذا سؤال نجيب عنه بالسكوت!

وقسم آخر جاف في أسلوبه، غليظ في نصيحته، لا يسديها إلا على الملأ، ولا قصد له من ذلك إلا ليقال أنه بطل وشجاع، وليجتمع حوله الأتباع ولو كان قصده الإصلاح لأسدى النصح على انفراد، ولتوخى الحكمة في ذلك، ولذكر محاسنهم كما يذكر مساويهم، ولكنه يقصد من نصحه تهييج الرعية على ولاتها، وأن يزيدها شتاتا على شتاتها ليكسب من وراء ذلك جمهورا من السذج، ومؤيدين من الجهلة، هؤلاء هم طلاب السلطة، وعشاق المناصب، إن أُعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، وطلاب الدنيا بعمل الآخرة. وبقايا خوارج هذه الأمة الذين يخرجون على أمتهم بأتفه الأسباب وأدنى الحيل، ويفتحون الباب للمستعمرين والغزاة، بما يُحدثونه من بلبلة وأزمات يتخذها الأعداء ذريعة فيدخلون باسم حقوق الإنسان، والاعتداء على الحريات، وغير ذلك من الدعوات.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩٠٣). صحيح مسلم حديث رقم (٤٧٢٧).

قد يقول قائل: ما الدليل على أن النصح يجب أن يكون على انفراد؟ أقول الدليل هو قول الله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[1] فقد أمر الله تعالى موسى وهارون- عليهما السلام - أن يذهبا إلى فرعون في داره، ويلينا له القول لعله يستجيب. وحديث النبيﷺعن طارق قال: (جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند إمام جائر)[2]. فالظرف المكاني (عند) يدل على أنه يجب أن يقصد الحاكم في داره لينصحه ولا يشهر به. ويتبين من ذلك أن هؤلاء الذين ينادون بالإصلاح يحتاجون إلى إصلاح، ولو أصلحوا أنفسهم لأصلح الله حكامهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[3]

فإن قال قائل لماذا نقاتل أهل الكتاب وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4] ؟ ظاهر هذه الآية أن الله تعالى ساوى بين الأديان. وقد أزال ما فيها من لبس شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال:{ قالوا في سورة المائدة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾[5] فساوى بهذا القول بين سائر الناس اليهود والمسلمين وغيرهم، والجواب أن يقال أولاً: لا حجة لكم في هذه الآية على مطلوبكم فإنه يسوي بينكم وبين اليهود والصابئين وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار منذ بعث المسيح إليهم فكذبوه وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسولا فكذبوه فهم كفار فإن كان في الآية مدح لدينكم الذي أنتم عليه بعد مبعث محمد ﷺ ففيها مدح دين اليهود أيضا وهذا باطل عندكم وعند المسلمين. وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ

---

(١) سورة طه الآية (٤٣-٤٤).

(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٨٤٧٣).

(٣) سورة الرعد الآية (١٢).

(٤) سورة المائدة الآية (٩٦).

(٥) السورة السابقة الآية (٦٩).

والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل. وكذلك يقال لليهودي إن احتج بها على صحة دينه وأيضا فإن النصارى يكفرون اليهود فإن كان دينهم حقا لزم كفر اليهود وإن كان باطلا لزم بطلان دينهم فلا بد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما وقد سوت بينهما فعلم أنها لم تمدح واحدا منهما بعد النسخ والتبديل وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد ﷺ والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل. والصابئون وهم الصابئون الحنفاء كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ. فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة وهو عمرو بن لحي وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك وتحريم ما لم يحرمه الله ولهذا قال النبي ﷺ: (رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه أي أمعاءه في النار وهو أول من بحر البحيرة[1] وسيب السوائب[2] وغير دين إبراهيم). وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ونحوهم الذين مدحهم الله تعالى. فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر وعمل صالحا كما قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا

---

(١) كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث سيبت فلم تركب ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعا وبحرت أذن بنتها الأخيرة فتسمى البحيرة لنظر لسان العرب لابن منظور ج: ١ ص: ٤٧٨. باب السين.

(٢) السائبة الناقة التي كانت تسيب في الجاهلية لنذر ونحوه وقد قيل هي أم البحيرة كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث سيبت فلم تركب ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت لسان العرب لابن منظور ج: ١ ص: ٤٧٨.

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾}[1]. ومثلها قوله تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[2] للعلماء في هذه الآية ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال صاحب تفسير القرآن العظيم:{ لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ ومن أصحاب هذا الرأي ابن مسعود والسدي. ويؤيد هذا القول الحديث: عن ابن مسعود قال: (أخر رسول ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم. قال: فنزلت هذه الآيات ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... إلى قوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[3])}[4]

القول الثاني: المشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره ورواه العوفي عن بن عباس: أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم. أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم[5].

القول الثالث: أن أهل الكتاب ليسوا متساوين في تمسكهم بدينهم. قال الشيخ ابن تيمية:(لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم قبل محمد ﷺ من الكفر قال: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[6] .

---

(١) دقائق التفسير لابن تيمية ج: ٢ ص: (٧٠ -٧١).

(٢) سورة آل عمران الآية (١١٦).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث رقم (١٣٩٦).

(٤) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٣٩٨ بتصرف.

(٥) المصدر السابق.

(٦) سورة آل عمران الآية (١١٣ - ١١٤).

وهذا يتناول من كان متصفا منهم بهذا قبل النسخ فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ كما قال في الأعراف: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) ﴿ قَطَّعْنَاهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٢)) (٣).

ولعل هذه الأقوال ليست متباينة بل هي متكاملة يكمّل بعضها بعضاً وبيان ذلك: لعل الله تعالى عنى بها أهل الكتاب الذين اتصفوا بهذه الصفات قبل بعثة النبي محمد ﷺ ومن سمع من هؤلاء به وآمن بعد أن بعث كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وغيرهم. ومن سمع به ولم يؤمن فلا يقبل الله منه عملاً.

فإن قيل: إن الله نهى عن جدالهم إلا بالحسنى فكيف يقاتلون؟ حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤).وتوضيح ذلك، أن الله نهى في هذه الآية عن مجادلة أهل الكتاب، واستثنى من ذلك الجدال بالحسنى، واستثنى من أهل الكتاب الظالمين، ويشمل ذلك كل ما يطلق عليه ظلم، فنهى عن جدالهم بالحسنى، وأمرنا أن نخبرهم بإيماننا بما أنزل إليهم جملة كما نؤمن بما أنزل إلينا على لسان نبين ﷺ وأن الله هو إلهنا جميعا. وأما في التفاصيل فقد أُمرنا ألّا نصدقهم ولا نكذبهم. أخرج البخاري عن

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٩).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٦٨-١٧٠).

(٣) دقائق التفسير لابن تيمية ج:١ ص: ٣١٨.

(٤) سورة العنكبوت الآية (٤٦).

أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان أهلُ الكتاب يَقرؤون التوراةَ بالعبرانية ويُفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: (لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿آمنا بالله وما أُنزل إلينا﴾)[1].

وللعلماء في المراد بالجدال(بالتي هي أحسن) تأويلات:

أحدها: أن المقصود بها لا إله إلا الله. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] قال: بلا اله إلا الله)[3].

لعل ابن عباس أراد بهذه الكلمة مسائل العقيدة والتوحيد، لأن الأمر في العقيدة واضح وقد جاءنا من العلم في شأن العقيدة ما يكفي للجدال والمحاورة، وأما بقية العلوم كالأخبار وقصص الأنبياء مثلا فربما يكون عندهم علم لم يبلغنا، فلا يحق لنا الجدال في مثل هذه الأمور حتى لا نكذِّب حقا أو نصدِّق باطلاً. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في القرآن الكريم بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[4] و قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[5].

ثانيها: المراد منها قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[6].

أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن حسين[1] في الآية قال:(التي هي أحسن ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾. فهذه مجادلتهم بالتي هي أحسن)[2].

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم: (٤٣٧١).

(٢) سورة العنكبوت الآية (٤٦).

(٣) الدر المنثور للسيوطي ج: ٦ ص: ٤٦٩.

(٤) سورة غافر الآية (٧٨).

(٥) سورة النحل الآية (٤٣).

(٦) سورة العنكبوت الآية (٢٦).

ولعل هذا لا يُسمى جدالا إن اقتُصر عليه، بل هو كف عن الجدال، وقفل لباب الحوار، وشرح لموقف المسلمين العام من الرسالات السابقة. ويمكن أن يقال هذا في بداية النقاش أوفي ختامه أو في أثنائه إذا وردت مسألة ليس لنا فيها علم.

ثالثها: بالتي هي أحسن: (بالخصلة التي هي أحسن وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والسَورة[٣] بالأناة كما قال ادفع بالتي هي أحسن)[٤]. ولعلّ هذا ما يبدو لي أنه المقصود في هذه الآية، وأضيف إلى ذلك: أن يكون عن تراض، وانشراح صدر، وتواضع، وحلم، وصدق في المقصد، وحكمة في اختيار الأسلوب وضرب الأمثال، فإن ذلك أبلغ في التأثير.

واختلف العلماء أيضا في هذه الآية من حيث النسخ وعدمه:

القائلون بالنسخ:

منهم قتادة: قال قتادة هذا منسوخ نسخه قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾[٥]. وروي عنه: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٦]. ويبدو لي أنه ليس هناك ما يدل على نسخ هذه الآية، والجدال بالحسنى والحجج الواضحة من أفضل السبل إلى الإقناع. والإسلام جاء لتقرير كل ما هو حسن وإزالة كل ما هو ليس بحسن،

---

(١) سُفْيَانُ بنُ حُسَيْنِ بنِ الحَسَن، أبُو مُحَمَّد، ويقال: أبُو الحَسَنِ، الوَاسِطِي، مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بنِ خَازِمٍ السُّلَمِي، ويقال: مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ سَمُرَةَ القُرَشِي.روى عن : إياس بن معاوية ، وجعفر بن أبي وَحْشِيَّة ، والحَسَن البَصْرِيِّ، انظر تهذيب الكمال ج : ٦ ص: ٤٨٦.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج: ٦ ص: ٤٦٩.

(٣) سورة الغضب وثوبه. مختار الصحاح للرازي ج: ١ ص: ١٣٤.

(٤) الكشاف للزمخشري ج:٣ ص:٤٦١.

(٥) معاني القرآن للنحاس ج: ٢ ص: ٤٤٣.

(٦) الكشاف للزمخشري ج:٣ ص:٤٦١. الناسخ والمنسوخ للكرمي ج:١ ص:١٦٣. نواسخ القرآن لابن الجوزي ج: ١ ص: ٢٠٦.

فكيف يصف الجدال بالحسنى ثم ينسخه! هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن الآيات التي تأمر بقتالهم لا تتعارض مع الجدال بالحسنى، فيمكن أن يكون جدالهم في مختلف أحوالهم. يكون وهم في الأسر، ويكون وهم في الحرب عند التقاء الجيشين، ويكون وهم متسلطون غالبون أو منهزمون هاربون. وقد حاورهم النبيﷺ في أمر عيسى عليه السلام: جاء في تفسير الدر المنثور: عن الربيع قال: (إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان. فقال لهم النبي ﷺ ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟

قالوا: لا.

قال: أفلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم؟

قالوا: لا.

قال: فان ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء. ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما تغذي المرأة الصبي ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا[1].

فأنزل الله تعالى: ﴿الم اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2][3].

ومما سبق يتبين أن الجدال غير ممنوع. وأن جدالهم بالحسنى لا يتعارض مع قتالهم وقتالهم لا يمنع جدالهم.

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ١٤٢.

(٢) سورة البقرة الآية (١- ٢).

(٣) الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ١٤٢.

المبحث الثاني

حكم القتال من أجل الإكراه في الدين

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم القتال من أجل اعتقاد الدين.

المطلب الثاني: حكم القتال من أجل الإلزام بالتشريع.

المطلب الأول:حكم القتال من أجل اعتقاد الدين:

لما كان الإيمان باللسان وحده لا يكفي فلابد من تصديق القلب ولا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى، فقد نهى عن إكراه الناس على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. أمر الله تعالى ألا يُكره أحد على الدخول في الدين بعد ظهور الحجج وبيان البراهين المقنعة للدخول فيه، إذ لا معنى للإيمان بغير اقتناع. قال الكلبي: (لا إكراه في الدين المعنى إجمالاً أن دين الإسلام في غاية الوضوح وظهور البراهين على صحته بحيث لا يحتاج أن يكره أحد على الدخول فيه)[2]. وقد وردت في سبب نزولها روايات متعددة ملخصها: أن بعض العرب تهودوا قبل الإسلام، فأراد أهلهم أن يكرهوهم على الإسلام، فأنزل الله هذه الآية ينهاهم عن ذلك[3]. وللعلماء في هذه الآية آراء أخرى نجمعها في النقاط التالية:

أولاً: أنها خاصة بالأنصار: (عن سعيد بن جبير[4] في قوله تعالى: ﴿لاإكراه في الدين﴾: قال نزلت في الأنصار خاصة)[5].

ثانياً: أنها خاصة بأهل الكتاب: (وقال قتادة والضحاك بن مزاحم هذه الآية محكمة خاصة بأهل الكتاب الذين يبذلون الجزية ويؤدونها عن يد صاغرة، قالا أُمر رسول الله ﷺ أن يقاتل العرب أهل الأوثان لا يقبل منهم إلا لا إله

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٦).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ج: ١ ص: ٨٩.

(٣) الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ٢٠. العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ج: ١ ص: ٦١٣. لباب النقول للسيوطي ج: ١ ص: ٤٨.

(٤) سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرِ بنِ هِشَام الأسَدِي. الوَالِبِي، مَوْلاَهُمْ، أبُو مُحَمَّد، ويُقالُ: أبُو عَبْدِ اللَّـهِ الكُـوْفِي. وَوَالِبَةُ هُوَ ابنُ الحَارِثِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ دودان بنِ أسَدِ بنِ خُزَيْمَة، فيما قاله له محمد بنُ حَبيب.روى عن أنَس بنِ مالك، والضَّحَّاك بن قَيْس الفِهْرِيِّ، وعبد الله بن الزُّبَـيْر، وعبد الله بن عَبَّاس، وعبد الله بنُ عُمَر بن الخَطَّاب وغيرهم. انظر تهذي الكمال ج: ٦ ص: ٢٨٨.

(٥) الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ٢٠.

إلا الله أو السيف ثم أُمر فيمن سواهم أن يقبل الجزية ونزلت فيهم ﴿ لاَإِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1]. قال صاحب فهم القرآن: قوله تعالى:(لاَإِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ: قال بعضهم: ليست بمنسوخة ولكنها ثابتة في أهل الذمة إذا أدوا الجزية لم يكرهوا. وروي أن عمر قال لغلام رومي: أسلم فأبى فقال عمر: ﴿لاَإِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ وقال قوم هي منسوخة نسختها آية السيف)[2]. ولعلّ نزول هذه الآية في الأنصار وأهل الكتاب لا يجعل منها آية خاصة بهم، وكثير من آيات القرآن لها أسباب نزول ولم تكن خاصة في ما نزلت فيه، بل عامة في كل حال تشابه حال نزولها. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقوله تعالى مثلاً: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3]. نزلت في عمار ابن ياسر ولا يجرؤ أحد أن يقول أنها خاصة به. ولا تكون الآية خاصة ما لم توجد فيها قرينة تدل على خصوصيتها، كقوله تعالى: (وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)، فلا يستطيع أحد أن يقول أنها عامة في جميع المساجد لكونها صرحت بلفظ المسجد الحرام دون سواه.

ثالثاً: (أنها نزلت في من دخل في الدين بعد الحرب فلا يقال أنه دخل مكرها لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره، ومعناه لا تنسبوهم إلى الإكراه ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾[4]. ولعلّ هذا معنا بعيدا جدا عن مدلول الآية وإن كان حسناً في ذاته. لأن (لا) إما أن تكون ناهية أو نافية؛ فإن كانت ناهية فمعناها لا تكرهوا أحداً ليدخل في الإسلام بعد أن وضحت البراهين وبانت الحجج

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج: ١ ص: ٣٤٣.

(٢) فهم القرآن للمحاسبي ج: ١ ص: ٤٢٦.

(٣) سورة النحل الآية (١٠٦).

(٤) سورة النساء الآية (٩٤). التفسير الكبير للرازي ج: ٧ ص: ١٤.

على صحته. وإن كانت نافية يكون معنى الآية: لا يقع الإكراه في دين الله بعد وضوح الدلائل على صحته، ولا مكان للمعنى المذكور بين هذين المعنيين.

رابعاً: أنها منسوخة بآية السيف. قال القاضي أبو محمد عبد الحق[1]: (ويلزم على هذا أن الآية مكية وأنها من آيات الموادعة التي نسختها آية السيف)[2]. ولعل القول بالنسخ من أبعد الاحتمالات؛ للأسباب التالية:

أولا: إن الله تعالى عزى عدم الإكراه إلى بيان الهدى وتميزه من الضلال وهذا أمر حدث وهو باقٍ ولم يزُل حتى تكون الآية منسوخة لزواله.

ثانيا: إن المكره لا يكون مخلصا في نيته ولا ما يؤديه من عبادات، فقد يؤمن بلسانه وقلبه كافر، والله لا يقبل إلا ما يكون خالصا لوجه ولا يتقبل إلا من المتقين. أو ويؤدي العبادات ببدنه ولا يأتي بشروط صحتها أو يأتي بما يبطلها، فما الجدوى من الإكراه إذن!

خامساً: لا إكراه في الدين بعد فتح مكة. قال السمرقندي: قوله تعالى : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. يعني لا تكرهوا في الدين أحدا بعد فتح مكة، وبعد إسلام العرب، قد تبين الرشد من الغي يعني قد تبين الهدى من الضلالة ،ويقال قد تبين الإسلام من الكفر، فمن أسلم وإلا وضعت عليه الجزية ولا يكره على الإسلام)[3]. ويكون معنى الآية على هذا القول أن الهدى قبل فتح مكة لم يكن واضحا وقد وضح بعد فتحها. أو كان كفار مكة عقبة في وجه فهم الهدى وتمييزه من الضلال وقد زالت هذه العقبة بفتح مكة، فلا تكرهوا

---

(١) عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية الإمام الكبير قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي حدث عن أبيه الحافظ الحجة أبي بكر وعن أبي علي الغساني ومحمد بن الفرج الطلاعي وخلائق وكان فقهيا عارفا بالأحكام والحديث والتفسير بارع الأدب بصيرا بلسان العرب واسع المعرفة له يد في الإنشاء والنظم والنثر وكان يتوقد ذكاء له التفسير المشهور انظر طبقات المفسرين للسيوطي ج: ١ ص:(٦٠- ٦١).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي ج: ١ ص: ٣٤٣.

(٣) تفسير السمرقندي ج: ١ ص: ١٩٥.

على الدين أحدا. وواضح مما قام به النبي ﷺ وأصحابه أن هذا ليس هو المراد من الآية، فقد تحركت جيوش المسلمين بعد فتح مكة ليقاتلوا الكفار وأهل الكتاب في أصقاع الأرض حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية، ولم يكتف النبي ﷺ وأصحابه بوضوح البراهين والأدلة ويتركوا الجهاد في سبيل الله بل قال عليه السلام: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّه، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ. فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم إِلاّ بِحَقِّ الإِسلام، وحسابُهم عَلَى اللّه)[1] وقال الله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[2]. ودفع الجزية كذلك نوع من التضييق والأكره والضغط الاقتصادي والنفسي بلغة السياسيين.

المطلب الثاني: حكم القتال من أجل الإلزام بالتشريع:

لقد بينت من قبل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3]، أن (الدين) الوارد في الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، لعل المقصود به الاعتقاد القلبي الذي لا يستطيع أحد أن يوجده بالقوة المادية أو الضغوط النفسية، وأن المقصود بالحديث: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّه، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا ...) والآيات الدالة على ذلك هو استمرار القتال لكون الشرك مستمر إلى قيام الساعة، والساعة تقوم على شرار الخلق.قلت: لعلّ المقصود بالدين في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، هو الدينونة بمعنى: الخضوع والاحتكام ويكون معنى الآية والله أعلم: قاتلوا أيها المؤمنون حتى لا تكون فتنة تمنع أن يدين الناس لله ويلتزموا بحكمه، كلٌ حسب الحكم الذي وضع له فللمؤمن حدود يجب أن يقف عندها

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم: (٢٥).

(٢) سورة الفتح الآية (١٦).

(٣) سورة البقرة الآية (١٩٣.

ولا يتعداها، وللكافر وأهل الكتاب أحكام يجب أن يلتزموا بها، كدفع الجزية وغير ذلك مما يشترطه عليهم إمام المسلمين. ويكون معنى الدين في الآية الأخرى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، بمعنى الإيمان. فبعد أن يدين الناس لأحكام الله يبقى الإيمان مربوطا بالاقتناع لا بالإكراه، فقد روي عن عمر رضي الله عنه ما يؤكد هذا المعنى: (عن وسق الرومي قال كنت مملوكا لعمر بن الخطاب فكان يقول لي أسلم فإنك لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين فإني لا أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم فأبيت عليه فقال لي ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1]. ولم يقتله عمر رضي الله عنه، وهو لم يقل لا إله إلا الله. ويكون المقصود من الحديث (أمرت أن أقاتل الناس ...)، هو استمرار القتال – كما أسلفت – وليس المعنى الظاهر. فلو كان المقصود هو المعنى الظاهر فلماذا كان النبي ﷺ وأصحابه من بعده يقبلون الجزية من أهل الكتاب وغيرهم وهم لم يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ ولكان حكم الجزية منسوخا بهذا الحديث، وهذا النسخ لم يقل به أحد بل جاء ما يؤكد استمراره إلى آخر الزمان. فقد قال رسول الله ﷺ في نزول عيسى عليه السلام: (عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا وحكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير وتوضع الجزية وتضع الحرب أوزارها)[2].

وتبقى الإجابة عن السؤال: كيف تستخدم القوة لحمل الناس على الدين والإكراه غير مسموح به؟ هي: أن الإكراه من أجل الخضوع لأحكام الله، بالنسبة لغير المسلم يلتزم بدفع الجزية وغير ذلك مما فرض عليه من جانب إمام المسلمين، وأما أمر الإيمان فلا إكراه فيه ويكون حكم الإكراه بعد هذا البيان فيه تفصيل:

---

(١)الدر المنثور للسيوطي ج: ٢ ص: ٢٢.

(٢)فتح القدير للشوكاني ج: ٥ ص: ٣٣.

الإكراه من أجل حمل الناس بمختلف اعتقاداتهم على الخضوع لأحكام الله المختلفة باختلاف الحال من إيمان وعدمه وهذا أمر مشروع ولعل هذا ما يحمل عليه آيات الابتداء بالقتال والحديث الشريف وهو الجهاد الباقي والكائن إلى يوم القيامة.

وأما الإكراه من أجل حمل الناس على الاعتقاد القلبي فهو منتف شرعاً وعقلاً، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1]. فهي تحتوي على استفهام إنكاري، فالله تعالى يقول للنبي ﷺ منكرا عليه اجتهاده في حمل الناس على الإيمان: هل تريد أن تكره الناس حتى يصيروا مؤمنين؟ فإنك لا تقدر على ذلك لأن هداية التوفيق بيد الله، وحده وهو القادر على هداية الناس جميعا إذا شاء كقوله تعلى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2]. وكما نفى الله تعلى إيمان المكره وهو غير مقتنع بالإيمان ولم يقبله، كذلك نفى كفر المؤمن المكره على الكفر ولم يقرره، فقال عز من قائل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

---

(١) سورة يونس الآية (٩٩).

(٢) سورة الشعراء الآية (٤).

(٣) سورة النحل الآية (١٠٦).

المبحث الثالث

قتال الضرورة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: قتل المؤمنين إذا اختلطوا بالكافرين.

المطلب الثاني: قتال البغاة.

المطلب الأول: قتل المؤمنين إذا اختلطوا بالكافرين:

إن الله تعالى حرم دم المسلم، وعظم شأنه، وجعل قتله عمدا موجبا للنار، وقد كفَّ العذاب عن الكفار لوجود المسلمين معهم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]. جاء في تفسير السمعاني: (لقد كان هذا يوم الحديبية عندما صد المشركون النبي وأصحابه من دخول البيت، فكف الله المؤمنين عن قتالهم حتى لا يؤذى من كان بمكة من المسلمين المستضعفين الذين لم يهاجروا. قال السمعاني: كان قد أسلم رجال ونساء بمكة وأقاموا هنالك مختلطين بالمشركين ولم يكن يعرف مكانهم فقال الله تعالى ولولا هم يعني القوم الذين ذكرنا ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ﴾ يعني توقعوا بهم وتصيبوهم بغير علم إن دخلتم محاربين مقاتلين. وقوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي سبة ويقال عيب وملامة ومعناه أن الكفار يعيبونكم ويقولون إنهم يقتلون أهل دينهم ويقال في المعرة هي لزوم الدية عند القتل)[2].

وقد استدل الإمام مالك[3] بهذه الآية على أنه لا يجوز قتل المشركين إذا اختلطوا بالمسلمين وذلك عندما سئل عن قوم من المشركين في البحر في مراكبهم أخذوا أسارى من المسلمين فأدركهم أهل الإسلام فأرادوا أن يحرقوهم ومراكبهم بالنار ومعهم الاسارى في مراكبهم قال: (لا أرى أن

---

(١) سورة الحجرات الآية (٢٤-٢٥).

(٢) تفسير السمعاني ج: ٥ ص: ٢٠٥.

(٣) مَالِكُ بنُ أَنَس: هُوَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ، حُجَّةُ الأُمَّةِ، إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ مَالِكُ بنُ أَنَسِ بنِ مَالِكِ بنِ أَبِي عَامِرِ بنِ عَمْرِو بنِ الحَارِثِ بنِ غَيْمَانَ بنِ خُثَيْلِ بنِ عَمْرِو بنِ الحَارِثِ، وَهُوَ ذُو أَصْبَحَ بنُ عَوْفِ بنِ مَالِكِ بنِ زَيْدِ بنِ شَدَّادِ بنِ زُرْعَةَ، وَهُوَ حِمْيَرُ الأَصْغَرُ الحِمْيَرِيُّ، ثُمَّ الأَصْبَحِيُّ، المَدَنِيُّ، حَلِيْفُ بَنِي تَيْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَهُم حُلَفَاءُ عُثْمَانَ أَخِي طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ أَحَدِ العَشْرَةِ. انظر سير أعلام النبلاء ج: ٨ ص: ٤٩.

تلقى عليهم النار ونهى عن ذلك. قال مالك: يقول الله لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾. أي إنما صرف النبي عليه السلام عن أهل مكة لما كان فيهم من المسلمين ولو تزيل الكفار عن المسلمين لعذب الكفار)[1]. وقد عظم الله تعالى حرمة دم المسلم. قال رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: (إنَّ اللَّهَ حرَّم عليكم دِماءكم وأموالكم؛ كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهمَّ اشهدْ)[2] وقال عليه السلام: (لا يَحلُّ دمُ امرىءٍ يَشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس والثيبُ الزاني، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة)[3]. وقال: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أهْوَنُ عَلَى الله مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ)[4]. هذا إذا كان المسلمون مغلوبين على أمرهم. أما إذا أقاموا بين الكفار باختيارهم أو تعاونوا مع العدو طلبا للأجر أو المنصب، فلا حرمة لهم لقول النبي ﷺ: (أنا بري من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين)[5]. فإذا كانت إقامته فقط توجب برآءة النبي ﷺ منه! فمن الأولى أن لا تكون له ذمَّة إذا تعاون مع العدو طائعا.

المطلب الثاني: قتال البغاة

البغي لغة: طلب الاستعلاء بغير حق. ذكره الحرالي. وقال الراغب طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى تجاوزه أو لا، فتارة يعتبر في المقدار الذي هو الكمية وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية.

---

(١) المدونة الكبرى لسحنون ج: ٢ ص: ٢٤.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٦٧).

(٣) المصدر السابق حديث رقم: (٦٧٢٥).

(٤) سنن الترمذي ج : ٤ ص: ٦٣٦.

(٥) رواه أبو داود والترمذي. المحرر في الحديث ص: ٦٨٧.

والبغي ضربان: أحدهما محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم وهو تجاوز الحق إلى الباطل أو ما يجاوره من الأمور المشتبهات.

وبغى الجرح: تجاوز الحد في فساده.

و بغت المرأة: فجرت.

وبغت السماء: تجاوزت في المطر حد المحتاج إليه[١].

البغي قصد الفساد ويقال فلان يَبْغي على الناس إذا ظلمهم وطلب أذاهم.

والفِئَةُ الباغِيةُ: هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل[٢].

وشرعاً:

الْبَاغِيَةُ: فِرْقَةٌ خَالَفَتِ الإِمَامَ: لِمَنْعِ حَقَ، أَوْ لِخَلْعِه،)[٣].

(وهم مخالفو الإمام بخروجهم عليه، وترك الانقياد، أو منع حقّ توجّه عليهم)[٤].

حكم قتال أهل البغي.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[٥].

يأمر الله تعالى في هذه الآية بقتال الباغين المتجاوزين الحق إلى الظلم والخارجين عن الإمام بغير حق، حتى يذعنوا لحكم الله تعالى. قال ابن قدامة: فيها خمس فوائد:

أحدها: أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان فإنه سماهم مؤمنين.

الثانية: أنه أوجب قتالهم.

الثالثة: أنه أسقط قتالهم إذا قاموا إلى أمر الله.

---

(١) التعاريف للمناوي ج:١ ص: ١٣٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور ج: ١٤ ص: ٧٨ باب الباء.

(٣) مختصر خليل ج: ١ ص: ٢٨٥.

(٤) المجموع شرح المهذب للإمام النووي .(كتاب قتال أهل البغي).

(٥) سورة الحجرات الآية (٩).

الرابعة: أنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم.
الخامسة: أن الآية أفادت جواز قتال كل من منع حقاً عليه[1].

ولا يجوز الخروج على الإمام، وقد وردت أحاديث كثيرة في وجوب طاعته والتغليظ في الخروج عليه. عن ابنُ عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أنا بري من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين، ومَنْ ماتَ وهو مفارقٌ للجماعةِ فإنّهُ يموتُ ميتةً جاهليةً)[2]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (مَنَّ حمَل علينا السَّلاحَ فليسَ منا)[3]. عنِ ابن عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: (من كرهَ من أميره شيئاً فلْيصبر، فإنه من خَرَجَ من السلطانِ شِبراً ماتَ مِيتةً جاهليةً)[4].

وروى عبد الله بن عمرو[5] قال: سمعت رسول الله يقول: (من أعطى إماماً صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه ما استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[6]. ورُوي عن النبيﷺ أنه قال: (إنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ، كَائِناً مَنْ كَانَ)[7]. قال صاحب المغني على مختصر الخرقي:{فكل من ثبتت إمامته وجبت طاعته وحرم الخروج عليه وقتاله لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[8]. وروى عبادة

---

(١) المغني على مختص الخرقي ج: ٦ ص: ٧٧.
(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم (٥٥٤٢).
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٦٧٢١).
(٤) المصدر السابق رقم (٦٩٠٠).
(٥) عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ بنِ وَائِلِ بنِ هَاشِمِ بنِ سُعَيْدِ بنِ سَعْدِ بنِ سَهْمِ بنِ عَمْرِو بنِ هُصَيْصِ بنِ كَعْبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غَالِبٍ القُرَشِي، ولم يكن بينه وبين أبيه في السن سوى إحدى عشرة سنة. وأسلم قبل أبيه، وقيل: كان اسمه العاص، فلما أسْلَم سَمَّاه النبي عبد الله. وكان غزيرَ العلم، مُجتهداً في العبادة. تهذيب الكمال ج: ٩ ص: ٢٩٦ ترجمة رقم (٣٨٦٤).
(٦) رواه مسلم ج : ١٢ ص: ١٨٣.
(٧) رواه مسلم ج : ١٢ ص: ١٩٠.
(٨) سورة النساء الآية (٥٩).

ابن الصامت قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله). وأجمعت الصحابة رضي الله عنهم على قتال البغاة. فإن أبا بكر رضي الله عنه قاتل مانعي الزكاة. وعلي قاتل أهل الجمل وصفين وأهل النهروان والخارجين عن قبضة الإمام}[1].

وقال صاحب التاج والإكليل لمختصر خليل: قال عياض في إكماله: (أحاديث مسلم كلها حجة في منع الخروج على الأئمة الجورة وفي لزوم طاعتهم. وقال قبل ذلك: جمهور أهل السنة من أهل الحديث والفقه والكلام أنه لا يخلع السلطان بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق. ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه)[2]. وأخرج ابن حبان في صحيحه: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «خِيَارُكُمْ وخِيَارُ أئمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ، ويُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وتُصَلُّونَ عليهمْ، وشِرَارُكُمْ وشِرَارُ أئمَّتِكُمُ الذينَ تُبْغِضُونَهُمْ ويُبْغِضُونَكُمْ، وتَلْعَنُونَهُمْ ويَلْعَنُونَكُمْ» قِيلَ: أفلا نُنَابِذُهُمْ يا رَسُولَ اللَّه؟ قال: «لا ما أَقَامُوا الصَّلواتِ الخَمْسَ؛ ألا ومَنْ لَهُ وَالٍ فَيَرَاهُ يأتي شيئاً من معصيةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ ما يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، ولا يَنْزِعْ يداً مِنْ طَاعَتِهِ)[3]. أما إذا رؤي منه كفراً ظاهرا عليه برهان في دين الله فقد جاز الخروج عليه لما روي في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: (فقال فيما أَخَذَ علينا أن بايَعنا على السمع والطاعة في منشَطِنا ومَكْرَهنا وعُسرِنا ويُسرنا وأَثَرة علينا وأن لا نُنازِعَ الأمرَ أهله، إلاّ أن تَرَوا كفراً بَواحاً عندَكم من اللَّهِ فيه بُرهان)[4].

وقال العلماء: (وسبب انعزاله وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله

---

(١) المغني على مختصر الخرقي لابن قدامة ج: ٨ ص: ٧٧.

(٢) التاج والإكليل لمختصر خليل ج: ٢ ص: ٧٦٩.

(٣) صحيح ابن حبان ج: ٤ ص: ٢٨٦.

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٦٩٠٣).

أكثر منها في بقائه)[1]. والخروج على الحاكم في زماننا هذا والأمة مبعثرة متشتتة والأعداء يتربصون بها ويتلمسون الحيل لغزوها والانقضاض عليها وقد أكلوا بعضها ويتلمظون تلمظ الحيات ينتظرون البعض الأخر أقول الخروج على الحاكم في هذه الحالة أشد خطرا، وأعظم خطبا، وأفدح خسارة، لكونه يستثمر من قبل الأعداء لتدمير الأمة، كما فعلوا في العراق وغيرها. ونخلص من ذلك إلى تحريم الخروج على الإمام حتى ولو جار وفسق، فإنه ما لم يكفر بسلطان بين في كتاب الله تعالى كترك الصلاة أو منع الناس من أدائها، ووجوب قتال من خرج عليه بغير دليل يكفِّر ذلك الإمام. ولا يجوز السعي إلى عزله عن طريق التحزب، والتكتلات السياسية، والمظاهرات، وإثارة الفتن والاضطرابات.

---

(١) المجموع شرح المهذب للنووي .(باب قتال أهل البغي).

الفصل الرابع

أسباب النصر

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب المعنوية.

المبحث الثاني: الأسباب المادية.

المبحث الأول
الأسباب المعنوية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإيمان وما ينال به عون الله ومدده.
المطلب الثاني: طاعة الله والبعد عن المعاصي.
المطلب الثالث: التوكل على الله والاستنصار به.

المطلب الأول: الإيمان وما ينال به عون الله ومدده:

إن عون الله ومدده يناله المؤمنون به المصدقون برسله وكتبه. قال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. فقد بين الله في هذه الآية للمستفتحين وهم كفار قريش، وقيل المستفتح هو أبو جهل حيث قال يوم بدر حين التقي القوم: (اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة فكان ذلك استفتاحه فأنزل الله: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ... إلى قوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. فبين الله تعالى أن الإيمان سبب في معيته وعونه ونصره. كما بين ذلك في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. فقد جعل الله نصر المؤمنين حقا ألزم به نفسه الكريمة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[5]. وقاله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[6]. فعندما أمر الله المؤمنين بقتال الأقرب من عدوهم، أمرهم بالشدة على عدوهم، والصبر على جهاده، والغلظة له في القول، ونبههم إلى تقواه التي تنال بها معيته، فمن اتقى الله كان الله معه بنصره وتأييده وحمايته وتوفيقه. قال صاحب أحكام القرآن: (فيه أمر بالغلظة على الكفار الذين أمرنا بقتالهم في القول والمناظرة والرسالة إذ

---

(١) سورة الأنفال الآية (١٩).

(٢)المستدرك (الجزء الخاص بالقرآن) ج:٢ ص:٣٥٧.

(٣) سورة الروم الآية (٤٧).

(٤) سورة غافر الآية (٥١).

(٥) سورة الصافات الآيات (١٧١-١٧٣).

(٦) سورة التوبة الآية (١٢٣).

كان ذلك يوقع المهابة لنا في صدورهم، والرعب في قلوبهم، ويستشعرون منا به شدة الاستبصار في الدين، والجد في قتال المشركين، ومتى أظهروا لهم اللين في القول والمحاورة استجرءوا عليهم وطمعوا فيهم، فهذا حد ما أمر الله به المؤمنين من السيرة في عدوهم)[1]. وقال صاحب تفسير القرآن العظيم: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام - ولله الأمر من قبل ومن بعد - فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم)[2]. وقد بين الله تعالى أن معيته تنال بتقواه في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]. وبالتقوى والإحسان في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[5].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ج:٤ ص:٣٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير ج٢: ص:٤٠٣.

(٣) سورة البقرة الآية (٩٤).

(٤) سورة التوبة الآية (٣٦).

(٥) سورة النحل الآية (١٢٨).

جاء في التفسير الكبير: قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ قال: (اتقوا فيما حرم الله عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم)[1].

التقوى في اللغة بمعنى الاتقاء وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، والتقوى في الطاعة يراد بها الإخلاص، وفي المعصية يراد به الترك والحذر[2].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة.

قال الحسن: التقوى أن لا تختار على الله سوى الله وتعلم أن الأمور كلها بيد الله.

وقال إبراهيم بن أدهم: التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيبا، ولا الملائكة في أفعالك عيبا، ولا ملك العرش في سرك عيبا:

وقال الواقدي: التقوى أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق، ويقال التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك، ويقال المتقي من سلك سبيل المصطفى، ونبذ الدنيا وراء القفا، وكلف نفسه الإخلاص والوفا، واجتنب الحرام والجفا[3].

كما بين الله في آيات أخرى أنه مع الصابرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[4]. فبين الله تعالى في هذه الآية أنه يكون مع الصابرين.

وقد ورد في فضل الصبر وأثره في النصر أحاديث كثيرة منها: عن ابن عباس قال: (كنت رديف النبي ﷺ، فقال: يا غلام أو يا غليم، ألا

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج:٢ ص:٢٠.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج:٥ ص:١٨٠.

(٣) التعريفات للجرجاني ج:١ ص:٩٠.

(٤) سورة البقرة الآية (١٥٣).

أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، فقلت: بلى، فقال: أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً)[1].

وأن الصبر من عدة المعركة وأنه يجبر النقص والقلة. قال عز من قائل: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]. جاء في تفسير الثعالبي: (قولهم رضي الله عنهم: كَم مِّن فِئَةٍ ...الآية تحريض بالمثال وحض واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه والله مع الصابرين بنصره)[3].

وقد حث الله المؤمنين على القتال بذكره صبر أتباع النبيين السابقين، وبين أنه مع من يصبر. فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[4].

وبالصبر والتقوى ينزل مدد الله وجنده ليكونوا عنونا وعضدا للمؤمنين: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[5]

قال القرطبي: (فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم فهذا كله يوم بدر)[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (٢٨٠٨).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(٣) تفسير الثعالبي ج: ١ ص: ١٩٦.

(٤) سورة آل عمران الآية (١٤٦).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٢٥).

والصبر يكون على طاعة الله ورسوله، ويكون على اختلاف وجهات النظر حتى لا يحدث الاختلاف فينشق الصف فتضعف القوى وتذهب ريح النصر، قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]. وطاعة الله تعالى من أرجى الأسباب لعونه، وعصيانه من أقصر الأسباب لخذلانه، كما أن الوحدة من أعظم أسباب النصر، والفرقة من أعظم أسباب الهزيمة، وما وهت دولة الإسلام وتهاوت إلا بعد أن تفرقت وتشرذمت وتنازعتها الأهواء، الكل يريد أن يحكم والكل يريد أن يسود ويسيطر، حتى وصل ببعض المسلمين حال لجأوا فيها إلى أعدائهم اليهود يستنصرونهم على إخوانهم المسلمين من أجل السلطة أو البقاء فيها، وأصبح هذا أقصر الطرق للوصول إلى الحكم، ومن هنا أُتيت دولة الإسلام، وتآكلت وتكالبت عليها الأُمم، وصارت لا تملك قرارها، وأصبحت أنظمتها تجتمع بأمر أعدائها وتتفرق بأمرهم.

ومن أسباب النصر أيضا، سعي المؤمن لنصر الله تعالى، قال الحق عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣]. قال صاحب أضواء البيان: (ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم وثبت أقدامهم أي عصمهم من الفرار والهزيمة)[٤]. وقد أوضح الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

---

(١) تفسير القرطبي ج:٤ ص:١٩٤.

(٢) سورة الأنفال الآية (٤٦).

(٣) سورة محمد الآية (٧).

(٤) أضواء البيان للشنقيطي ج: ٧ ص: ٢٥١.

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [2].

المطلب الثاني: طاعة الله والبعد عن المعاصي:

إن الذنوب والمعاصي قد تكون سببا لإيقاع العقوبات وإنزال الهزائم، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3]. جاء في سبب نزول هذه الآية عن علي رضي الله عنه، قال: (جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، قال: فدعا رسول الله ﷺ الناس، فذكر لهم ذلك فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً، عدة أسارى أهل بدر)[4]. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [5]. وبين الله في هذه الآية أن المسلمين انهزموا يوم أُحد وولوا هاربين وكان ذلك الفرار بسبب معصية ارتكبوها فعوقبوا عليها بأن سُلط عليهم الشيطان يطلب زلتهم. ثم عفا الله عنهم بعد ذلك. قال أبو السعود[6]: (إنما استزلهم

---

(١) سورة الحج الآية (٤٠).

(٢) سورة غافر الآية (٥١).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٦٥).

(٤) تفسير ابن كثير ج: ١ص: ٤٢٦. وقال: رواه النسائي والترمذي و قال الترمذي: حسن غريب

(٥) سورة آل عمران الآية (١٥٥).

(٦) أبوه الشيخ محمد بن مصطفى العماد وقد ولد المولى المذكور في شهر صفر ٨٩٦ هـ .قرأ حاشية التجريد وشرح المفتاح وشرح المواقف من أوله إلى آخره على أبيه وكان في مسند المشيخة الإسلامية قريبا إلى ثلاثين سنة وصنف إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم في التفسير=

الشيطان:(أي إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ببعض ما كسبوا من الذنوب والمعاصي التي هي مخالفة أمر النبي ﷺ، وترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة، فحرموا التأييد وقوة القلب وقيل، استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت)[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[2]

قال صاحب تفسير روح المعاني:(وما أصابكم من مصيبة أي مصيبة كانت من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات فبما كسبت أيديكم أي معاصيكم التي اكتسبتموها)[3]. قال صاحب معاني القرآن:(روى سفيان عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر. ثم تلا: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. قال أبو جعفر: فالمعنى على هذا وما أصابكم من مصيبة مقصود بها العقوبة فبما كسبت أيديكم. وأن كل مصيبة تصيب فإنما هي من أجل ذنب، إما أن يكون الإنسان عمله، وإما أن يكون تنبيها له لئلا يعمله، وإما أن يكون امتحانا له ليعتبر والداه، فقد صارت كل مصيبة على هذا من أجل الذنوب)[4]. ومن هذه الآيات البينات يتبين لنا أن المعاصي قد تكون سببا في إيقاع الهزيمة، ومن المعاصي التي يقع فيها الجند معصية الله ورسوله وولاة الأمر، كما حدث في يوم أحد حيث خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وذهبوا لجمع الغنائم بعد أن رأوا علامات النصر، على قول من قال إن المعصية هي مخالفة الرماة

=وكان تفسيره من أمثال الكشاف والبيضاوي من أكمل التفاسير وكانت وفاته في شهر جمادى الأولى هـ. ٩٨٢ انظر طبقات المفسرين للداودي ج: ١ ص: ٣٩٨.

(١) تفسير أبي السعود ج:٢ ص: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٦٦).

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ج: ٥ ص: ٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ج: ٦ص: ٣١٦.

أماكنهم التي عينها لهم النبي ﷺ. قال محمد بن إسحاق[1] وابن جريج والربيع بن أنس[2] والسدي[3] ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة)[4]. فكان ذلك سببا لإنزال العقوبة على الجيش المسلم وفيهم رسول الله ﷺ حيث كسرت رباعيته وكسرت البيضة على رأسه. أو لأنهم أخذوا الفداء من أسرى بدر كما سبق. أو الاعتداء على الأموال المحرمة أو غير ذلك من المعاصي والمحرمات.

المطلب الثالث: استنصار الله والتوكل عليه

إن القوة شرط لازم لتحقيق النصر ولكنه غير كاف. فالله الذي وضع الأسباب يعطلها متى شاء .قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[5]. فقد بين الله في هذه الآية أنه هو وحده الذي يملك النصر لا أحد غيره يملكه، فإن نصر الله المؤمنين المخاطبين بهذه الآية فلا أحد يهزمهم، وإن تخلى عن نصرهم

---

(١) محمد بن إسحاق مولاه قيس بن مخرمة قد رأى أنس بن مالك وروى عن زيد بن ثابت وكان عالما وماهرا في السير والمغازي وقصص الأنبياء والحديث والفقه والقرآن وحدث في بغداد وتوفي فيها سنة خمسين ومائة. انظر طبقات المفسرين للداودي ج: ١ ص: ١٩.

(٢) الرَّبِيْعُ بنُ أنَس البَكْرِي، ويُقالُ: الحَنَفِي، البَصْرِي ثُمّ الْخرَاسَانِي. روىٰ عن: أنَس بن مالك والحَسَن البَصْرِيّ، ورُفَيْع أبي العالية الرِّيَاحيّ)، وجَدّيه وَهما زياد وزَيْد، وصَفْوان بن مُحْرِز، وا مّ سَلمة زَوج النّبيّ ولَم يُدْركها . روىٰ عنه: الحُسَين بن زاقِد المَرْوَزِيّ، وسُفيان الثّورِيّ، وسُلَيْمان بن عامِر البُرْزِيّ . انظر تهذيب الكمال للمزّي أبو الحجاج ج : ٥ ص : ٣٣٢.

(٣) إِسْمَاعِيلُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَانِ بنِ أَبِي كَرِيْمَةَ الأسدي، أَبُو مُحَمَّدٍ القُرَشِيُّ الكُوْفِيُّ الأَعْوَر، مَوْلَى زَيْنَب بِنْتِ قَيْسِ بنِ مَخْرَمَة، وَقِيلَ: مَوْلَى بَنِي هَاشِم، أَصْلُهُ حِجَازِي، سَكَنَ الكُوْفَة، وَكَانَ يَقْعُدُ فِي سُدَّةِ بَابِ الجَامِعِ بِالكُوفَةِ، فَسُمِّيَ السُّدِّيَ، وهو السُّدِّيُّ الكبير .روى عن: أَنَس بن مالك وغيره . انظر تهذيب الكمال ج : ٢ ص: ٨٥.

(٤) تسير ابن كثيرج: ١ ص: ٤٢٦.

(٥) سورة آل عمران الآية (١٦٠).

فلس ثَمّ من ينصرهم. قال ابن عباس:(ان ينصركم الله كما نصركم يوم بدر فلا يغلبكم أحد، وان يخذلكم كما خذلكم يوم أحد لم ينصركم أحد)[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. فبين تعالى أن نزول الملائكة وغير ذلك من الأسباب إنما هو طمأنينة للمؤمنين لتسكن قلوبهم، ولا يجب الاعتماد عليها لأنها لا تعمل باستقلالية عن الله بل بأمره تعالى. قال ابن كثير: (ما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[2]. فالله هو الذي أودع الأسرار هذه القوة المؤثرة، ولو شاء عطل هذه القوة، كما فعل مع إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، حيث عطل خواصها جميعا بل غير خواصها وصفاتها إلى العكس تماما، فإن من خواصها الحرُّ والحرق والتدمير والقتل، ولكن حولها الله إلى برد وسلام قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[3]. وكذلك أبطل الله عملها عندما ألقي فيها أبو مسلم الخولاني قال بن كثير: (بينما الأسود بن قيس العنسي باليمن فأرسل إلى أبي مسلم الخولاني فقال أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم. قال أتشهد أني رسول الله؟ قال ما أسمع. قال: فأعاد أليه قال ما أسمع فأمر بنار عظيمة فأججت فطُرح فيها أبو مسلم فلم تضره. فقيل لئن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك فأمره بالرحيل فقدم المدينة وقد قبض النبي ﷺ واستخلف أبو بكر. فقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي. فبصر به عمر فقال من أين الرجل؟ قال: من اليمن ما فعل الله بصاحبنا الذي حرق بالنار فلم تضره قال: ذاك

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج :٩ ص: ٥٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج:١ ص:٤٠٣ سورة محمد الآية (٤).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٦٩).

عبد الله بن أيوب قال نشدتك بالله أنت هو؟ قال اللهم نعم. قال فقبل ما بين عينيه ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام)[1]. ومن خواص الماء أن تغرق ويغوص الناس في أعماقها ولكن الله سلبها تلك الخاصية أيضا لأبي مسلم الخولاني! روى البيهقي عن طريق أبي النضر عن سليمان ابن المغيرة أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى دجلة وهي ترمي الخشب من مدها فمشي على الماء والتفت إلى أصحابه وقال هل تفقدون من متاعكم شيئا فندعو الله تعالى. وروي أنه كان إذا غزا أرض الروم فمروا بنهر قال: أجيزوا باسم الله، قال فيمر بين أيديهم فيمرون على الماء فما يبلغ من الدواب إلى الركب)[2]. ويوم حنين وقد توفرت أسباب النصر المادية للمسلمين، وأعجبتهم كثرتهم وظنوا أنهم منتصرون لا محالة، ولكنهم انهزموا وولوا هاربين. (روي أن النبي ﷺ كان في اثني عشر ألفا والمشركون أربعة آلاف عليهم مالك بن عوف النصري فقال رجل من الأنصار يقال له سلمة ابن سلامة: لن نغلب اليوم عن قلة فلم يرض الله تعالى قوله ووكلهم إلى أنفسهم فحمل المشركون حملة انهزم المسلمون كلهم سوى نفر يسير بقوا مع رسول الله فيهم العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[3].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج: ٦ ص: ٣٦٧.

(٢) المصدر السابق ج: ٦ ص: ٣٦١.

(٣) تفسير السمعاني ج:٢ ص:٢٩٨ سورة التوبة الآية (٢٥).

وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز الاستغناء عن الله تعالى والاعتماد على الاسباب. ولا يجوز ترك الأسباب التي أمر الله أن يُؤخذ بها ورتب عليها نتائج وأثارا. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1] قال صاحب إعراب القرآن: (قال ابن زيد البأس الشديد السلاح والسيوف يقاتل الناس بها)[2]. فقد أثبت الله تعالى في هذه الآية أن للحديد تأثير وشدة. والحديد سبب للقتل والدمار والذبح والاطمار[3]، كما نشاهد ذلك في زماننا هذا، فلا سبيل لنكرانه، فكم هدمت بالحديد من مدن وزهقت من أرح.

---

(١) سورة الحديد الآية رقم (٢٥).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ج:٤ ص:٣٦٧

(٣) طمر البئر طمرا دفنها. انظر لسان العرب لابن منظور ج:٤ ص:٥٠٢

المبحث الثاني

الأسباب المادية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قوة الأبدان وفعالية العتاد.

المطلب الثاني: وحدة الصف.

المطلب الثالث: كثرة السواد.

المطلب الأول: قوة الأبدان وفعالية العتاد:

إن القوة شرط لازم لتحقيق النصر كما أن الضعف سبب كافٍ لجلب الهزيمة؛ ومن أجل ذلك رتب الله عز وجل عليهما أحكاما متباينة، وفضل الله القوي على الضعيف في المحبة والأثرة. قال الله تعالى حكاية عن بني إسرائيل مع نبي لهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. فقد احتجوا على نبيهم وتعجبوا من تفضيل طالوت عليهم ولم يكن من بيت الملك المألوف. قال صاحب التفسير الكبير:(إن الله تعالى لما عينه لأن يكون ملكا لهم أظهروا التولي عن طاعته والإعراض عن حكمه وقالوا أنى يكون له الملك علينا واستبعدوا جدا أن يكون هو ملكا عليهم قال المفسرون: وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بني إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب ومنه موسى وهرون وسبط المملكة سبط يهوذا ومنه داود وسليمان وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين بل كان من ولد بنيامين فلهذا السبب أنكروا كونه ملكا لهم)[2]. ولم يكن من أصحاب المال حتى ينفق على الجند والعتاد. ولكن أوضح لهم نبيهم أن تفضيله عليهم جاء بسبب قوته وصلاح قامته وعلمه بالحروب. وقد امتدح الله الملائكة بقوتهم وشدتهم فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[3]. وقد قال النبي ﷺ:(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ)[4]. وقد أمر الله بإعداد القوة اللازمة لقهر العدو وإرهابه، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٧).

(٢) التفسير الكبير للرازي ج: ٦ ص: ١٤٧.

(٣) سورة التحريم الآية (٦).

(٤) صحيح مسلم ج: ١٦ ص: ١٨٤.

اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١). وقد بينت في الفصل الثاني أن القوة التي يتم بها إرهاب العدو يجب أن تكون قوة هائلة أعظم من قوة العدو أو على الأقل تساويها، وليست أي قوة كما يتوهم البعض، فإن لم تكن كذلك فإن إرهاب العدو الذي أمر الله بإعداد القوة من أجله لن يتحقق. وقد فهم المسلمون الأوائل هذه الآية حق فهمها، وعملوا بها حتى أصبحت قوتهم أقوى قوة في زمانها. قال صاحب كتاب الجهاد سبيلنا (فقد تطور التسلح العسكري إيجابيا وباستمرار لدى المسلمين السابقين ففي عهد النبي ﷺ استعمل المسلمون المنجنيق والعرادات والدبابات وفي الحصار وفي دك الحصون والأسوار. وقد بعث النبي ﷺ رجالا من المسلمين إلى جرش في الشام لتعلم صناعة الأسلحة، ثم صنعها المسلمون، واستخدمها الرسول ﷺ في حصار الطائف وحصار خيبر وتطور عدد الفرسان باستمرار: ففي غزوة بدر الكبرى كان عدد الفرسان في جيش الرسول ﷺ اثنين فقط من أصل أربعة عشر وثلاث مئة مقاتل، بينما تطور العدد في غزوة تبوك فبلغ عدد الفرسان عشرة آلاف فارسا، من أصل ثلاثين ألف مقاتل، ودخل التسليح البحري، وأقيمت مدارس حربية لتعليم فنون القتال في البحار. وتطور التسليح البحري لدى المسلمين حتى أصبح أقوى أسطول بحري في زمانه، وتغلب على أساطيل الرومان التي كانت أقوى أساطيل زمانها، و كانت هذه الأساطيل كما يقول بن خلدون تهرب أمام البحرية الإسلامية التي ضربت عليها كضراء الأسد على فريسته. وفي عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، خرج الروم لقتال المسلمين بأسطول بحري قوامه خمسمئة سفينة بحرية، بقيادة قسطنطين بن هرقل ملك الروم، تحرك الأسطول نحو المسلمين ببلاد المغرب، فخرج له المسلمون بأسطول بحري قوامه مائتا سفينة بحرية، بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح. والتقى الجيشان في معركة بحرية ضارية سميت وقعة ذات الصواري:

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٠).

لكثرة ما فيها من سفن. أصيب خلالها قسطنطين بجروح شديدة، وحلت الهزيمة في جيشه، وانطلق هاربا بمن بقي معه من الجنود وكان النصر حليف المسلمين وبهذا الانتصار أصبح حوض البحر الأبيض المتوسط حوضا إسلاميا، يسيطر عليه المسلمون، وتمخر فيه سفنهم حيث شاءت بحرية وأمان)[1]. وسنة الله في خلقه منذ أن خلق الأرض ومن عليها أن القوي يغلب الضعيف، وكما نرى ذلك واضحا في زماننا، أن النصر هو حليف صاحب السلاح الأقوى. والهزيمة ملازمة لصاحب السلاح الأضعف. ولا يعني ذلك أن القوة تصنع النصر بمعزل عن قدر الله وإرادته، فقدرة الله هي الأقوى، ومن كان الله معه كان النصر معه. ومن لم يكن الله معه فلن تنفعه قوته ولو عظمت.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضع! لماذا ينتصر اليهود والملحدون على المسلمين في هذا الزمان؟ وتكون الإجابة من نظرة سريعة إلى واقع الأمة، لأسباب عدة:

السبب الأول: أنه لما جعل المسلمون دينهم خطبا وأحاديث و تخلّوا عن مبادئه وأخلاقه وأصبح الذي ينادي بالإصلاح يحتاج إلى إصلاح، تخلى الله عنهم ووكلهم لأنفسهم.

السبب الثاني: أنه لما كان اليهود مجتهدين في إعداد أسلحتهم، وتقوية أنفسهم، وأن المسلمين يكتفون من القوة بما يكبت شعوبهم، ويجتزئون من العتاد بما يرهب إخوانهم، ولما تخلى الله عن نصر المسلمين بعد أن تخلوا هم عن دينهم ونصرة ربهم؛ كانت الغلبة للقوي المجتهد في إعداد قوته والهزيمة للضعيف الغافل عن تطوير عدته. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وهذا قمة العدل- ولكل مجتهد نصيب- فالمسلمون لما لم يجتهدوا في

---

(١) كتاب الجهاد سبيلنا لعبد الباقي ومضون. ص (١٣٨-١٣٩).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٦٥).

أرضاء ربهم فيستحقوا نصره وتأييده، ولم يجتهدوا في إعداد القوة فيتغلبوا بها على عدوهم، كانوا نهبا للأمم وهدفا للطامعين وعنوانا للهزائم والنكبات.

المطلب الثاني: كثرة السواد:

إن كثرة العدد وعظم السواد له رهبة في القلوب، وأثر في النفوس، وخاصة إذا صحبت الكثرة قوة السلاح، وجودة العتاد. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. بيّن الله تعالى في هذه الآية أن المسلمين كانوا يخافون على أنفسهم من الهلاك بسبب قلة عددهم، وامتن عليهم بأن سخر لهم أهل المدينة فآووهم ونصروهم وكثروا سوادهم. قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[2]. ومجيء الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم دليل على كثرتهم. قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل: (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم أي حصروا المدينة من أعلاها ومن أسفلها وقيل معنى من فوقكم أهل نجد لأن أرضهم فوق المدينة ومن أسفل منكم أهل مكة وسائر تهامة)[3]. ولما كان عدد الكفار كثيرا فزع منهم المسلمون حتى ظنوا أنهم سيغلبون وقد وعدهم الله النصر، ولا يخلف الله وعده.

ومما سبق يتبين أن القوة المادية مكملة للقوة المعنوية والعكس بالعكس. فمن كان سلاحه قوياً ولكنه منهزم الروح فإن ضربته لا تنفذ. ومن كانت روحه المعنوية عالية وكان سلاحه ضعيفاً فإن رميته لا تبلغ ولا تؤثر.

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٦).

(٢) سورة الأنعام الآية (٦٥).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج: ٣ ص: ١٣٣.

وقد أرشد الله تعالى في كتابه العزيز إلى كثرة العدد وأمر المسلمين بالنفرة جميعا لقتال عدوهم، فقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]. فلم يستثن منهم أحدا ثم خفف الله عنهم بعد ذلك، وسمح لأهل الأعذار بالتخلف عن الجهاد. وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أهمية كثرة السواد وأثره في نفوس عدوهم، فهاهو عبد الله بن أم مكتوم[2] وقد كان ضريرا يبرز يوم القادسية لابساً درعه، مستكملا عدته، وندب نفسه لحمل راية المسلمين، وكان يقول لأصحابه: أعطوني الراية فإني أعمى لا أفر. ولما قيل له: لماذا تقاتل وقد عذرك الله! قال أريد أن أكثر سواد المسلمين. (والتقى الجمعان في أيام ثلاثة قاسية عابسة ... واحترب الفريقان حربا لم يشهد لها تاريخ الفتوح مثيلا حتى انجلى اليوم الثالث عن نصر مؤزر للمسلمين، فزالت دولة من أعظم الدول، وزال عرش من أعرق العروش، ورفعت راية التوحيد في أرض الوثنية، وكان ثمن هذا النصر المبين مئات الشهداء وكان بين هؤلاء الشهداء عبد الله بن أم مكتوم، فقد وجد صريعا مضرجا بدمائه وهو يعانق راية المسلمين)[3]. قال صاحب الإصابة في تمييز الصحاب: (وقال الزبير بن بكار خرج إلى القادسية فشهد القتال واستشهد هناك وكان معه اللواء حينئذ وقيل بل رجع إلى المدينة بعد القادسية فمات بها ذكره البغوي)[4]. ويبين أثر السواد وكثرة العدد في القتال ما حدث للمسلمين يوم مؤتة: (ففي غزوة مؤتة، ألتقى المسلمون وعددهم ثلاثة آلاف بقيادة زيد بن حارثة، بأعدائهم وعددهم مائتا ألف، من الروم والعرب بقيادة هرقل، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل شهيدا، وكذلك جعفر بن أبي طالب وكذلك عبد الله بن

---

(١) سورة التوبة الأية (٤١).

(٢) عبد الله بن أم مكتوم الأعمى القرشي وهو عبد الله بن عمرو بن شريح كان اسمه قبل ان يسلم الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله مات بالمدينة. انظر مشاهير الأمصار ج: ١ ص: ١٦.

(٣) صور من حياة الصحابة لعبد الرحمن رأفت الباشا ص: ١٥٤.

(٤) الأصابة في تمييز الصحابة الترجمة رقم (٥٧٦٧).

رواحة، فلما آلت الراية إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين...انحاز بالجيش...لأنه خشي على المسلمين الهلاك لقلة عددهم وعُدَدِهم وعتادهم، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة)[1]. وأما إذا كان السلاح قويا فتاكا كما هو في زماننا هذا فالكثرة لا تهم، لأن جنديا واحدا مثلا يقود طائر يستطيع أن يحارب جيشا كاملا على الأرض، فيهزمهم ويفرق جمعهم. ويجوز للكثير أن يفروا من وجه القليل إذا لم يكن لهم سلاح يبلغ عدوهم، كمن معه رشاشات أودبابات ومع عدوه طائرات تحمل قنابل كالقنابل العنقودية أو الذرية أو غير ذلك من الأسلحة الفتاكة التي لا تقاوم، فما جدوى بقائه وهو يُصاد ولا يَصيد ويُصاب ولا يصيب!.

المطلب الثالث: وحدة الصف:

إن وحدة الصف وعدم النزاع وحسن التدبير والتعاون بين المقاتلين، عامل مهم أيضا من عوامل النصر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[2]. قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ قال كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم وهذا تعليم من الله للمؤمنين. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾. أي ملتصق بعضه في بعض من الصف في القتال. وقال مقاتل بن حيان ملتصق بعضه إلى بعض. وقال بن عباس: (كأنهم بنيان مرصوص مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض) وقال قتادة: (كأنهم بنيان مرصوص ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره وأن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به)[3]. ولعل وصفهم بالبنيان

---

(١) كتاب الجهاد سبيلنا لعبد الباقي رمضون ص: ٩٢.

(٢) سورة الصف الآية (٤).

(٣) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٣٦٠.

المرصوص دليل على وحدتهم، وتعاونهم، وانسجامهم، وعدم تنافرهم. قال صاحب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله صفا متراصا متساويا من غير خلل يحصل في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضا ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال صف أصحابه ورتبهم في موافقهم بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها، وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال)[1].

(١) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج: ١ ص: ٨٥٨.

خاتمة:

بعون الله وتوفيقه تم هذا البحث فله الحمد والمِنَّة والثناء الحسن، وأسأله تعالى أن يتقبل جهدي ويتجاوز عن عثراتي وتقصيري، إنه هو الجواد الغفور. ويمكن تلخيص أهم نتائج البحث فيما يلي:

١- الجهاد وسيلة للسلام، وإقرار الحق والعدل، وإزالة الاستبداد والظلم، وأعظم الظلم أن يُعبد غير الله وهو الخالق الرازق.

٢-القتال من أجل دفع الصائل المتهجم على المسلمين واجب على كل قادر، ولا يشترط له شرط ولا ينتظر له إذن من أحد.

٣- قتال الابتداء والطلب لا يجوز إلا بعد توفر الشروط اللازمة، ومنها:

أ- القوة المادية الكافية لإرهاب العدو.

ب- إمام يلم الشمل ويتولى الإشراف والتوجيه. وهو القيادة العليا التي ينحاز إليها المسلمون إذا اضطروا إلى الانهزام والتقهقر.

ج- بغير الشروط السابقة يكون القتال فتنة وفوضى. فلو قاتل المجاهدون بغير سلاح بالغ لمواقع العدو، وسلاح العدو يبلغهم ويفتك بهم يكون ذلك عصيان لله تعالى الناهي عن الوقوع في التهلكة، وأمره بأخذ الحذر وإعداد القوة المرهبة للعدو. ولو قاتلوا بغير إمام يكون لهم فئة ينحازون إليها إذا انهزموا وأرض تؤويهم إذا ضعفوا، يكونون نهبا للعدو يتخطفهم من كل مكان وينكل بهم في السجون والمعتقلات.

٤- إن من الثغور التي يتغلغل منها الأعداء في جسد الأمة هم الغلاة من الشباب والدعاة الذين أوقعوها في حرب خاسرة لا تتوفر فيها أدني أسباب النصر، أو تمردوا على حكامهم فجلبوا لدولهم الضغوط الخارجية والحصارات الاقتصادية. والحكام الظالمون المستبدون الذين فتكوا بشعوبهم، وضيقوا عليهم، ومنعوهم أدنى درجات الحرية، واضطروهم إلى الاستغاثة باليهود أعداء الله وأعدائهم من أجل الخلاص؛ فتدخلوا باسم الحريات وحقوق الإنسان وغير ذلك من الدعاوى.

٥- حرمة دم المسلم عظيمة عند الله فلا يجوز هدرها إلا بحق.

٦- الخروج على الحكام وولات الأمر مفسدة عظيمة، وهدم لجسد الأمة، وأضعاف لها على ضعفها بتفريقها وشتاتها، ولا يجوز الخروج على الإمام إلا إذا كفر كفرا بواحا علية من الله سلطان.

٧- نحن المسلمين نعد القوة للحروب كما يعدها أعداؤنا والفرق بيننا وبينهم أننا نرجو من الله ما لا يرجون.

٨- من صفات شخصية المسلم المثالي، أنه يدين لربه بالوحدانية الخالصة التي لا يشوبها شرك. وقّافاً عند حدود ربه ولا يتبع الهوى. قائما بالليل يتلو كتاب ربه ساجدا وراكعا يرجو رحمته ويخاف عذابه، صوالاً جوالاً في عدو الله وعدوه يرجو إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، حذرا متيقظا لأعدائه لا يشغله عنهم منصب ولا دنيا، وهذه من صفات رسول الله ﷺ فقد كان لا يتهاون في أمر العقيدة ولا يجامل. عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ : (ما شاء الله وشِئْتَ) فقال له النبي ﷺ: (أجعلتني والله عدلاً ؟ بل ما شاء الله وحده)[1]. وقد كان يقوم بالليل حتى تفطرت قدماه، وكان ﷺ يقظا لأعدائه لا يشغله عنهم شاغل، فقد كان يرسل السرايا يتحسس أخبارهم، وكان صنديدا شجاعا يلوذ به الفرسان إذا حمي الوطيس واحمرت الحَدَق. عن علي رضي الله عنه قال: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[2].

٩- أوصي في نهاية هذه الخاتمة الباحثين بأن يأخذوا الآراء مجتمعة عند تناولهم المسائل بالبحث حتى يصلوا إلى الرأي السديد ولا يتعصبوا لرأي وغيره أقرب إلى الصواب منه.

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٨٥٠).

(٢)مسند الإمام أحمد حديث رقم (٦٥٦).

فهرس الآيات

سورة البقرة

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾	١٥٣	١٨٦
﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	١٨٦	١٥٠،١٥١
﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾	١٩٠	٧٦
﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾	١٩١	٧٧،٤٦،١١٦
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾	١٩٣	٢١
﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾	١٩٤	١٠٩،١١٨،١٢٩
﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾	١٩٥	١٥٠ ، ٥٧
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾	٢٠٨	٣٤
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾	٢١٤	٨٥
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾	٢١٦	٧٠
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾	٢٤٦	٩١، ٤١
﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾	٢٤٧	١٩٦
﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ . . . ﴾	٢٤٩	٥٧
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾	٢٥١	٦١،٢٢
﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾	٢٥٦	١٦٩،١٢٦،١٢٤
﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	٢٨٦	١٥٠،١٥١

سورة آل عمران

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾	٢٨	١٢١،١٥٠،١٥٤
﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾	١٤٧	٩٤
﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	١١٦	١٦٢
﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا ﴾	١٢٥	١٨٧
﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ ﴾	١٢٦	١٩٢
﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾	١٣٧	١٥٣،٥٨
﴿ وَلاَ تَهِنُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾	١٣٩	١٩
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ ﴾	١٤٢	٨٥
﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾	١٤٦	١٨٧،٩٤
﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾	١٥٢	٦٤
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾	١٥٥	٩٨،٦٤
﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾	١٥٧	٧٣
﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾	١٦٠	١٩١
﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ ﴾	١٦١	٩٩
﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا ﴾	١٦٥	١٨٩،١٩٨
﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾	١٦٦	١٩٠
﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾	١٦٩	٧٢

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾	١٧٠	٧٢
﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾	١٧١	٧٢
﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾	١٧٣	١٥٣
﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾	١٧٤	١٥٣
﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾	١٧٥	١٥١
﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ ﴾	١٩٥	٧٣

سورة النساء

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾	٤٨	١١٧،١٢٩
﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾	٥٩	١٧٩،٣٣
﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٧٥	٧٤
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	٨٦	٧٥
﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾	٨٨	١٣٧
﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾	٨٩	١٣٨،٧٥
﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾	٩٠	١٣٩
﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾	٩٠	١٣٩
﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ ﴾	٩١	١٤٠،٧٩
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾	٩٤	٢٨

الآيـــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾	٩٤	١٢٥،٢٨،١٧٠
﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾	٩٥	٨٠
﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾	٩٦	٨٠

المائدة

الآيـــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ . . . ﴾	٥٤	٨٤
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى . . . ﴾	٩٦	١٦٠

الأنعام

الآيـــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾	٥٤	٢٥
﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾	٦٥	١٩٩

الأنفال

الآيـــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا . . . ﴾	١٥	٩٥
﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾	١٦	٩٦
﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾	١٩	١٨٤

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ ﴾	٢٦	١٩٩،٥٧
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾	٣٩	١٢١،٢٢،٥٣
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾	٤٦	١٨٨
﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾	٥١	١٨٩
﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾	٥٧	١٠٣
﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾	٥٨	٥٢
﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾	٦٠	١٥٦،٥٥
﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾	٦١	٣٠،١٧
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾	٦٥	٦٩
﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾	٦٦	١٥٦
﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾	٦٧	١٠٦
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾	١٤٥	٦٦

التوبة

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾	٢	١٣٠
﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا ﴾	٤	٥٢
﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾	٥	٣٢، ١١٦، ١٢٩، ١٣٠
﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾	٧	٥١
﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾	١٢	٧٧
﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾	١٣	٧٧
﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾	١٤	٧٩
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا ﴾	١٦	٨٥
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا ﴾	١٧	٨٥
﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾	١٩	٨٦
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾	٢٠	٨٦

الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ . . ﴾	٢٤	٩١
﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾	٢٥	١٩٣
﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾	٢٩	١١٦، ١٣١، ١٤٠
﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾	٣٦	٥٠
﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾	٣٦	١١٢، ١١٧، ١٣٦
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا . . . ﴾	٣٨	٩٢
﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾	٤١	٢٠٠
﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا ﴾	٤٤	٨٦
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾	٧٣	١٢٦، ١٣٤، ١٣٧
﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾	٨١	٨٩
﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾	٨٦	٨٨
﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾	٨٧	٨٨
﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾	٨٨	٨٩
الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾	١١١	٧٠
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾	١٢٣	١٢٦، ١٣٤

يونس

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾	٩٩	١٢٤، ١٢٧، ١٧٤

الرعد

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾	١١	١٦٠، ٦١

النحل

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٤٣	١٦٤
﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾	١٠٦	١٧٤، ١٧٠
﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾	١٢٨	١٨٥

طه

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾	٤٧	٣٨
﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾	٩٤	٤٣

الأنبياء

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾	٩٦	١٩٢

الحج

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾	٣٦	١٧
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ ﴾	٤٠	٢٢
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾	٤٠	١٨٩
﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾	٧٨	١٥١

النور

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾	٢٧	٢٥
﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾	٤٥	٨٨
﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾	٦١	٢٦

سورة الشعراء

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾	٤	١٧٤

النمل

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾	٢٦	١٠٨

العنكبوت

الآيـــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	٤٦	١٦٣،١٦٤

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾	٤٦	١٦٣، ١٦٤
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾	٦٩	٦١

الروم

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٢٧	١٨٤

الأحزاب

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾	٥٦	٢٦

الصافات

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾	١٧١	١٨٤
﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾	١٧٢	١٨٤

الزمر

الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾	٢٧	١٧

غافر

الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	٥١	١٨٤،١٨٩
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾	٧٨	١٦٤

محمد

الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾	٤	١٣٢
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾	٧	١٨٨
﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾	٣٥	٣١

الفتح

الآيـــــــــــــــة	قم الآية	رقم الصفحة
﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾	١٦	١٢٦،١٧٢
﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ ﴾	٢٥	١٧٦

الحجرات

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾	١٠	١٢٢، ١٧٨
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾	١٠	٨٥

الحشر

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾	١٤	٩٥

الصف

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾	٤	٢٠١

التغابن

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَاتَّقُوا۟ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾	١٦	١٥٠، ١٥١

التحريم

الآيـــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾	٦	١٩٦

الإنسان

الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾	٨	١٠٧

البروج

الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾	١٨	٢٣

فهرس الأحاديث النبوية

الحـــــــــــــديث	رقم الصفحة
١- (أنَّ امرأةً وُجِدَت في بعضِ مَغازي النبيِّ ﷺ مقتولةً)	٢٠
٢- (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّه)	٢٣،١٧٢،١٢٣،١٢١،١٢٠
٣- (أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ)	٣٦
٤- (خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورته، طولهُ ستون ذراعا)	٢٥
٥- (لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام)	٣٦
٦- (إن الله تعالى أعطى أمتي ثلاثا لم تعـــط أحد قبلهم)	٣٦
٧- (إذا ســـلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم)	٣٧
٨- لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا)	٣٨
٩- (كَانَ رَسُولُ الله إِذَا أَمَّرَ أَميراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاه في خَاصَّتِه بتَقْوَى الله)	٢٠
١٠- (إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكُمْ...)	٣٧
١١- (مَن أطاعَني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عَصى الله)	٤١
١٢- (كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ)	٤٤
١٣-(إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض)	٤٧
١٤- (لا هجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيَّة)	٤٨

الحديـــــــــــــث	رقم الصفحة
١٥- (فإنْ أحدٌ ترَخَّصَ لقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ فقولوا له: إنَّ اللهَ أَذِنَ لرسولهِ ﷺ ولم يأذَنْ لكم)	٤٨
١٦- إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات)	٥٠
١٧- (لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف)	٥١
١٨-(لأعطِينَّ الرايةَ رجُلاً يفتَحُ الله على يدَيهِ)	٥٤
١٩-(ألا إن القوة الرمي قالها ثلاث)	٥٥
٢٠-(قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)	٦٩
٢١-(أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا)	٧١
٢٢-(يا جابر ما لي أراك منكسا مهتما)	٧٢
٢٣-(لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير)	٧٢
٢٤-(أبشروا فإن الفرج قريب)	٧٩
٢٥-(يا أبا سعيد من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا)	٨١
٢٦-(من آمَنَ باللهِ وبرسولِه وأقامَ الصلاةَ وصامَ)	٨١
٢٧-(أنه بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح)	٨٣

الحديـــــــــــــــث	الصفحة
٢٨-(ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم)	٩٢
٢٩-(كنت في ركب مع رسول الله ﷺ إذ مر بسخلة ميتة)	٩٣
٣٠-(إن الله جعل الدنيا قليلا وما بقي منها إلا القليل)	٩٣
٣٢-(اجتنِبوا السَّبعَ الموبقات)	٩٥
٣٣-(لا بل أنتم العكارون)	٩٧
٣٤-(لا أُلفينَّ أحدَكم يومَ القيامةِ على رقَبتِه فرَس لهُ حَمْحَمة)	١٠٠
٣٥-(ما عندَك يا ثمامة؟)	١٠٥
٣٦-(لو قُلْتَها وأنتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ، أَفْلَحْتَ كُلَّ الفَلاحِ)	١٠٦
٣٧-(استوصوا بالأسارى خيرا)	١٠٧
٣٨-(مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الوالدَةٍ وَوَلَدِهَافَرَّق الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أحبَّتِه)	١٠٧
٣٩-(أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك)	١٠٩
٤٠- (الخيلُ مَعْقُودٌ في نواصِيهَا الخَيْرُ)	١٢٤
٤١- (ثلاثٌ من أصل الإيمان)	١٢٤
٤٢-(لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى غزوة أُحُد، رَجَعَ ناسٌ ممن خرَجَ معه)	١٣٨
٤٣-(وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)	١٥٢

الحديـــــــــــــث	رقم الصفحة
٤٤-(إلاّ أن تَرَوا كفراً بَواحاً عندَكم من اللَّهِ فيه بُرهان)	١٥٨
٤٥-(جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند إمام جائر)	١٦٠
٤٦-(رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار)	١٦١
٤٧-(أخر رسول ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون)	١٦٢
٤٨-(لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم)	١٦٤
٤٩-(إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له من أبوه؟)	١٦٦
٥٠-(إنَّ اللَّهَ حرَّم عليكم دِماءكم وأموالكم)	١٧٧
٥١-(لا يَحلُّ دمُ امرىءٍ يَشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاث)	١٧٧
٥٢-(لَزَوَالُ الدُّنْيَا أهْوَنُ عَلَى الله مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ)	١٧٧
٥٣-(أنا بري من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين)	١٧٧
٥٤-(مَنَّ حمَل علينا السَّلاحَ فليسَ منا)	١٧٩
٥٥-(من كرهَ من أميره شيئاً فلْيصبر، فإنه من خَرَجَ من السلطانِ شِبراً ماتَ ميتةً جاهليةً)	١٧٩
٥٦-(من أعطى إماماً صفقة يده وثمرة فؤاده)	١٧٩

الحديـــــــــــــــــث	رقم الصفحة
٥٧-(إنَّهُ ستَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِناً مَنْ كَانَ)	١٧٩
٥٨-(خِيَارُكُمْ وخِيَارُ أئمَّتِكُمُ الَّـذِينَ تُحِبُّـونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ)	١٨٠
٥٩-(يا غلام أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن)	١٨٦
٦٠-(ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب)	١٩٠
٦١-(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللّهِ مِـنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ)	١٩٦
٦٢-(أجعلتني والله عدلاً ؟)	٢٠٤

فهرست الأعلام المترجم لهم

العلـــــــــــــــــــــم	رقم الصفحة
١- ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن أبي حاتم	٢٧
٢- ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج	٨٧
٣- ابن العربي: محمد بن عبد الله بن حمودية	٢٧
٤- ابن المنذر: أبو بكر النيسابوري	٢٧
٥- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم	٤٤
٦- ابن جرير الطبري: محمد بن جرير الطبري	١٨
٧- ابن زيد: حماد بن زيد	٤٧
٨- ابن قدامة المقدسي: موفق الدين بن محمد	٤٢
٩- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله	١٦
١٠- ابن كثير	١٩
١١- أبو أسامة: زيد بن حارثة	٣٧
١٢- أبو أيوب الأنصاري: خالد بن زيد بن كليب	١٠٧
١٣- أبو جعفر القارئ	٢٩
١٤- أبو حَنـــيفة الكُوفـــي: النّعمان بن ثابت	٤٨
١٥- أبو سعيد الـــخُدري: سَعْد بن مالك	٨١
١٦- أبو سَلَـــمة: عبد الله	٤٤
١٧- أبو عامر: سليم بن عيسى بن سليم	٢٩
١٨- أبو عبيدة بن الجراح الفهري	٨٣
١٩- أبو بكرة: نفيع بن الحارث	٥٠
٢٠- أحمد بن حنبل	١٠٤
٢١- إسحق بن راهَوَيه	١٠٤
٢٢- البغوي: الحسين بن مسعود	٢١

٢٣- البيضاوي: عبد الله بن عمر	٢٩
٢٤- البيهقي: أبوبكر أحمد بن الحسين	٢٧
٢٥- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مذلوف	٧٥
٢٧- جندب بن عبد الله	٨٣
٢٨- الحاكم: محمد بن عبد الله	٢٧
٢٩- الحسن البصري أبو سعيد	٣١
٣٠- حمزة بن حبيب: أبو عمارة	٢٩
٣١-خلف بن هشام ابن ثعلب أبو محمد البغدادي المقرئ	٢٩
٣٢- الرازي: محمد بن عمر بن الحسين	٥٢
٣٣- الربيع بن أنس البكري	٤٧
٣٤- ربيع بن صبيح السعدي	٩٦
٣٥- ربيعة بن أبي عبد الرحمن:	٥٤
٣٦- الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد بن عمر	٧٩
٣٧- الزهري: محمد بن شهاب الزهري	٤٩
٣٨- زيد بن أسلم الإمام أبو عبد الله العمري	٣١
٣٩- سفيان الثوري: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري	٤٩
٤٠- سلمة بن الأكوع	٤٤
٤١- السمعاني: أبو مظفر منصور بن محمد	٧١
٤٢- سهل بن سعد بن مالك	٥٤
٤٣- الشافعي: محمد بن إدريس	١٠٤
٤٤- الشوكاني: محمد بن على بن محمد	٦٢
٤٥- الضحاك بن مزاحم الهلالي	١٠٣
٤٦- عاصم بن ابي النجود الأسدي	٩٩
٤٧- عبد الرزاق بن رزق الله	٢٦

٤٨- عبد الله بن جحش	٨٣
٤٩- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة	٧١
٥٠- عبد الله بن عباس بن عبد المطلب	١٧
٥١- عبد الله بن مسعود	٣٧
٥٢- عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب	٨٣
٥٣- عطاء بن أبي رباح	٤٩
٥٤- عقبة بن نافع بن عبد القيس	٥٤
٥٥- عكرمة بن أبي جهل	٣٠
٥٦- علي بن أبي طلحة	٩٧
٥٧- عمران بن حصين بن عبيد	١٠٥
٥٨- القرطبي: بقى بن مخلد بن يزيد	٤٣
٥٩- مالك بن أنس	٥٤
٦٠- مجاهد بن جبر	٣٠
٦١- المستور بن سعد بن عمرو	٩٢
٦٢- نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم	٢٨
٦٣- النسفي: عبد العزيز بن محمد	٤٦
٦٤- النووي: يحي بن شرف الحزامي	٢٠

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن.للسيوطي. الناشر: دار الفكر لبنان. ط (١). سنة النشر ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. تحقيق: سعيد المندوب.

٢. أحكام القرآن لابن العربي. الناشر: دار الفكر للطباعة. لبنانز ط: (بدون)

٣. أحكام القرآن للجصاص. الناشر:دار إحياء التراث.بيروت ط:(بدون)

٤. أحكام القرآن للشافعي. الناشر: دار الكتب العلمية. بيروت. ط.سنة ١٤٠٠ هـ.

٥. الإصابة في تمييز الصحابة.لابن حجر العسقلاني، الناشر: دار الكتب العلمية. بيروت. ط: (بدون)

٦. أضواء البيان للشنقيطي. الناشر: دار الفكر للطباعة. بيروت. ط. سنة ١٤١٥ هـ

٧. إعراب القرآن للنحاس. الناشر: عالم الكتب. بيروت ط: (بدون)

٨. الأعلام للزركلي. الناشر دار العلم للملايين، بيروت، ط (٥)

٩. إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات لأبي البقاء عبد الله ابن الحسين العبكري الناشر: المكتبة العلمية. باكستان. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض.ط (بدون)

١٠. الإنترنت الأسلحة التي استخدمتها أمريكا ضد أفغانستان http://www.latef.net/amrekea/mkal٢.html

١١. أهمية الجهاد للدكتور على ابن نفيع العلياني.الناشر:دار طيبة للنشر.ط (٤)

١٢. بحر العلوم للسمرقنندي. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت. ط. (١)

١٣. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع.لعلاء الدين أبوبكر الكاساني. الناشر: دار الفكر، بيروت. ط: (بدون)

١٤. بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية. الناشر: مكتبة مزار مصطفي الباز. ط: (١) المحقق: هشام عبد العزيز
١٥. البداية والنهاية. لابن كثير. الناشر. مكتبة المعارف. بيروت ط: (بدون)
١٦. البرهان في علوم القرآن.للزركشي الناشر: دار المعرفة. ط. سنة ١٣٩١م. المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم.
١٧. التاريخ العربي، بيروت. الطبعة الأولى . ط. سنة ١٤٢٠هـ
١٨. تحفة الأحوذي ، للماركفوري، أبو العلاء. الناشر: دار الفكر بيروت.ط (بدون)
١٩. تذكرة الأريب في تفسير الغريب.(بدون)
٢٠. تذكرة الحفاظ. للذهبي. دار إحياء التراث العربي.ط:(بدون)
٢١. ترتيب القرآن. للسيوطي. الناشر:(بدون).
٢٢. التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي.الناشر:دارالكتاب العربي لبنان ط:(٤)
٢٣. التعاريف للمناوي. الناشر: دار الفكر المعاصر. ط (١)
٢٤. التعريفات للجرجاني. الناشر: دار الكتاب العربي. بيروت. ط: (١)
٢٥. تفسير أبي السعود. الناشر: دار إحياء التراث. بيروت. ط: (بدون).
٢٦. تفسير البغوي. الناشر: دار المعرفة. بيروت. تحقيق: خالد عبد الرحمن العك. ط: (بدون)
٢٧. تفسير البيضاوي. الناشر: دار الفكر بيروت. ط (بدون)
٢٨. تفسير الثعالبي: الناشر: مؤسسة الأعلمي. بيروت. ط: (بدون)
٢٩. تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلى. الناشر: دار الحديث القاهرة. ط: (١).
٣٠. تفسير السمعاني:الناشر: دار الوطن الرياض. ط (١)
٣١. تفسير القرآن العظيم. لابن كثير. الناشر:دار الفكر. بيروت ط. سنة ١٤٠١هـ
٣٢. التفسير الكبير للرازي.الناشر:دار الكتب العلميةبيروت.ط.سنة١٤٢١

٣٣. تفسير الكريم الرحمن للسعدي.الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت. ط. سنة ١٤٢١هـ المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق
٣٤. تفسير الواحدي. الناشر: دار القلم ، دمشق، بيروت ط(١)
٣٥. تفسير مجاهد. الناشر: المنشورات العلمية بيروت " (بدون)
٣٦. تفسير النسفي. دار النشر(بدون). ط (بدون)
٣٧. تهذيب الكمال، للمِزّي أبو الحجاج. الناشر: دار الفكر بيروت. ط (بدون)
٣٨. التيسير في القراءات السبع للداني. الناشر:دار الكتاب العربي بيروت ط(٢)
٣٩. التيسير في القراءات السبع. للإمام أبو عمر عثمان بن سعيد. الناشر (بدون)
٤٠. جامع البيان في تأويل القرآن للطبري. الناشر: دار الفكر. ط. سنة ١٤٠٥
٤١. الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي.الناشر دار الشعب. القاهرة. ط. بدون
٤٢. حاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشرٍ : لشهاب الدين أحمد ابن محمد الدمياطي. الناشر: دار الكتب العلمية. ط(١). لبنان.
٤٣. حجة القراءات. لابن زنجلة الناشر: بدون) . ط. (بدون)
٤٤. الحجة في القراءات السبع لابن خالويه. الناشر:دار الشروق بيروت ط (٤)
٤٥. حجج القرآن، للرازي الناشر: الناشر: دار الرائد العربي لبنان، بيروت. ط. سنة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م. المحقق احمد عمر المحمصاني
٤٦. الدر المنثور للسيوطي. الناشر: دار الفكر بيروت .ط. سنة ١٩٩٣
٤٧. دفع إيهام الأضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي. الناشر: مؤسسة.ط. سنة ١٣٢٥ هـ

٤٨. دقائق التفسير لابن تيمية. الناشر: مؤسسة علوم القرآن. دمشق. ط (٢) .تحقيق د. محمد السيد الجلند.
٤٩. روح المعاني للآلوسي. الناشر: دار إحياء التراث بيروت ط (بدون)
٥٠. زاد المسير لابن الجوزي. الناشر: المكتب الإسلامي بيروت. ط (٣)
٥١. زاد المعاد لابن قيم الجوزية. الناشر: مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامي. ط (١٤)
٥٢. سنن الترمذي. الناشر:دار الكتب العلمية. سنة الطبع: ط. سنة ١٩٩٥ م.
٥٣. سنن الدارمي. الناشر: دار الكتب العلمية.ط (بدون)
٥٤. السيرة النبوية. لابن هشام ، الناشر: دار الجيل بيروت،ط (١)
٥٥. شرح المهذب(بدون)
٥٦. شرح بلوغ المرام الشريط الأول. من كتاب فتاوى الأئمة في الفتن المدلهمة جمع محمد بن حسين القحطاني. ط (بدون)
٥٧. صحيح ابن خزيمة لابن خزيمة. الناشر: المكتب الإسلامي " (بدون)
٥٨. صحيح البخاري. الناشر: دار إحياء التراث العربي
٥٩. صحيح بن حبان. الناشر: دار الفكر بيروت ط (بدون)
٦٠. صحيح مسلم شرح النووي. الناشر: دار الفكر بيروت ط (بدون)
٦١. صحيح مسلم. الناشر: دار الكتب العلمية . ط (بدون)
٦٢. صور من حياة الصحابة، لعبد الرحمن رأفت الباشا.الناشر:دار النفائس ، بيروت. ط (١)
٦٣. طبقات المفسرين للداودي. الناشر: مكتبة العلوم والحكم. السعودية ط(١)
٦٤. طبقات المفسرين للسيوطي. الناشر: مكتبة وهبة القاهرة ط (١)
٦٥. ظلال القرآن لسيد قطب.الناشر:دار الشروق طبعة جديدة منقحة
٦٦. العجاب في بيان الأسباب. لابن حجر. الناشر: دار ابن الجوزي. ط:

(١). تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس
٦٧. الفائق للزمخشري. الناشر: دار المعرفة لبنان ط (٢)
٦٨. فتح الباري.لابن حجر العسقلاني. الناشر: دار الفكر ط(بدون)
٦٩. فتح القدير للشوكاني. الناشر: دار الفكر بيروت ط (بدون)
٧٠. فهم القرآن للمحاسبي. الناشر: دار الكندي، دار الفكر بيروت، ط. (٢) سنة النشر ١٣٩٨هـ. المحقق حسين القوتلي
٧١. القاموس المحيط. للعظيم أبادي. الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. ط. سنة ١٩٩٣م
٧٢. كتاب الجهاد سبيلنا لعبد الباقي ومضون. ط(١) سنة المشر ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦، سوريا – حمص.
٧٣. كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير.الناشر: مكتبة ابن تيمية. ط (٢)
٧٤. الكشاف للزمخشري. الناشر: دار إحياء التراث بيروت المحقق عبد الرزاق المهدي. ط (بدون)
٧٥. لباب النقول، للسيوطي. الناشر: دار إحياء العلوم. بيروت. ط (بدون)
٧٦. لسان العرب لابن منظور. الناشر: دار صادر. ط (١)
٧٧. المبسوط لشمس الدين السرخسي. الناشر: دار الكتب العلمية. ط. سنة:١٩٩٣ م .
٧٨. المجموع شرح المهذب، ليحي بن شرف النووي، الناشر: دار الفكر. ط. سنة: ١٩٩٦
٧٩. مجموع فتاوى ابن تيمية. الناشر.(بدون)
٨٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للأندلسي. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ط (١)
٨١. مختار الصحاح للرازي. الناشر: مكتبة لبنان ناشرون. ط (بدون)

٨٢. مختصر خليل. لخليل المالكي. الناشر: دار الفكر، بيروت ط (بدون)
٨٣. المدونة الكبرى لسحنون. الناشر: دار صادر. ط (بدون)
٨٤. المستدرك (الجزء الخاص بالقرآن) للحاكم. الناشر، دار الهجرة، الرياض. ط (١)، تاريخ النشر ١٤١٤هـ،١٩٩٣م
٨٥. مسند الإمام أحمد. الناشر: دار إحياء التراث. ط (بدون)
٨٦. المصفى من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي. الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت ط (١)، تحقيق د. صالح الضامن
٨٧. معارج القبول.(بدون)
٨٨. معاني القرآن للنحاس. الناشر: دار النشر جامعة أم القرى ط (١). تحقيق محمد على الصابوني.
٨٩. معجم البلدان لياقوت الحموي. الناشر: دار الفكر بيروت. ط (بدون)
٩٠. معرفة القراء الكبار للذهبي. الناشر مؤسسة الرسالة، ط (١) بيروت. المحقق شعيب الأرناؤوط ، صالح مهدة عباس
٩١. المغني على مختصر الخرقي. الناشر(بدون)
٩٢. المغني لابن قدامة. الناشر: (بدون)
٩٣. المفردات في غريب القرآن الأصفهاني. الناشر: دار المعرفة لبنان. ط (بدون)
٩٤. مهمات في الجهاد. للشيخين الفوزان والعبيكان. الناشر : مكتبة الملك فهد الوطنية. ط. سنة ١٤٢٤ هـ .
٩٥. ناسخ القرآن ومنسوخه. لابن البازي.الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت. ط (٢). سنة النشر ١٤٠٥هـ. تحقيق حاتم صالح الضامن.
٩٦. الناسخ والمنسوخ للكرمي. الناشر: دار القران الكريم الكويت. ط. سنة ١٤٠٠ هـ ، المحقق سامي عطا حسينز
٩٧. الناسخ والمنسوخ للكرمي. الناشر: دار النشر. الكويت. ط. سنة ١٤٠٠ هـ .تحقيق سامي عطا حسن.
٩٨. الناسخ والمنسوخ للمقري. الناشر: المكتب الإسلامي بيروت سنة

النشر ١٤٠٤ هـ ط (١). تحقيق زهير الشاويش محمد كنعان
٩٩. الناسخ والمنسوخ للنحاس. الناشر: مكتبة الفلاح الكويت .
ط.(١).تحقيق محمد عبد السلام محمد .

١٠٠.نواسخ القرآن لابن الجوزي. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت
ط(١)

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحة
إهداء	٣
الشكر والعرفان	٤
المقدمـــة	٥-١٣
أسباب اختيار الموضوع	٥
مشكلة البحث	٧
منهج البحث	٨
مسلمات البحث	٨
شرح مفردات العنوان	٩
خطة البحث	٩-١٣
الفصل الأول السلام ومظاهره ومقتضياته (١٤-٣٨)	
المبحث الأول: معني السلام وأهميته	١٥-٢٣
المطلب الأول: معني السلام	١٦
المطلب الثاني: أهمية الجهاد	١٨
المبحث الثاني: مظاهر السلام	٢٤-٣٨
المطلب الأول: مظاهر السلام في القولية	٢٥
المطلب الثاني: مظاهر السلام العملية	٣٠
المطلب الثالث: تحية أهل الكتاب	٣٦

الفصل الثاني الإعداد للجهاد (٣٩-١٠٩)	
المبحث الأول: ما يؤخذ بالحسبان قبل أن يلتقي الجمعان	٣٩-٦٢
المطلب الأول: حكم القتال من غير إمام وأرض ينطلق منها	٤١
المطلب الثاني: ما يحرم فيه القتال من المكان	٤٦
المطلب الثالث: مراعاة العهود والمواثيق	٥١
المطلب الرابع: دعوة الكفار إلى الإسلام	٥٣
المطلب الخامس: القوة اللازمة	٥٥
المبحث الثاني: ما يؤخذ بالحسبان عندما يلتقي الجمعان	٦٣-١٠٩
المطلب الأول: إخلاص النية وعدم التنازع	٦٤
المطلب الثاني: الصبر والثبات وكثرة الذكر لله تعالى	٦٦
المطلب الثالث: التحريض على القتال	٦٩
المبحث الثالث: أحكام الأسر	١٠١-١٠٩
المطلب الأول: معنى الأسر	١٠٢
المطلب الثاني: حكم الأسر	١٠٢
المطلب الثالث: حكم الأسير	١٠٣
المطلب الرابع: معاملة الأسرى	١٠٦
الفصل الثالث من شرع قتالهم (١١٠-١٨١)	
المبحث الأول: قتال من لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ	١١١-١٦٧
المطلب الأول: قتال المشركين	١١٢
المطلب الثاني: قتال الكفار	١٣٤
المطلب الثالث: قتال المنافقين	١٣٧

المطلب الرابع: قتال أهل الكتاب	١٤٠
المبحث الثاني: حكم القتال من أجل الإكراه في الدين	١٦٨
المطلب الأول: القتال من أجل اعتقاد الدين	١٦٩
المطلب الثاني: حكم القتال من أجل الإلزام بالتشريع	١٧٢
المبحث الثالث: قتال اقتضته الضرورة	١٧٥
المطلب الأول: قتل المؤمنين إذا اختلطوا بالكافرين	١٧٦
المطلب الثاني: قتال البغاة	١٧٧
الفصل الرابع أسباب النصر (١٨٣-٢٠٤)	
المبحث الأول: الأسباب الروحية	١٨٣-١٩٤
المطلب الأول: ما ينال به عون الله ومدده	١٨٤
المطلب الثاني: طاعة الله والبعد عن المعاصي	١٨٩
المطلب الثالث: استنصار الله تعالى والتوكل عليه	١٩١
المبحث الثاني: الأسباب المادية	١٩٥
المطلب الأول: قوة الأبدان وفعالية السلاح	١٩٦
المطلب الثاني: كثرة السواد	١٩٩
المطلب الثالث: وحدة الصف	٢٠١
الخاتمة	٢٠٣
فهرس الآيات	٢٠٥
فهرس الأحاديث	٢١٩
فهرس الأعلام	٢٢٤
فهرس المصادر	٢٢٧
فهرس المحتويات	٢٣٤